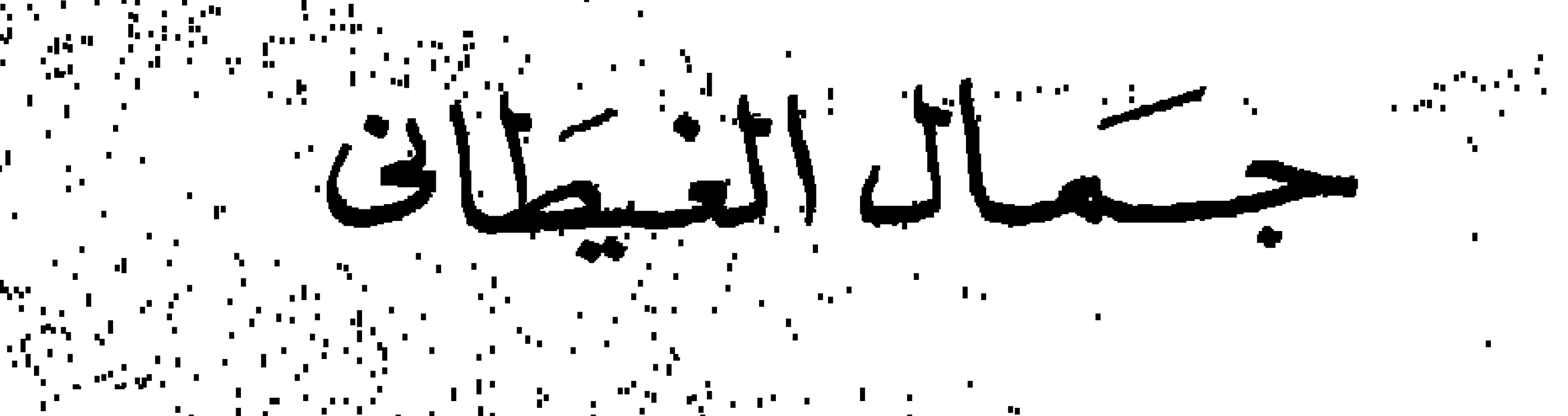


حراس البوابة الشرقية

جمال الغيطاني

حراس البوابة الشرقية

الطبعة الثالثة

الجيش العراقي من حرب
(تشرين أول) أكتوبر الى
حرب الشمال

مقدمة

بعد متابعتي لحرب أكتوبر على جبهة قناة السويس من خلال عملى كمراسل حربى ، سافرت بعد ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ الى الجبهة السورية لاعداد تحقيقات صحفية عن المعارك التى دارت هناك ، وأثناء لقاءاتى بالمقاتلين السوريين كانوا يتحدثون عن الدور الذى قامت به القوات العراقية فى وقف الهجوم الاسرائيلى المضاد ، وعملية التنقل الهائلة التى قامت بها وحدات الجيش العراقى من بغداد الى دمشق عبر طريق يزيد طوله عن ألف كيلو متر، غير أن تفاصيل المعارك التى خاضتها وحدات الجيش العراقى لم تتوافر لى وقتئذ ، وذلك لعودة الجيش الى العراق بعد وقف اطلاق النار .

ثم لاحظت من خلال متابعتى لما كتب عن حرب أكتوبر ندرة ما ذكر حول دور الجيش العراقى ، ووصل الأمر الى حد يشبه التعتيم الاعلامى، لا أدرى مصدره أو المسئول عنه ، كما لاحظت أيضا عدم وضوح هذا الدور بالنسبة للاذهان ، لدرجة أن البعض ــ سواء من العسكريين بين العرب أو المواطنين العاديين ــ لم يكن يدرى الحجم الحقيقى للقوات العراقية التى عملت فى الجولان أو الدور الذى قامت به ، من هنا لم أتردد عندما سمحت الظروف بمحاولة الوقوف على حقيقة الدور الذى لعبه الجيش العراقى فى حرب أكتوبر ، وبدأت اتجه الى الانسان موضوع بحثى المستمر ، ثم الوثائق ، ثم الكتب »

وهكذا بدأت رحلة بحث بهدف استكشاف دور الجيش العراقى فى حرب أكتوبر ، وكنت أبدأ أكثر من رحلة فى وقت واحد على أكثر من مستوى ، عندما بدأت الرحيل ، كنت اتجه الى الرجال وهم يخوضون حربا ، لم أكن أرحل للقائهم فى معسكرات تدريب أو مواقع آمنة » ما كنت اتحدث الى الضباط فى مواقع قياداتهم الآمنة بالمدن ، أو معسكرات التدريب . انما اتجهت اليهم فوق قمم الجبال وفى المناطق الوعرة بشمال العراق ، كانوا يخوضون قتالا من نوع آخر ، من أجل وحدة العراق الوطنية ، وتطبيق الحكم الذاتى . قتال ضد قوى التخلف والرجعية . وهكذا تمضى الخطوط متوازية :

● البحث عن دور الجيش العراقى فى حرب أكتوبر (تشرين الأول) ، ليس من خلال الوقائع المدونة ، انما من خلال البشر الذين خاضوها .

● وصف للعمليات العسكرية التى خاضتها وحدات الجيش العراقى ضد الجيش الكردى العميل ، وخاصة أن أحداثا حاسمة وقعت أثناء رحلتى تلك ، منها وقف اطلاق النار فى مارس الماضى ، وانتهاء التمرد الى الابد .

● بحثى عن جذور المشكلة الكردية . وتطوراتها ، وابعادها .

● رحلة فى المكان ، شمال العراق بجماله الاسطورى . وبدائيـة جباله ، وروعة ثلوجه ، هذا المكان الذى يمثل الاطار بالنسبة لموضوعات بحثى .

كل هذه الخطوط تمضى فى اطار رحلتى ، لا يخضع الكتاب لترتيب الأحداث وفق تسلسلها الزمنى والتاريخى ، بقدر ما يخضع لموقع ولحظة اكتشافها بالنسبة لى فى الرحـلة ، من هنا لم تخضـع للترتيب الزمنى التقليدى ، كما حرصت على تسجيل الحقائق والانطباعات ، والانفعالات التى تضفى على الحدث المحدود ، واللحظة العابرة عمقا وشمولا ، وهكذا يكتشف القارىء معى الحقيقة شيئا فشيئا . تلك الحقيقة التى ارجو أن أكون قد سجلتها كمـا رأيت وسمعت ، وكما عشتهـا ، لقد تعلمت من تجربتى كمراسل حربى ، أن التفاصيل تضيع ان لم تدون ، وفى الحرب تنزف دماء المقاتلين أثمن ما يجود به الانسان ، لكن كثيرا ما تبقى آلاف الأحداث الصغيرة والكبيرة مجهولة ، وواجب الكاتب أن ينقب عما أداه ابناء وطنه ، وهذا ما حاولته أثناء متابعتى لقتال وبطولات المقاتل المصرى على جبهة قناة السـويس منذ عام ١٩٦٨ وحتى أكتوبر (تشرين) ، ثم متابعتى للمقاتل السورى خلال حرب أكتوبر (تشرين) . وهذا الكتاب يقدم تلك المحاولة من اجل تتبع الدور الذى قدمه المقاتل العراقى فى حرب أكتوبر (تشرين) ، وحرب تصفية الجيب العميل ، وما ارجوه مستقبلا أن أتمكن من متابعة الدور الذى قام به الانسان العربى المقاتل ، ضـد الصهيونية والاستعمار والتخلف .

جمـال الغيطانى

القاهرة ١٩٧٥/١٠/٢٩

إلى

شهداء الجيش العراقى فى :

سيناء

الجولان

شمال العراق

المحور الأول :

بداية الرحيل : أول فبراير ١٩٧٥

دربندي خان ، الجـــــــولان

شيئا فشيئا بدأت طائرة الهليوكبتر ترتفع عن الأرض ، مال جسم الطائرة قليلا ، وبعد استدارة خفيفة اتخذت وجهتها الى الشرق ، بدا ظل المروحة دائرة ضخمة منتظمة ، تضاءلت منشآت القاعدة الجوية ، من خلال الواجهة الزجاجية للطائرة بدأت تظهر اطراف ثوب ضخم شاسع من قطيفة خضراء يكسو الارض ، لون أخضر يغمق حينا ويزهو فى مواضع أخرى ، يتحرك ظل الطائرة بطيئا ، يختفى لحظات طبقا لموضعها من الشمس التى لا تزال فى بداية رحلتها اليومية ، فى المقدمة الى جوار الطيار يجلس قائد احد التشكيلات العسكرية العراقية . طويل القامة ، أسمر ملامحه عربية أصيلة ، فى المقاعد المجاورة جلس عدد من المقاتلين العراقيين ، ملامحهم العربية المحددة تستدعى الىالذهن ملامح أصدقاء عسكريين مصريينعرفتهم فى جبهة السويس ، لا يكشف الفارق الا ايقاع اللهجة المحلية التى تختلف بين بلد وآخر ، كما تختلف اللهجات بين مدينة واخرى داخل القطر الواحد، أن السمات الخارجية للعسكرية العربية متشابهة تماما . وبنظرة أعمق ، وبعد معايشة أطول تكتشف التشابه الداخلى أيضا ، لاحظت أن القائد العراقى يوجه الطيار ، يده تحدد الاتجاه . تتحرك الطائرة تبعا لاشاراته ، يقوم بدور الملاح الجوى ، تحتنا بدأت التجاعيد الأرضية ، مررنا فوق قريتين عراقيتين ، تطلع السكان الى أعلى ، جرى بعض الصبية ملوحين بأيديهم ، فى فناء أحد المنازل أسرعت دجاجات بتأثير صوت الطائرة ، أخاديد ، فجوات عميقة ، انتهى استواء الأرض ، شكلها يوحى بعدم وجود الانسان ، نبدأ الطيران فوق جبال حمرين ، سلسلة من المرتفعات الجبلية المتوسطة لا يزيد ارتفاعها عن ٥٠٠ قدم ، تمتد بين نهر سيروان بايران ، وحتى دجلة غربا بموجات متتابعة من الصخور كأنها أمواج بحر تجمدت . يميل التموج الى استدارة فكأنها قباب ناقصة اتصل بعضها ببعض تغطيها حينا وتتعرى حينا آخر ، يخلو الجبل من أى علامات صنعها الانسان ، نفس المشاهد التى انطبعت فى أحداق أجدادنا الأوائل ، كأن الزمن توقف عند بداية العالم . من هنا يبدأ تساؤل حول معرفة القائد لطريق الطيران ؟ لاترى أى علامات تمييز ، الا اذا اعتبرنا خفة اللون فى موضع وقتامته فى مواضع أخرى آثار ودلائل ، تتبعت ملامح وجهه ، وجوه المقاتلين المحيطة بى ، بعضهم يحملق الى السماء حيث الغيوم قليلة متباعدة ، بيضاء ، قاتمة الحواف ، تهدد ضوء الشمس لحظات ثم تنأى عنه ، نذكر أحد الصيادين فى البحر الأحمر أثناء عودتنا من جزيرة شدوان عام ١٩٧٠ ، كان الليل شتويا والنجوم لا تفصح عن نفسها بسهولة ، والقارب يتجه بثقة الى جهة محددة ، يعلو الصوت لحظات اذ يأمر بتغيير الدفة يمينا ، أو شمالا . تساءلت : كيف يعرف الطريق الى ظلمة البحر ؟ عرفت انها المعايشة الطويلة للمكان ، ينظر الى الماء فيعرف اتجاهه ، كان يرى فيه اشارات وعلامات لا يدركها الا هو ، بتجربته الطويلة ، وذكائه الحاد . أعود الى وجوه الجالسين حولى ، تلك السمات الخاصة بمن يحملون مسئولية القتال والاشتباك والدفاع والهجوم ، هدوء عميق يعكس

القدرة على اتخاذ القرارات بلا عصبية ، أو انفعال طارىء ، اشــارات يد القائد مستمدة من ذاكرة صاغتها الحرب ، المخاطر ، يمرق ظل الطائرة فوق بناء حجري منتظم ، من صنع الانسان ، نصب تذكارى بجانب قبور الأتراك والانجليز الذين قتلوا خلال الحرب العالمية الأولى ، ويبقي هــذا النصب الحجرى شاهدا أخرس على ما جرى ، انه معرض للعرء ، للثلوج، لعيون قليلة نادرة يتطلع اصحابها من طائرة عابرة أو راجلين متجهين لاداء مهمة ما لا تتعلق حتما بهذا الشاهد الحجرى ، ربما لا يدرون ما هو ، لماذا اقيم ؟ وقد لا ينتبه اليه أحد •

مرة أخرى تشير يد القائد ، ويستدير جسم الطائرة ، احدى صفات المقاتل الجيد معرفته بطبيعة الأرض التى تتحرك أو تتمركز عليها قواته • تتجسد قيمة هذا عند ادارة معركة ، أو دفع تشكيلات عسكرية الى مكان معين ، أو التصــدى لهجوم معاد ، اذا اغمض عينيــه تبدو فى ذهنه كل التضاريس ، القنوات ، العوارض ، الطرق والمنحنيات ، يقلل هذا من عامل المفاجأة الذى قد يلجأ اليه العدو ، انه يعرف أرضه تماما ، تلك التجاعيد والشقوق النحيلة التى تتخلل اللون الأخضر ، والتى تبدو كتعاريج بنبة اللون فوق ورقة شجر ، أيضا تلك الأشكال التى تبدو من اعلى وكأنها لوحات تجريدية رسمها فنان غامض ثم اختفى ، تنوعات اللون ، كل هــذا يعنى بالنسـبة له علامات ، وملامح ، تدله الى هدف ، أو موضــع ، ربما يدركها بلا وعيه أكثر مما يدركها بعقله .

فوق هضبة مرتفعة ، بدا أول أثر انسانى متكامل فى وسـط تلك المساحة الضخمة من المرتفعات والصخور الموحشة ، والوحدة ، والصمت الذى يبدو مرئيا ، لاينفيه هدير الطائرة العارض ، العابر ، الذى ندرك أننا مصدره • فوق أرض وعرة، بدت مساحة من الأرض شبه مستطيلة سوتها الأيدى ، تحفها أكياس أعرفها جيدا ، انها محشوة بالرمال ، وربما تكون هنا محشوة بشىء آخر ، لكنها دائما تمثل الحد الذى يرتكز اليه ، يحتمى به المقاتل أملا فى حمايته من شظية ساخنة ، أو رصاصة تبحث عن مستقرها فى الجســد ، يعتمد عليــه فى امتصــاص الطلقات التى تستهدفه ، فوق تلك الأكياس عدد من البطاطين رمادية اللون معرضة لاشعة الشمس ، فى الوسط بناء شبه مربع ، جنود الجيش العراقى ، ترتفع الأيدى ملوحة ، بعضها يقبض على مدافع رشاشة سريعة ، جالت عيناى بسرعة ، لمحت بعض مدافع الميدان المتوسطة على أجناب الموقع ، ومدفعا رشاشا وحيدا فوق صندوق خشبى مربع ، لابد أن صاحبه يقضى حاجة ، أو ينظفه، انخفضت الطائرة ، دارت حوله ، ارتفعت يد القائد بالتحيــة ، وأيدى المقاتلين ، وبدأ الموقع فوق الهضبة الصخرية الماثلة كالمقعد فوق ظهر البعير، وتستمر الطائرة متجهة الى الشرق ، استعيد بعقلى المواضع التى يرابط فوقها الجنود ، كيف يمر الليــل عليهم ، أى أصــوات يسمعون ، كيف يصعدون هذا المنحدر القاسى ، كيف تمضى أيامهم ، ما هى العبارات التى سيتبادلونها بعد مرور الطائرة ، سريان الدفء المعنوى فى أرواحهم ، بعد أيام أدركت الرد العملى على جميع ما تردد فى روحى من تساؤلات ،

طرنا فوق موقع آخر ، أكبر حجما ، جنوده أكثر عددا ، لمحت ثلاث دبابات طلاؤها أخضر ، وارجأت استفساري عن كيفية صعودهم هذه القمة التى أشعر بانحدارها الشديد من الطائرة .

يطلق العسكريون العرب فى العراق على هذه المواقع اسم «الربايا»، اعلى المواضع فى الصخور ، تتحكم فى المناطق المحيطة بها ، أن القادة هنا لا يعرفون طريقهم فقط فوق تلك المناطق المتشابهة الملامح ، لكنهم يحفظون مواقع جنودهم أيضا ، وهم حريصون على ألا يفوتهم المرور فوقها جميعا » الى اليسار تبدو منطقة مرتفعة ، صخرية ، اسمها (زين القوس) ، شهدت حوادث هامة واشتباكات عنيفة بين رجال الجيش العراقى وزمرة التمرد والقوات الأجنبية المساندة لها . بعد طيران ما يقرب من نصف ساعة نرى منشآت مدنية : أكشاك ، بيوت من طابق واحد ، عربات نقل .

« النفط خانة » :

وسط الخضرة ، الاتساع اللانهائى ، تتوهج شعلات النيران الناتجة عن احتراق الغاز الطبيعى ، بقع صفراء متوهجة على وجه النهار المستقر فوق بساط من الخضرة هنا ، من بعيد تبدو شعلات ضعيفة فى حجم نيران أعواد الثقاب ، حقل البترول الايرانى ، نفط شاه ، يواجه الحقل العراقى ، تستدير الطائرة مولية ظهرها لشعلات البترول ، تبدو صخور بنية تختلط فيها الوان صفراء ، حمراء ، سوداء ، يتوالى ظهور الربايا ، تتقارب المسافات فيما بينها بسرعة ، انها المواقع الأمامية ، الحدودية ، بينما يبدو طريق ترابى طويل يمشى متخللا الصخور ، يحفه خط أبيض ، تتتابع الربايا ، بعدها لا يمكن الحركة الا فى اطار ظروف خاصة ، انها الحدود ، وهؤلاء حراسها ، وفى الجانب الآخر كان باستطاعتنا رؤية مخافر الحدود الايرانية ، الحدود التى نطير بمحاذاتها ، ليست حدود العراق وحده ، تلك حدود الأمة العربية والوجود العربى ، وهؤلاء الرجال الذين نصحبهم ، ونراهم فى تلك الأماكن المعزولة القاسية ، هم حراس الحدود الشرقية للأمة العربية .

ويستمر هدير الطائرة ، نعبر مدينة خانقين ، نطير فوق الشوارع الرئيسية بالبلدة ، نبعد الآن عن مدينة بعقوبة ، مركز محافظة ديالى ، (١٠٨ كيلو مترات عن بغداد) نتجه الى مخفر « المنذرية » ، آخر الحدود العراقية العربية الشرقية ، باستطاعتنا رؤية بناء حجرى قريب ، مخفر الشرطة الايرانية المسمى (خسروى) ، من ايران يتدفق نهر الوند ، يخترق مدينة خانقين ، المبانى محددة ، نظيفة ، متشابهة الطراز ، تتبع الشركة الوطنية للنفط ، بلوح الجنود ، ألمح ابتسامة على وجه جندى عراقى ، انهم مرابطون حول بقايا قلعة قديمة تبدو كبصمة تبقت من التاريخ القديم على المكان الجبلى ، يعود تاريخها الى عهد الساسانيين .

تتنوع الصخور والألوان ، نقترب من بعض الأماكن التى يرابط بها بعض المتمردين الاكراد ، انها مناطق قريبة من الحدود الايرانية ، محدودة ،

تمر الطائرة فوق قرى كردية ، ألمح البيوت المتسعة : بعض شباب الاكراد يلوح للطائرة ، للقرية الكردية شكل متميز سواء طالعتها من الطائرة أو من الطريق ، أو مشيت خلال شوارعها ، كثيراً ما تبدو القرى وكأنها تلوذ بحضن الجبل ، أو تلتمس الحماية من الصخور ، ان الظروف التى تبنى فيها القرية ونظامها يمنحها هذا الشكل المتميز ، فالبيوت عادة تبنى على موقع مرتفع من الأرض ، تبدو كأنها بنيت فوق بعضها البعض ، أو شيد كل بيت على درجة تعلو الأخرى ، يرجع هذا الى انحدار المرتفعات الجبلية : واختيار هذه المواقع لا يرجع الى أسباب اقتصادية بقدر ما يرجع الى تحقيق الحماية من اخطار الطبيعة والانسان ، المناخ الجبلى وعر بما يحفل به من رياح باردة : وأمطار وثلوج ، وتتحقق الحماية من الرياح الباردة ، بينما تدفن ظهورها الواجهة للرياح الباردة الى النصف تقريبا وهذه التصميمات الهندسية تكمن وراء تلك السمات الخاصة بالقرية الكردية ، ولايخلو التصميم الهندسى من طبيعة حربية ، أن المدرجات التى يعلو كل منها الآخر طبقا لميل المنحدر تنقص كلما تدرجت الى أعلى ، وهكذا تأخذ القرية شكلا هرميا ، قاعدته بالقرب من الوادى ، وقمته أو رأسه فى منتصف المنحدر ، وعادة يمتد طريق عريض وسط القرية يقسمها الى نصفين ، يصل بين الوادى وقمة المرتفع ، ان ازقة القرى ضيقة لكنها مستقيمة ، حادة ، تفصل بين مجموعات البيوت المتجاورة : ويمكن من خلال أعلى البيوت رصد الطرق المحيطة الى مسافات بعيدة ، والتصدى لأى هجمات ، تلك هندسة القرى الكردية الجبلية التى رأيناها من الطائرة ، أو زرناها فيما بعد ، ويبدو أن تلك التصميمات نتاج ظروف تاريخية طويلة نتيجة للاضطرابات التى سادت المناطق الكردية خلال فترات طويلة . تتعاقب القرى يتطلع الرجال الى أعلى ، يجرى صبية صغار ، ويلوح طفل بكراسة أو كتاب ، وعلى مسافات متفاوتة خارج القرى تلمح قطعان الأغنام ، تتفرق ، تعدو بتأثير الطائرة التى تطير على ارتفاع منخفض ، كما يعرف الرجال ملامح طريقهم ومواقع الربايا ، فانهم يعرفون ايضا القرى الكردية التى يقاتل رجالها دفاعا عن الحكم الذاتى ضد الملا مصطفى البرزانى والمتمردين معه ، ايضا يعرفون المواضع التى يكمن فيها الخطر ، لدى المتمردين أسلحة متقدمة لمقاومة الطائرات ، بعضها امريكى ، وبعضها انجليزى ، واسرائيلى ، وهيلوكبتر صغيرة تطير على ارتفاع معين ، وبسرعة محدودة ، هدف مغر بلاشك .

ثمة تغيير طرأ على حركة الطائرة .

الشقوق الأرضية تضيق ، المساحات الخضراء تصبح أصغر ، الافق يمتد ، الظل اختفى من فوق الارض ، كما لو توقفنا ، ترتفع الطائرة ، تطلعت الى وجوه المقاتلين حولى ، لعلى أرى انعكاس الموقف على ملامحهم ، السمات لا تهتز ، الاهداب متقاربة ، متطلعة ، بينما تقبض يد الطيار على يد صغيرة مستديرة الراس ، نفس الهدوء الواضح ، تستمر اهتزازات الطائرة وحركتها الرأسية الى أعلى ، كأنها تقاوم قوة غامضة ، خفية ، تشدها الى أسفل ، وتحاول جاهدة الفكاك منها ، أعود الى وجوه الرجال ، منذ فترة يتصدون للتمرد الرجعى فى شمال العراق ، ومنذ حوالى عام ونصف عام حاربوا على الجبهة السورية ضد العدو الاسرائيلى ، بالتحديد فى أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ .

٦ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٣ :

قطعت الاذاعة الاسرائيلية برامجها لتعلن بالعبرية بيانا صادرا عن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي جاء فيه :

((انه ابتداء من الساعة ١٥ر٢ ، بدات القوات المصرية والسورية تهاجم في سيناء ، وفي هضبة الجولان ، وفي الجو ، وفي البحر ، وبعد سلسلة من الغارات الجوية على مواقعنا ، وعلى معسكراتنا بدات قوات المشاة المصرية بهجوم بري ، فقد عبرت قوات مصرية قناة السويس في أماكن عدة ، أما القوات السورية فقد بدات بهجوم مدرعات ومشاة على طول الخط في جبهة الجولان ، وتعمل قوات الجيش الاسرائيلي على مواجهة المهاجمين ، وتدور على الجبهتين معارك في البحر والبر .)).

كانت سورية قد بدات القتال بتنسيق ، سبق الاعداد له بعناية مع القيادة المصرية ، وفي تمام الساعة الثانية وخمس دقائق اقلعت الطائرات العربية من مصر وسوريا في توقيت واحد لضرب أهداف العدو في سيناء والجولان ، من سوريا أقلعت حوالي مائة طائرة لتضرب الحشود والاهداف الرئيسية في سهل الحولة وهضبة الجولان ، في نفس اليوم بدأ السوريون هجومهم البرى عندما دفعوا بثلاث فرق مشاه تعززها ٦٠٠ دبابة حديثة من طراز ت ٥٤ ، ت ٥٥ ، و ت ٦٢ . تقدمت القوات السورية في هجوم خاطف لتقتحم الخندق الاسرائيلي المضاد للدبابات ، والذى امتد على طول الجبهة بعرض ٤ أمتار وعمق ٤ أمتار ، وكان مقاما الى جانبه الغربى ــ الاسرائيلي ــ ساتر ترابي لمنع الدبابات من التقدم الى جانب حقول الغام وأسلاك شائكة ، نجحت القوات السورية في اقتحام الخندق وبقية الدفاعات الاسرائيلية ، ومن أجل فهم طبيعة العمليات العسكرية على الجبهة السورية وما سيقوم به الجيش العراقي يحسن استعراض وضع الجبهة السورية .

ان الجبهة لا تمتد في خط مستقيم ، كانت القوات السورية تواجه العدو عبر خط متعرج يبلغ طوله ٧٠ كيلو مترا ، تتخلله سلسلة جبال وعرة ، صخرية ، حادة الارتفاع ، وهي ما يعرف باسم هضبة الجولان ، وتنقسم الجبهة الى ثلاثة قطاعات ، القطاع الشمالى ، والقطاع الاوسط ، والقطاع الجنوبى ، اكثرها وعورة الشمالى ، تمتد فيه سلسلة جبال الحرامون التى تضم جبل الشيخ ، تبدأ مرتفعات الجولان جنوب تل أبو الندا الصخرى ، يليه تل الفرس ، على سفح أبو الندا تقع مدينة القنيطرة ويتخلل هذه المرتفعات القطاع الاوسط ، اما الجنوبى الذى ينتهى بالحدود مع الاردن فتجد أرضه منبسطة سهلة ، والى الغرب في هذا القطاع تمتد مرتفعات الجولان ، وتنتهى عند بحيرة طبرية .

(بعد عام ١٩٦٧ ، ركزت القوات الاسرائيلية على تدعيم مواقعها في القطاع الشمالى من الجبهة لما يمثله من أهمية استراتيجية بالنسبة للجبهة

السورية كلها ، لو احتلته القوات السورية سيمكنها من الانحدار جنوبا لتلتف حول خطوط الدفاع الاسرائيلية فى القطاعين الاوسط والجنوبى مع ما سيترتب عليه من مضاعفات أخرى ستشمل تهديد شمال فلسطين المحتل ، وسهل الحولة ، والجليل الاعلى ، بالاضافة الى السيطرة على مصادر المياه التى تصب فى نهر الاردن ، ومن الناحية التكتيكية يعطى هذا القطاع القوات الاسرائيلية القدرة على الحركة والمناورة ، فهى أن أرادت اتباع مبدأ الهجوم ، تكون الاوضاع مهيأة لها ، وهى أن ارادت الدفاع فسيكون بمقدورها ذلك لان الوضع فى هذا القطاع يعطيها نوعا من السيطرة على القوات السورية العاملة فى مواجهتها ، ويمكن للقوات الاسرائيلية تهديد دمشق ، والقطاعين الاوسط والجنوبى اذا ما لجأت الى مبدأ الهجوم ونجحت فى تنفيذه) . (١)

وهكذا اندفعت القوات السورية من خلال هجومها فى الجولان على ثلاثة محاور رئيسية :

● المحور الشمالى : خان أرينبة ، الحميدية ، المنصورة ، واسط .

واستهدف الهجوم على هذا المحور تطويق القنيطرة من الشمال ، والتقدم باتجاه الغرب فى القطاع الشمالى باتجاه بانياس .

● المحور الاوسط : كودنا ، الجويزة ، كفر نفاخ .

واستهدف الوصول الى مقر القيادة الاسرائيلية فى كفر نفاخ ، ومن ثم تنقسم القوات المهاجمة على هذا المحور الى قسمين ، الاول يضم قوات الجهد الرئيسى ، تواصل هجومها غربا باتجاه الحدود مع فلسطين المحتلة ، والقسم الثانى يضم قوات الجهد الثانوى العاملة على هذا المحور ، وتواصل اندفاعها شمالا باتجاه « واسط » للالتقاء بالقوات السورية المتقدمة من الشمال ، لاحكام الحصار حول مدينة « القنيطرة » .

● المحور الثالث ـ الجنوبى : البطمية ، الجوخدار ، خسفين ، العسال . واستهدف الهجوم على هذا المحور الوصول الى الحمة السورية فى القطاع لجنوبى .

منذ بدأ لهجوم بذلت القوات السورية جهدا متصلا لتحرير مدينة القنيطرة ، لكن جميع محاولاتها صدت ، فى نفس الوقت كانت القيادة الاسرائيلية قد قررت وقف تقدم القوات السورية فى الايام الاولى للقتال ، قبل سيطرتها على نقاط استراتيجية يصعب اخراجها منها ، وقبل تمكنها من القضاء على المواقع الاسرائيلية المنتشرة فى هضبة الجولان ، والتى لا تزال تقاوم رغم أن الهجوم السورى قد تجاوزها الى الخلف .

هذا ما جرى فى اليوم الاول فى الحرب على الجبهة السورية ، وفى بغداد أذيع نبأ الحرب من الراديو . وكان هذا هو المصدر الوحيد الذى علم منه العراقيون القادة والشعب والضباط والجنود خبر الحرب ، وخلال لقاءاتى العديدة بالمقاتلين العراقيين ، كان كل منهم يبدأ حديثه

---

١ ـ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ـمركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ص ٣٣ .

بجملـــة لا يخلو مضـــمونها من عتاب .. (ســـمعنا نبأ الحرب من الاذاعة ...) .

عتاب أخ الى أخيه ، كيف يجرى عند احدهما حدث كبير ، ولا يطلعه مسبقا ، أو يلمح له ، ليتسنى له الاعداد ، والمشاركة ، أو تهيئة نفســه حتى .

فى نفس اليوم ســمع المقاتلون العراقيون نبأ عن اجتمــاع مشترك للقيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربى الاشــتراكى ، ومجلس قيادة الثورة ، ثم نبأ آخر عن اتصال الرئيس أحمد حسن البكر هاتفيا بالرئيسين ، انور السادات ، وحافظ الاسد ، مؤكدا لهما مساندة العراق لمصر وسوريا فى معركتهما ضد العدو الاسرائيلى ، ويبلغهما ايضا بقرار الثورة فى العراق ، وضع كافة الوحدات العسكرية للجيش العراقى تحت أمرة القيادتين المصرية والسورية ، وفى مختلف تشكيلات الجيش بدأت اجتماعات عسكرية على جميع المستويات . وذلك للاطمئنان الى الاستعداد القتالى للوحــدات ، كان ثمة يقين لدى المقاتلين العراقيين انهم ســوف يشتركون فى القتال ، هذا الاحساس اليقينى أستند الى أسس موضوعية منها الموقف السريع الايجــابى للقيادة السياســية ، وحالة التأهب التى اعلنت فى قطعات الجيش ، والمشاركة الفعلية للقوات الجوية العراقية فى المعارك التى بدأ تعلى الجبهة المصرية ، كان الموقف اشبه بشقيق يتعارك ضد معتد عليه ، وشقيقه الآخر يقف بالقرب منه ، لم يدع للاشتراك فى العراك بعد ، لكنه يستعد وهو يقف فى مكانه ، لم تمض ساعات قليلة على بدء الحرب حتى أعلنت عــدة قرارات هامة عن الاجتماع الذى عقــد بين القيادتين القطرية والقومية لحزب البعث العربى الاشــتراكى ، ومجلس قيادة الثورة ، وتضمنت القرارات :

أولا ـ تأميم حصة أمريكا من شركة نفط البصرة .

ثانيا ـ ارسال قوات جوية على عجل الى سوريا .

ثالثا ـ ارسال أكبر ما يمكن من القطعــات العسكرية البرية الضاربة الى سورية ، وعلى الفور .

كان كل قرار من تلك القرارات يترجم فى الواقع الى حركة شديدة ، واستعداد ، وتنقلات ، وجهد بشرى يبذل بسخاء . وطلبت قياة الجيش العراقى من التشكيل العســكرى المرابط فى محافظة ديالى تجهيز لواء ميكانيكى لارســاله على وجه السرعة الى الجبهة الســورية ، ويتولى هذا التشكيل ـ وقدره فرقة مشاة ميكانيكية مدعومة ـ حماية الحدود لمسافة طويلة ، انها نفس الحدود التى نطير بمحاذاتها الآن ، ان الواجب الرئيسى للتشــكيل فى هذا القطاع هو حراســة تلك المسافات الشاســعة ، أما المتمردون الاكراد فيتواجدون فى الشــمال الاقصى للقطاع ، ولا يشكل حجمهم خطرا كبيرا هنا ، وفى هذه الفترة لم تكن العمليات العســكرية قد بدأت بعد ، ســواء ضد المتمردين أو منهم ، وعندما أصــغى رجال هذا التشكيل الى البيان الذى دعا الى اعادة العلاقات الدبلوماسية مع ايران ، لابد أنهم شــعروا براحة كبيرة ، لانهم سيتفرغون تماما للقتال ضد العدو

الصهيوني ، كانت العلاقات الدبلوماسية قد قطعت بين البلدين فى كانون الثانى ١٩٧١ بعد أحتلال أيران لثلاث جزر عربية فى الخليج العربى ·
قال البيان :

« ان المعركة التى تخوضـها الامة العربية اليوم هى أشرف المعارك ، وهى القضـية الاولى التى تتقـدم ، بمحتواها التحريرى وضـمن هذه المرحلة ، كل الاعتبارات الاخرى ، ولما كان العراق يتحمل مسئولية قومية المعركة فانه يتوجه الى الجارة ايران لاعادة علاقات حسن الجوار والتعاون وحل المشكلات القائمـة وفـق روح الجيرة ، وروح الروابط الاسـلامية التى تجمع بين الشـعبين العراقى والايرانى ومصالحهما المشتركة » ·

صحيح ان ايران لا يمكن أن تقدم على عمل مسلح وقتئذ ضد الحدود الشرقية للامة العربية ، ولكن البيان اسـتهدف توفير الظروف التى تمكن حراس تلك الحدود من التوجه نحو الجبهة الشـمالية ، سوريا ــ للقيام بواجب من نوع آخر تجاه الامة العربية فى معركتها ضد العدوان الصهيونى · بعد تجهيز اللواء الميكانيكى المطلوب ، واتجاهه فعلا الى بغداد ، جاءت الاوامر من قيادة الجيش العراقى التى بدأ يقود عملياتهـا وخططها الرئيس أحمد حسن البكر ، باعتباره وزيرا للدفاع ، وقائدا أعلى لقوات الجيش العراقى ، قضت الاوامر بتحريك الفرقة بأكملها الى سوريا ، ولأن الفرقة فى حالة استنفار وتأهب مستمرين استعدادا لأية اخطار تواجه الحدود الشرقية ، فقد تم اصـطفاف وتهيئة جميع وحداتها اسـتعداداً للتحرك الى سوريا ، كانت الروح المعنوية عالية جـداً ، والجنود يصـيحون ويهتفون ، تملؤهم الرغبة فى الوصـول بسرعة الى الجبهة للاشـتراك فى القتال ، ولم يكن التحرك الى سوريا يتم عبر طريق سهل ، ان المسافة طويلة ، اكثر من الف متر بين دمشق وبغداد ، تتخلل صحراء وعرة ، وهذا التشـكيل والفرقة السادسة المدرعة قادم من الحدود الايرانية ، أى كان عليه ان يقطع أكثر من ألف وثلاثمائة كيلو متر ، وبدأت المعادلة الصـعبة تواجه قيادة الجيش العراقى :

ــ نقل هذا العدد الضخم من الدبابات المجنزرات والعربات ·
ــ الوصول فى أسرع وقت ممكن الى الجبهة السورية ·

فى غرفة العمليات الرئيسـية ، كانت القيادة العراقيـة قد درست الأسس الموضوعية التى يتم على أساسـها اختيار حجم القوات العراقية ، ونوعيتها ، وتلخصت هذه الأسس فيما يلى :

١ ــ طبيعة الحرب مع اسرائيل ، وطبيعة سـاحة العمليات العسكرية ، ونوعية الوحدات المقاتلة الملائمة لذلك ، وهى القوات المدرعة بالدرجة الرئيسية ، مع وحدات كافية من المشاة ، وما تحتاجه هذه الوحدات من عناصر إسـناد والخدمات الادارية ·

٢ ـ مستلزمات العراق الدفاعية ، خاصـــة فيما يتعلق بالموقف على الحدود الشرقية .

٣ ـ مســـتلزمات الامن فى المناطق الشـــمالية بالعراق وقتئذ .

٤ ـ امكانيات النقل المتيسرة وخاصة ناقلات الدبابات ، وكانت وقتئذ قليلـة ، ولا تكفى الا لنقـل ٢٠٪ فقط من التشكيلات المدرعة التى تقرر ارسالها .

واستنادا الى هذه العوامل مجتمعة ، تقـرر يوم السبت ٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ ، وبشكل مبدئى ارسال الوحدات المسلحة التالية كمرحلة أولى ، وعلى وجه السرعة :

- فرقة مدرعة .
- لواء مشاة ميكانيكى .
- خمس سرايا مغاوير .
- عدة كتائب مدفعية ، ووحدات صواريخ أرض ـ أرض ، بما يكفى لاسناد الواحدات السابق الاشارة اليها .
- وحدات صواريخ ضد الدبابات .
- وحدات مدفعية مضادة للطائرات .

يضاف الى ذلك وحدات اسناد ، ووحدات ادارية لخدمة القطاعات الموضـحة .

كان هذا هو قرار القيادة العراقية يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . بعد مرور يومين على بدء القتال وصـــل الى بغداد السيد محمد حيدر ، نائب رئيس الوزراء السورى ، واجتمع بالسيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية وشرح الاوضاع العســكرية على الجبهة السورية ، وكان اللقاء مؤثرا ، اذ أن محمد حيدر أوضح حقيقة الوضع العسكرى على الجبهة الذى بدأ يتعرض لمتاعب عديدة ، والح فى سرعة ارســال الواحدات العراقية . وقال صدام حسين :

« لقد ارسلنا الطائرات فى اليوم الثانى للقتـال ، ولو أن الدبابات لها اجنحة لوصـلت فى نفس اليوم ، ســـندفع باقصى قواتنا لتصل اليكم فى أسرع وقت » .

وعلى الفور تقرر ارســال المزيد من القوات العراقية بالاضـــافة الى القوات التى سبق ذكرها . ضمت القوات الجديدة ما يلى :

- فرقة مدرعة .
- لواء مشاة ميكانيكى .
- وحدات اسـناد .

بالاضافة الى ذلك انذر لواء مدرع آخر للتحرك فور صـدور الامر ، ومنذ بداية تحرك القوات العراقية تحولت عمليـات التحشـد والتكديس والحركة الى معركة حقيقية مع الوقت ، وقبل الانتقال الى ذكر تفاصيل معركة انتقال القوات العراقية الى الجبهة الســـورية يجب الاشارة الى ارتقاء الثورة العراقية فوق الخلافات ، والمنازعات السياسية ، في سبيل

اداء دورهـا الرئيسى في الصراع العربي الاسرائيلى ، حتي بداية الحرب يوم ٦ أكتوبر كانت الحكومة السورية تشن منذ فترة حملة اعلاميةضخمة ضـد العراق ، ولم ترد أجهزة الاعـلام العراقية على الحملـة ، وعكف المسئولون العراقيون على دراسة إسبابها ، واكتفت الصحف العراقية بايراد اخبار موجزة عن أصـداء الحملة السورية في الصحف العربية ، يوم الخميس ٤ اكتوبر نشرت جريدة الثورة العراقية تحت عنـوان « صحف كويتية تتحدث عن مواقف الحكم السورى » .

قالت مجلة الرسالة الكويتية : « ان الحكم السورى لو كان يحترم الروابط القومية والأخوية ،لما أقدم ،بعد أن أممالعراق ممتلكاتشركة نفط العراق ، على تأميم الخط المار فى سوريا والذى تمتلكه الشركة ، وتئول ملكيته حكما الى العراق ، واقدام الحكومة السورية على مفاوضة العراق . والتقدم اليه بمطالب أكثر ممـا كانت ترضى به الشركة البريطانية صاحبا الامتياز ، وهكذا عومل القطر العراقى من قبل الدولة الشقيقة معاملة أقسى من التعامل الذى كان قائما مع الاجانب » .

ويبدو أن الحكومة السورية لم تكن تفكر فى دخول العراق عسكريا الى الحرب عنـد بدئها ، ومن هنا لم تتوقف الحملة الاعـلامية المعادية للعراق حتى اليوم الذى نشب فية القتال .

ويقول أحد المسئولين العراقيين :

« اننا نظام حـكم يقوم على مبادىء واحد مبادئنـا هو اداؤنا لدورنا على المسـتوى القومى فى الصراع ضـد العدو ، فاذا قامت الحرب وعزلنـا عنها ، فسـنبدوا أمام الجماهير العربية وكاننا نتناقض مع مبادئنا ، لكن مواقف الثورة العراقية الايجابية منذ اليـوم الاول ، فرضـت واقعا مختلفا » .

على أية حال لم عندما بدأت الطلقة الاولى توارت كل الخلافات ، وصباح الاحد ٧ اكتوبر خرجت جريدة الثورة العراقية فى افتتاحيتها :

« عندما نخوض المعركة مع العدو ، يتحتم علينا استخدام كل ما نمتلكه من الاسـلحة الفعالة ، وزج كل طاقاتنا ، فى اطار نظرة شـاملة علمية ، جادة ، وفى اطار تصـور استراتيجى للمعركة على أنهـا معركة قومية طويلة الامد ، لا تحسـم الا عبر النضـال الطويل ، الشـاق ، الملىء بالتضحيات » .

« ان ابناء العراق الشـجعان يقاتلون اليوم وسـيقاتلون غدا ، وبكل ما يملكون من طاقات الى جانب اشـقائهم فى الجبهتين ، وفى الوقت نفسه تمتد يد الثورة لاجتثاث آخر المصالح الامريكيـة فى بلادنا ، فلتكن ضربة الثـورة هنا شرارة للمعركة التى طالمـا نبهت الجمـاهير العربية الى ضرورتها ، والى فاعليتها ، فى اضعاف العدو ، ومعاقبـة سادته الامريكان ، فلتكن خطوة تأميم حصـة امريكا فى

شركة نفط البصرة بداية لتأمين مصالح امريكا النفطية فى كل مكان من أرض العرب » .

وفوق أرض الواقع ، يبدأ هدير مئات المدرعات ، والدبابات ، متجهة الى ساحة القتال .

● ● ●

لم يحدث أن زج العراق من قبل بمثل هذه القوات الضخمة الى الجبهة السورية أو الى خطوط المواجهة مع اسرائيل ، ولنا أن نتخيل مئات المدرعات ، والناقلات ، وناقلات البترول ، وعربات الانقاذ ، والانضباط ، كل هذا الحجم من القوات يتحرك على الطريق الوعر ، بغداد — دمشق ، كل وحدة مقاتلة جاءت من مكان معين بالعراق . على سبيل المثال كان اللواء المدرع ١٢ يقوم بتدريبات فى منطقة الحضر النائية ، الوعرة ، ويوم ٦ أكتوبر أنذر اللواء ليكون فى وضع القتال ، وتحول بالفعل من حالة التدريب الى حالة الاستعداد القتالى . وكان طول الطريق الذى يجب أن يقطعه حتى مواقعه على الجبهة السورية ١٣٥٠ كيلو مترا ، قطعها فى يوم واحد ، وكان أول تشكيل عراقى مقاتل يصل الى الاراضى السورية ، ولحظة وصوله اطلق عليه لواء (خالد بن الوليد) تيمنا بالقائد العربى خالد بن الوليد الذى اجتاز الصحراء بين العراق وسوريا فى فترة قياسية قهر خلالها الصعوبات لنجدة الجيوش العربية فى معركة « اليرموك » ، أما اللواء المدرع السادس فكان متمركزا فى منطقة الرمادى على بعد (١٣٠) كيلو مترا غرب بغداد ، والتشكيلات الاخرى جاءت من البصرة والموصل ، والسليمانية ، وديالى ، وكان من الضرورى سرعة التحشد استنادا الى ثلاثة أمور :

أولا : همة القيادة السياسية ، حيث أقام الرئيس أحمد حسن البكر بصفة مستمرة فى غرفة العمليات الرئيسية .

ثانيا : درجة الاستعداد القتالى للقوات المسلحة .

ثالثا : شجاعة الجندى العراقى وبسالته ، وايمانه بعدالة القضية التى يقاتل من أجلها .

وحمل الواقع عددا من التحديات ، ان الشكل المثالى لانتقال المدرعات هو الحركة بالقطارات ، لكن السكك الحديدية فى العالم العربى متخلفة بشكل عام ، وسبب ذلك هو السياسة الاستعمارية الانجليزية التى عاقت انشاء شبكة متكاملة من السكك الحديدية حتى لا ترتبط اجزاء الوطن العربى ، بالاضافة الى قلة الطرق المتاحة كان يوجد بالقرب من المنطقة التى يرابط فيها لواء خالد بن الوليد طريق قصير يؤدى الى الحدود السورية ، لكنه غير مطروق ، صعب ، لهذا كان على اللواء أن يتجه الى بغداد أولا ، ثم يتجه الى طريق (الرطبة) الطويل . من ناحية أخرى ، كان عدد الناقلات غير كاف ، ان جنزير الدبابة له عمر معين يستهلك بعده وأفضل استخدام للدبابة أو المجنزرة يقضى بألا تمشى عليه الا فى الاماكن القريبة من جبهات القتال ، وفى أرض العمليات ذاتها ، لهذا يتم تحميل الدروع على الناقلات ، كان عدد الناقلات غير كاف ، وبعد وصول السيد محمد حيدر نائب رئيس الوزراء السورى ، واجتماعه بالسيد صدام حسين ، وشرحه لحقيقة

الاوضـــاع فى الجبهة السورية ، اتخـذت القيادة العراقية قرارا : بحرك الدبابات على الجنزير حتى يتم توفير ناقلات لها ، وعندما بدأ لواء خالد ابن الوليد الحركة كان نصف مدرعاته محمولا على ناقلات والنصف الآخر يمشي على الجنزير (أو السرفة كما يطلق عليه العســـكريون العرب فى العراق) • أن فارق السرعة بين الناقلات والمجنزرات كبير • فالناقلات يمكنها السير بسرعة ٨٠ كيلو مترا فى الساعة ، أما المجنزرات فتسير على الاسفلت بسرعة من ٣٠ الى ٤٠ كيلو مترا فقط ، وبمجرد وصول الناقلات الى مواقع اللواء فى سوريا ونزول المدرعات الى الارض تعود فارغة لتتقابل فى الطريق مع المدرعات التى تندفع على الجنزير ، ومن ثم يتم تحميل تلك الدروع والوصـــول بها الى مواقعهـــا ، ثم تعود الناقلات من جديد لنقل الدبابات والمجنزرات التى لا تزال تتقـــدم على الجنزير ، وهكذا استمر النقل بصورة متعاقبة ، بعض الواحدات قطعت المسافة كلها على الجنزير ، وكان العراق يدفع بقوات جديدة باستمرار ، من هنا بلغ عدد المرات التى قطعت الناقلات فيها الطريق اثنتين وثلاثين مرة ، ازدحم الطريق المحدود الاتساع بمئات الناقلات والمركبات ، ان السيطرة على الحركة فى مثل هذه الظروف تحتاج الى مزيد من الدقة والانضباط ، دفعت القيادة بخمس ورش اصلاح ، على جانبى الطريق ، بين كل ورشة واخرى مائتا كيلو متر ، وتم تشـــكيل قيادة مصـــغرة للاشراف على الحركة فى الطريق مكونة من ثلاثة ضباط ركن وقوة مغاوير ، وقوة انضـــباط عسكرى (شرطة عسكرية) . ولاكتشاف الاعطال بشكل فورى تم تخصيص سرب من طائرات الهيلوكبتر للقيـــام بدوريات مستمرة فوق الطرق ، عندما تكتشف الهيلوكبتر ناقلة عاطلة تهبط الى جوارها ، ينزل الضابط من الطائرة :

« الله يساعدك وليدى ؟ خيرك يا بطل »

ويجيب سائق الناقلة أو الدبابة :

« والله ياسيدى بها كذا وكذا . »

بعض الطائرات كانت تقل أطقما فنية للتصليح كمفارز سريعة الحركة، اذا وجد العطل شديدا يتم ابلاغ أقرب ورشة اصـــلاح على الطريق • كانت الناقلات قد قطعت مســـافات كبيرة فى الحركة ذهابا وايابا • كل الظروف تهيىء حدوث الأعطال ،الناقلة الوحدة بها (٢٤) اطارا ٠٠أى أن فرضتها فى العطل تساوى ستة اضعاف الســـيارة العادية ، ايضـــا كان لا بد من مراعاة الســـائقين الذين راحوا ورجعوا (٣٢) مرة ، اجبروا على النوم بالقوة لمدة ٤ ســـاعات بعد انتهاء كل رحلة ، وعنـــد بدء التحرك يعطى كل منهم ترموس شاى وآخر مليئا بالقهوة ، وعند وصوله يقولون له (تعال .. نم) فى الرحلات الاخيرة بدأت العجلات ترهق ، والمواد الفنية الخاصة بالاصلاح تنضب ، بدأ اجراء آخر هو تفكيك بعض الناقلات التى اصـــابها عطب شديد ، اذا بلغ عدد النقاقلات العاطلة ٨ مثلا ، يتم اختيار أثنتين من الناقلات سيئة الحال جدا، يدرجان كخسائر حرب، يتم الإستفادة باجزائهما من

اطاراتك ، وقطع اخرى لاصلاح الناقلات الست الاخرى ، وهكذا تصبح الناقلة التى اعتبرت من الخسائر كالبقرة التى سقطت من الاعياء والارهاق ، وكما يقول المثل الشعبى المصرى (اذا وقعت البقر تكثر السكاكين) يتم انتزاع اجزائها الصالحة لتركيبها فى ناقلات أخرى ، ومن الطبيعى أن تكثر حوادث السيارات فى ظروف كهذه ، لكنها كانت أقل من أن تذكر ، انتظمت الناقلات والمدرعات والسيارات فى حركة مثالية ، تماما كما كانت التشكيلات العسكرية المصرية تعبر القناة فى دقة ونظام اعجب المراسلين الاجانب ، وصفوا الحركة على الجبهة المصرية بانها أدق من النظام المتبع فى المدينة ، نفس المشهد كان يجرى على الطريق الطويلة بين بغداد ودمشق ، ويبدو أن السعى لتنفيذ الاهداف الكبيرة لا يترك فرصة للحوادث الصغيرة كى تقع ، وكان الجهد المبذول فى الاعداد للحركة والمضى الى القتال يبرز بوضوح قدرة الانسان اللا محدودة على العطاء المادى والمعنوى ، وقهر اصعب الظروف . واصدر القائد العام للقوات المسلحة اوامره الى قادة الوحدات :

((اذا رايتم سيارة نقل مدنية وأنتم فى حاجة اليها خذوها واعطوا صاحبها ايصالا بالمبلغ الذى يريده أيا كان وبلا مناقشة ويحضر الى وزارة الدفاع فى بغداد ليتسلم الثمن نقدا وفورا)) .

كانت العوامل والظروف التى وضعتها القيادة العراقية تتجسد على طريق الرطبة ، كان يتم تموين الوحدات المتنقلة بالاعتدة والمؤن من احتياجاتها اثناء تنقلها مباشرة ، واعلنت التعبئة الجزئية فى العراق ، وتمت السيطرة على أعداد كبيرة من الناقلات التابعة للقطاع العام ، والقطاع الخاص ، تم استغلال الطرق المتاحة بأكثر من طاقتها ، وتمت التنقلات الادارية وتنقلات الوحدات المقاتلة فى نفس الوقت تقريبا ، وقد أعطيت الاسبقية لتقدم الوحدات المقاتلة ، وللحماية من الخطر الجوى المتوقع فقد تمت التنقلات خاصة عند الاقتراب من الجبهة السورية ليلا ، وطلب من السلطات السورية تأمين ارشاد القوات العراقية بعد اجتيازها دمشق الى مواقعها فى الجبهة للوصول بأسرع ما يمكن ، وكانت الوحدات المقاتلة تصحب معها مؤنا وطعاما ميدانيا يكفى لمدة عشرين يوما ، لتجنب الوقفات بهدف التموين ، وكانت تتزود بالوقود والخبز والماء فقط اثناء السير ، من ناحية أخرى استخدم الجهد الجوى لنقل بعض القطاعات ، وكنتيجة لهذا الجهد الخارق ، والاصرار من جانب قيادة الثورة العراقية أمكن بين ٨ اكتوبر و ٢٣ منه نقل الوحدات والاعتدة التالية :

ـ تكامل وصول فرقة مدرعة فى ١٥ اكتوبر (يلاحظ أن لواء خالد ابن الوليد تكامل فى الجبهة السورية يوم ١١ أكتوبر تشرين أول واشتبك فى نفس اليوم) .

ـ وصول الوحدات التالية :

لواء مشاه محمول .

لواء مشاه جبلى .

لواء قوات خاصة .

٥ سرايا مغاوير .
عدد من كتائب المدفعية .
سرايا صواريخ لمقاومة الدبابات .
ـ نقل وحدات ادارية ، وتكديس حـــوالى ٣٦ الف طن من مختلف المواد الذخيرة ، المؤمن ، الوقود .
وصلت هذه الوحدات فى الايام التالية :
٩ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت أول وحدة عراقية الى الاراضى السورية الساعة ٣٠ر٢ ظهرا .
١١ أكتوبر (تشرين اول) :
وصل أول لواء مدرع عراقى الاراضى الســورية الساعة ٤ فجرا .
١٢ أكتوبر (تشرين اول) :
تكامل وصول لواء مشاة آلى الى الاراضى السورية الساعة ٢ ظهرا .
١٣ أكتوبر (تشرين اول) :
وصول لواء مشاة وتكامل قوة فرقة مدرعة .
١٣ أكتوبر (تشرين اول) :
تكامل وصول لواء مدرع آخر ، ولواء قوات خاصة تكاملت يوم ١٠/١٥
١٤ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت سرايا الصواريخ وتكاملت يوم ١٠/١٥ .
١٥ أكتوبر (تشرين اول) :
وصول لواء مشاة جبلى .
١٦ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت منطقة (غباغب) فى سوريا ـ سرايا المغاوير .
١٨ أكتوبر (تشرين اول) :
وصلت طلائع لواء مدرع الساعة ٢ صباحا وتكامل وصوله يوم ٢٠ .
٢٢ أكتوبر (تشرين اول) :
اقتربت فرقة مدرعة أخرى قرب الحدود السورية وتأهبت لدخول الاراضى السورية .

كان حجم الجهد هائلا ، انجز فى وقت قصير ، فى ظل أخطار متوقعة فى أية لحظة ، وبدون انذار مسبق بوقوع الحرب ، وعلقت اذاعة لندن يوم ١٠ أكتوبر على هذا الجهد نقلا عن أحد المعلقين العسكريين ، لصحيفة التايمز :

ان احدى المفاجآت الكبرى فى حرب الشرق الاوســط هى استطاعة العراق تحشيد فرقة مدرعة عبر مسافة أكثر من ١٠٠٠ كيلـو متر ، وزجهـــا فى المعركة مما قلب خطط الاسرائيليين ومنعهم من تحقيق أهدافهم فى هذه الجبهة » .

ووصـــفت صحيفتا النهار ، ولوزيان لوجور فى بيروت تحرك القوات العراقية :

« طابور يمتد عشرات الكيلو مترات اجتاز الحدود السورية ليلة الاثنين الماضى » .

وفي دمشق ، قال محمد حيدر نائب مجلس الوزراء السوري في ١٤ أكتوبر :

((انوجود القوات العراقيةفي الجبهة الشمالية موضع اعتزاز وفخر لكل عربي ، أن قوات القطرين العراقي والسوري تخوض معركة واحدة ، هي معركة التحرير والشرف ، ان مشاركة القوات العراقية تاكيد لوحدة الأمة العربية ، وان وجود الجنود العراقيين الى جانب أشقائهم السوريين ، برهان عملي على أن الدماء العربية تسيل في أرض المعركة من أجل أهداف الأمة العربية)) •

وفي مؤتمر صحفي قال جورج صدقني وزير الاعلام السوري (وقتئذ) :

((ان القوات العراقية تؤدي واجبها ببسالة وتقاتل العدو الصهيوني ببطولة خارقة وتكبده أفدح الخسائر ، ان العراق قطر شقيق ، يتحمل مسئوليته القومية في هذه المعركة)) •

لقد تحرك الجيش العراقي وفقا لمنطق الحكاية العربية التي تقول ان أحد الأخوة صاح مستنجدا بأخيه :

((يافلان أصابني ضيم)) •

قال له :

((ياأخي •• آجي لك حافي ••))

● ● ●

وتستمر الطائرة في الارتفاع ، تصبح ملامح الأرض أدق ، التفاصيل بعيدة ، كأنها المسافة الزمنية التي تفصلنا عن أيام أكتوبر ، هل ستغيب تفاصيل ما جرى كما تندمج الأرض تحتنا ؟ في الحروب تقع أحداث فذة، عندما يحكيها الذين شاهدوها وعاشوها بعد فترة فلن تجسد الحكاية حقيقة ما حدث ، هناك تجارب في حياة الانسان لا يمكن نقلها إلى الآخرين بمجرد الحديث ، لابد من معايشتها ، كالحرب ، والسجن ، والحب • وفي الحرب يحدث أن تسلط الأضواء على حادث صغير فيتضخم ويكتسب أبعادا غير حقيقية ، في الجانب الآخر تقع أحداث خارقة لا تجد من يرويها أو يدونها أو يسلط عليها الأضواء فتتوه وتختفي معالمها ، تماما كتلك الأرض التي تنأى عنا كلما ارتفعت الطائرة ، من هنا كان ما يشغلني ، البحث الدؤوب عن الانسان ، ماذا رأى وماذا سمع ؟ ، بماذا أحس لحظة استشهاد صديقه أو زميله ، كيف يضيع ذلك الجهد الذي بذلته الدماء ؟ هل يتسلل النسيان ليجفف الدماء ، دماء الشهداء ويمحو آثارها ؟ انها محاولة من الكاتب لقهر ما يضيعه الزمن ، وما تحاول الظروف العارضة أن تخفيه ، وتسجيل دور الانسان العربي في لحظة صراع ساخنة ضد العدو الصهيوني ، تمضي الطائرة ، واستعيد حركة الجيش العراقي باتجاه الأراضي السورية ،أتوقف عند الصور الخاصة بما جرى في أحد التشكيلات العراقية التي تمركزت على بعد ١٣٠ كيلو مترا من بغداد ، الى الجنوب ، حيث انهى المقاتلون يوما شاقا من التدريبات العنيفة في جو حار ، بشائر الخريف لم تلح بعد برغم دخول أيام أكتوبر ١٩٧٣ ، حوالي الساعة السابعة مساء دق جرس التليفون في مقر قيادة اللواء ، كان رئيس أركان حرب الجيش على التليفون :

ـ اشلونك ؟ ..

ـ حاضر يا سيدى .

ـ ما عندك نواقص ؟

ـ سيدى .. مو وقت اتمام نواقص .. كله تمام سيدى .

ـ غدا سنتحرك الى الجبهة .. استخدم ما لديك من ناقلات . وصول الباقى على السرافة (الجنزير) .

تحقق أحساس المقاتلين اليقينى بأنهم سيدخلون الحرب ، ذلك الأحساس الذى بدأ مع اذاعة أنباء الحرب ، أعدت قيادة اللواء خطة التحرك، من فى المقدمة ؟ من فى المؤخرة ؟ حوالى الساعة الثالثة صباحا جاء ضباط من التوجية السياسى ، سألوا عن الاحتياجات ؟ وجدوا اللواء مجهزا للحركة لم يتمكن ضباط واحد من الاتصال بأسرته ، حجم الاستعدادات والحركة والانفعالات التى تعاقبت عليهم لم تدع فرصة لأى مقاتل الا للتفكير فى الرحيل، والاشتراك فى القتال ، ان الضباط أو الجندى ، المقاتل يشكل عام يقضى سنوات فى دراسة الحرب ، التدريب عليها ، من أجل فترة محدودة قد تكون ساعات أو أياما ، أو شهورا ، يمارس خلالها الحرب ، يعيش المقاتل لانتظار الاشتباك ، التهيئة له ، يستوعب الدروس العسكرية : تاريخ المعارك، الخبرة القتالية ، تماما كوحدة الصواريخ المضادة للطائرات ، ان العمل بها يستمر أربعا وعشرون ساعة ، تظل العيون مفتوحة على شاشات الراداز، لكن هجوم الطائرات والتصدى لها لا يستغرق أكثر من ثوان . المشكلة ، أين موقع هذه الثوانى فى خريطة اليوم ؟ متى تجىء ؟ كان معظم اللواء الثامن مشاة آلى ، يتحرك على الجنزير ، وبين الحين والحين تتصل قيادة اللواء ببغداد .

« هل ننتظر الناقلات أم نستمر »؟

وتجىء الأوامر :

« استمر على الجنزير »

ويمضى الرجال ملتهبين بالحماس ، ملامح الجانب المعنوى الذى يحركهم رغبتهم الشخصية فى الاستمرار ، كل منهم يعى فى أعماقه حجم الاساءة التى وجهها الصهاينة ضد المقاتل العربى فى جزيران (يونيو ١٩٦٧ ، طبلوا ، زمروا ، ملأوا البشرية بأمجاد وهمية، كسبوا نصرا باردا لا يستحقونه لم ينتصروا على أمة ضعيفة ، ولكن على أمة مفككة ، وهناك قول ألمانى « من ينله التكريم تصيبه غصة ، أما لأنه لم يزل صغيرا على المجد ، أو لأنه بلغ من الكبر عتيا » ، كان النصر السهل الذى أحرزوه أكبر من حجمهم بكثير . وفى الطريق كان الجنود يصيحون :

« عليهم .. عليهم .. يكفى مذلة .. يكفى مهانة »

يتذكر بعض المقاتلين انهم سمعوا راديو اسرائيل ذات ليلة يسب اذاعة صوت العرب ، يذكرون عبارات المذيع جيدا ، « ياليت العرب لهم صوت » ، كانوا يعون تماما ما يعنيه المثل العربى « الحق للسيف أما العاجز فيريد شهودا » ، أحساسهم القوى بالعروبة ، بفلسطين ، كان يدفعهم

بحماس مماثل لنفس الحماس الذى دفع المقاتل المصرى ، والسورى ، كانت الأمة العربية العريقة تنتفض بمشاعر واحدة ، فى تلك الأيام من أكتوبر ١٩٧٣ ، ويمر قائد اللواء على جنوده أثناء فترات التوقف القصيرة :

ــ كيف الحال ؟

ويجيب الجنود :

ــ لماذا نتوقف ياسيدى ، نريد الاستمرار ؟

ويمضى التقدم حتى قاعدة (هـ ــ ٣) ، على الحدود العراقية ــ السوريه فى ذلك اليوم ، كان لواء خالد بن الوليد قد أشتبك بالفعل مع العدو الصهيونى ، فى نفس الوقت كان اللواء السادس المدرع يتخذ مواقعة فى الجبهة ، وخلف اللواء الثامن مشاة الى ، امتدت ثلاثة ألوية ميكانيكية ، مركباتها تثير الغبار على جانبى طريق الرطبة من بغداد حتى (هـ ــ ٣) ، كانت الناقلات تسير فوق الأسفلت ، والى اليمين واليسار من من الطريق اندفعت الدبابات على الجنزير فوق الرمال ، فى قاعدة (هـ ــ ٣) استفسر قائد اللواء عن الموقف ، كان يقترب من نطاق التهديد الجوى المعادى ، ماشغله فى تلك اللحظات هو الوصول بهذا العدد الضخم من المركبات المدرعة ، والعادية (حوالى ٥٠٠ مركبة ، و ٦٠٠٠ مقاتل) لى خطوط القتال • عقب يونيو ١٩٦٧ ملأ التفوق الجوى الاسرائيلى الاسماع، فوق الرتل تمرق الطائرة العراقية المقاتلة يقوم السلاح العراقى بتوفير الحماية اللازمة للتشكيلات ، بدأ الرجال يسمعون عن التهديد الذى تشكله الصواريخ المضادة للطائرات ، عن تساقط الطائرات الاسرائيلية ، كانت ملامح صورة جديدة تتشكل • فى الأيام الأولى من خلال التحرك ، حملت البيانات العسكرية المذاعة أخبار تقدم القوات السورية فى الجولان ، أزداد حماس المقاتلين العراقيين للمشاركة فى القتال ، خشوا أن تصل القوات العربية السورية الى قلب اسرائيل بدون أن يكون لهم شرف الأسهام فى القتال ، غير أن الصورة على الجبهة السورية كانت تبدو بملامح أخرى •

فى أكتوبر ١٩٧٣ :

دمشق :

قطعت مجموعة قيادة عراقية رحلة مرهقة من العراق الى دمشق ، بعد الأشراف على تحرك لواء خالد بن الوليد ، تحركت سيارة تضم أحد كبار الضباط العراقيين يرافقه اثنان من ضباط الأركان ، حتى قاعدة (هـ ــ ٣) ، ثم واصلوا رحيلهم الى دمشق ، فى دمشق التقوا بآمر الانضباط العسكرى ، اتصل برئاسة الأركان العامة ، تم تحديد موعد فى دار الضباط القديمــــة بالصـــالحية ، ذهب الضباط العراقيون قبل الأفطار ، اجتمعوا بالضابط العراقى الكبير فى مكتبه ، بينما بقى ضابطا الركن العراقيان واقفين بالباب ، كان الضابط العراقى قد حصل على تقييم للموقف من مدير الحركات العسكرية ببغداد ، كان اجمالى الموقف انه جيد ،لكن هنا

أختلف التقييم ، ان الموقف يبدو غامضا على الجبهة ، سأل اللواء أديب الأمير :

ــ متى يصل اللواء ؟

ــ مساء يوم ١٠ أكتوبر ٠

ــ نفضل الاسراع بوصول اللواء قبل مساء يوم ١٠ ٠

لم يكن لدى الضابط العراقى الكبير وسيلة اتصال مباشرة ببغداد ، ذهب الى السفارة العراقية بدمشق ، اتصل بالقيادة العسكرية بالعراق ٠

« ان الاشقاء السوريين يطلبون سرعة وصول لواء خالد بن الوليد »

وجاء الصوت البعيد ٠

« سيتم بذل أقصى الجهود لوصول اللواء فى موعد مبكر » ٠

فى المساء اتصل اللواء أديب الأمير مرة أخرى ، حدد موعدا تليفونيا فى نادى الضباط الجديد الذى يقع مقابل المعرض الدولى ، فى النادى أعطى للضابط العراقى الكبير واجب قتالى على الخريطة ، تضمن الواجب الدخول حتى منطقة خسفين ، قال الضابط العراقى ان هذا صعب بالدروع ، أنه يحتاج الى مظليين للعمل فى المنطقة ، قال اللواء أديب الأمير :

ــ سنحاول ، لكن اعتمد على نفسك ٠

خرج الضابط العراقى ليستقل عربة « لاندروفر » يصحبه ضابط ارتباط سورى برتبة مقدم ، استطلعوا الأماكن التى سيتم دخول القوات العراقية اليها ، نزلوا بمنطقة تل الحارة ، بدأ قصف مدفعى معاد ، انتشروا فوق الأرض ، لمحوا ضابطا سوريا برتبة مقدم ، كان زميلا لضابط الارتباط السورى المرافق لهم ، تقدموا منه ، سألوا :

ــ ما هو الموقف ؟

● ● ●

ــ ما هو الموقف ؟

كيف كانت تبدو الصورة على المسرح العمليات العسكرية يوم العاشر من أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد أربعة أيام من بدء القتال ، وقبل ساعات من وصول أول التشكيلات العراقية المقاتلة الى الجبهة السورية ، فى نفس يوم وصول لواء خالد بن الوليد العراقى المدرع الى مشارف دمشق ، ماذا جرى خلال الأيام التالية لبدء القتال ، والمحصورة بين يوم السبت ٦ أكتوبر ، الأربعاء ١٠ أكتوبر ؟ ى وبطيسأمر

ان استعراض العمليات التى جرت ، يساعد على فهم الأيام التالية على الجبهة السورية ٠

● ● ●

لتستمر القطعات العسكرية العراقية فى التدفق ، ولنعد الى اليوم الثانى للقتال ، يوم الأحد ٧ أكتوبر ، لقد نجحت القوات السورية فى اقتحام التحصينات والدفاعات الاسرائيلية المقاومة على جانبى الخندق المضـــاد للدبابات واستمر تدفق الدبابات والآليات عبره بمعدل كبير بعد أن نجح سلاح المهندسين فى تنفيذ المهام الموكولة اليه ، وأبرزها المعابر على الخندق

فى أماكن متفرقة ، وردم الخندق فى مواضع أخرى ، بعدها اندفع السوريون الى الغرب ، واستطاعت القوات السورية الالتفاف حول مواقع اسرائيلية عديدة فى هجومها الخاطف ، وبدأوا يحاولون دخول مدينة القنيطرة ، على الجانب الآخر كانت القيادة الاسرائيلية قد قررت اعتبار الجبهة الشمالية خلال الأيام الأولى للقتال جبهة الجهد الرئيسى ، خشى الاسرائيليون أن يتمكن السوريون من الاندفاع الى قلب اسرائيل والمناطق الهامة فيها ، وخاصة ان التفوق العددى كان يميل لصالح السوريين ، وبناء على هذه التقديرات تم دفع القوة المدرعة الاسرائيلية الخاصة لتتصدى للهجوم ، وتتكون من اللواء المدرع السابع بقيادة «دان لانر» ، ولواء مدرع آخر ، تعاونها وحدات المشاة المتمركزة فى الهضبة ، وفى الليل انتشر قناصو الدبابات الاسرائيليون المزودون بالاسلحة الصاروخية الحديثة المضادة للدبابات فى كافة المناطق التى اندفع منها السوريون ، وبدأوا مهاجمة الدبابات السورية فى محاولة لايقاف تقدمها ، فى نفس الوقت بدأ سلاح الطيران الاسرائيلى هجماته بلا انقطاع ، وفى موجات متلاحقة بد معها اعتماد القيادة الاسرائيلية عليه بشكل مطلق ، وفى الوقت الذى كانت تدفع فيه باعداد كبيرة من الطائرات على الجبهة المصرية فى محاولة يائسة لوقف تقدم القوات المصرية التى عبرت القناة واقتحمت خط بارليف .

وعلى الجبهتين المصرية والسورية نشطت صواريخ سام من طراز ٢ ، و٦ ، ٧ ، وأوقعت بالطائرات الاسرائيلية خسائر كبيرة ، ومما ساعد شبكة الصواريخ السورية يوم ٧ أكتوبر سوء الأحوال الجوية ، فمنذ ساعات الصباح الباكر غطت الغيوم الكثيفة والضباب المنطقة ، ولم يستطع سلاح الطيران الاسرائيلى العمل الا بعد الظهر ، حيث كانت الطائرات تضطر للتحليق على ارتفاعات منخفضة تجنبا للطيران فى الغيوم ، مما جعلها أهدافا مثالية للصواريخ الأرضية ، ومع قدوم المساء خفت حدة المعارك على الجبهة الشمالية ، وبدأ الارهاق والتعب على قوات الجانبين ، واستغل كل منهما الظلام لدفع المزيد من القوات الجديدة وتدعيم وحداته العاملة بأرض المعركة ، بينما راحت المدرعات السورية تنسحب الى نقاط خلفية لاعادة تنظيم نفسها وتدعيم تشكيلاتها القتالية بأسلحة جديدة .

● ● ●

مع فجر الاثنين ٨ أكتوبر ، شرع سلاح الجو الاسرائيلى بتركيز هجماته ضد الدروع والمدفعية السورية ، وحاولت تشكيلات أخرى مهاجمة الصواريخ الموجهة أرض – جو . تصدت لها الطائرات السورية ، ودارت معارك جوية عنيفة ، وهاجمت الطائرات السورية أهدافا تقع فى العمق الاسرائيلى ، وكانت الطائرات الاسرائيلية قد هاجمت خمس قواعد جوية سورية فى عمق الأراضى السورية ، وخلال النهار تمكنت صواريخ سام من اسقاط عدد كبير من الطائرات الاسرائيلية . ظلت معارك الدبابات مستمرة منذ الفجر وبلا انقطاع ، ودارت أكبر هذه المعارك فى ضواحى القنيطرة ، وزادت القوات الاسرائيلية من هجماتها فى الشمال

علـى محـور مسـعدة ، جبـاتا الخشـب ، وفى الوسـط على محور كفر نفاخ ــ الخشـبية ، وفى الجنـوب على محـور العال ــ الجوخدار ٠ وكان الهدف هو تطويق القوات السورية العاملة فى الجولان، وباستمرار وصول التعزيزات قاربت مرحلة الصد الاسرائيلى على الانتهاء لتبدأ مرحلة الهجوم المضاد ٠

وعند الظهر ، دفعت القيادة الاسرائيلية بمزيد من الوحدات المدرعة الى المعركة وزادت من هجماتها وضاعف سلاح الطيران هجماته على المدرعات السورية التى ظلت تتصدى للدروع الاسرائيلية وتمنعها من التقدم ٠

« ويبدو أن القيادة الاسرائيلية كانت تستميت فى محاولة حسم القتال على جبهة الجولان قبل وصول القوات العراقية التى بدأت طلائعها فى الوصول الى سوريا بالفعل ، وقالت المصادر الأجنبية وقتئذ أن العراق حرك قوات تقدر بـ (١٨٫٠٠٠) جندى و (٣٠٠) دبابة و (١٠٠) طائرة » ٠

وكان هذا يعنى أن السوريين سيتمكنون من تعزيز وحداتهم العاملة فى ساحة القتال بوحدات عراقية قوية ومدربة تدريبا جيدا ، فضلا عن العدد الكبير من الدبابات الحديثة ، والمدفعية والطائرات التى تملكها هذه القوات والتى أصبح بالامكان دفعها الى المعركة ٠ (١) ٠

وفى الوقت نفسه ضاعف السوريون قصفهم المدفعى وأطلقت صواريخ « فروج » ٧ أرض ــ أرض (السوفيتية الصنع) ويصل مداها الى ٤٤ ميلا أو ٧٠ كيلو مترا والمجهزة برأس شديدة الانفجار زنة نصف طن ، واستهدف القصف السورى مستعمرة « مجدل ههحيك » و « نحال كفار باروخ » ، الوقعتين الى الجنوب الغربى من مدينة الناصرة ، وعدة مستعمرات أخرى ، أحدث القصف خسائر كبيرة فى المنشآت والأرواح ، وتمكنت الدبابات السورية من صد الهجمات الاسرائيلية ، وهكذا لم تستطع القوات المدرعة الاسرائيلية توجيه ضربة مؤثرة الى الدروع السورية ، وفى هذا اليوم تحدثت وكالة الأنباء عن الأوضاع الداخلية فى سوريا ونشاط افراد الجيش الشعبى المسلحين ، والمعنويات المرتفعة ، التى زاد من قوتها الأخبار القائلة بوصول القوات العراقية للمشاركة فى القتال ، وكانت طلائع القوات العراقية قد بدأت تصل بالفعل ، واستقبلها الشعب السروى بدءا من الحدود استقبالا حماسيا رائعا ، وأثناء مرور تلك القوات بالقرى السورية كان الفلاحون يخرجون مرحبين ، تعلو اصواتهم بالهتاف الحماسى ،ويقدمون وجبات الطعام الساخنة للرجال الذين قطعوا أكثر من ألف كيلو مترا المشاركة فى القتال ٠

مع بداية اليوم الرابع للقتال ، الثلاثاء : ٩ أكتوبر كان من الواضح أن أحد الطرفين لم يحقق نجاحا حاسما ، كان الاسرائيليون يحاولون دفع القوات السورية بعيدا عن الجولان قبل وصول الأقسام الرئيسية من القوات العراقية ، وكان السوريون يحاولون التشبث بالأرض التى حرروها ،وتأخير

١ ــ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ــ مركز الابحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ٠

تقدم القوات الاسرائيلية ، ودفع كلّ من الطرفين قوات جديدة الى ساحة القتال ، وركز سلاح الطيران الاسرائيلي غاراته على القوات السورية البرية، وقصف أهدافا مدينة حيوية في دمشق ، ومصفاة النفط فى حمص ، ومحطة توليد الكهرباء الرئيسية ، وخزانات النفط فى طرطوس • وهاجمت الطائرات السورية أهدافا حيوية فى سهل الحولة ومطار « روشبينا » القريب من صفد ، واغارت بشكل مستمر على الدروع الاسرائيلية ، وقطاعات المدفعية فى محاولة لوقف تقدمها ، وابدت وحدات الصواريخ السورية أرض ــ جو مقاومة عنيفة الا ان الطيران الاسرائيلي استمر فى نشاطه الذى مثل الجهد الرئيسى للعدو على الجبهة السورية •

مع فجر الأربعاء ١٠ أكتوبر ، كان من الواضح ، ان القوات الاسرائيلية قد انهت مرحلة الصد ، وبدأت مرحلة الهجوم المضاد ، خلال الأيام الأربعة الماضية ، ثم وقف تقدم الهجوم السورى ، بدأ الطيران الاسرائيلى فى التمهيد للهجوم المضاد ، بسلسلة غارات مكثفة ومستمرة على أهداف عديدة شملت المطارات ، وقواعد الصواريخ ، والمرافق الحيوية ، والوحدات السورية فى الجبهة • فى نفس الوقت بدأ الهجوم البرى على طول الجبهة السورية وكان الجهد الرئيسى فى القطاع الشمالى على محاور ثلاثة :

١ ــ محورة سعدة ــ جباتا الخشب •
٢ ــ محور واسط ــ الحميدية ــ خان اريتبه •
٣ ــ محور كفر نفاخ ــ حدمان ــ أم باطنه ــ جبا •

استهدف الهجوم فك الحصار عن القنيطرة ودفع القوات السورية عن الجولان نهائيا ، وتطوير الهجوم فى وقت لاحق للسيطرة على الطريق الرئيسى الموصل الى دمشق ، ودارت معارك عنيفة حول القنيطرة تم خلالها فك الحصار ودفع القوات السورية الى ما وراء خط عام ١٩٦٧ ، وفى القطاعين الأوسط والجنوبى استهدف الهجوم الاسرائيلى دفع القوات السورية الى ما وراء خط وقف أطلاق النار عام ١٩٦٧ ، وقاتلت القوات السورية بشراسة ، موقعة بالجانب الاسرائيلى خسائر كبيرة ، بذل المقاتلون السوريون جهدهم لوقف التقدم الاسرائيلى ومنعه من تحقيق أهدافه ، كان الجهد السورى الرئيسى موجها لمنع العدو من السيطرة على طريق القنيطرة ــ سعسع ، بعد وضوح هدف العدو من التركيز عليه • وقام الطيارون ، السوريون بهجمات كبيرة خسر فيها الطرفان عددا من طائراتهما •

فى يوم الخميس ١١ أكتوبر واصلت القوات المدرعة الاسرائيلية هجومها المضاد فى هضبة الجولان ، وذلك بهدف اخراج المدرعات السورية نهائيا من الجولان ، والسيطرة على الطريق العام الموصل الى دمشق ، بهدف تهديد العاصمة السورية ، ومحاولة تطويق الوحدات السورية العاملة فى القطاعين الأوسط والجنوبى ، وبعد قتال ضار تمكنت الدبابات الأسرائيلية اثر قتال رهيب من اختراق خط الدفاع السورى ، الذى اقامة السوريون الى الشرق قليلا من خط وقف أطلاق النار لعام ١٩٦٧ ، •

فى القطاع الأوسط ، اصطدمت القوات الاسرائيلية المهاجمة بمقاومة

عنيفة منعتها من التقدم ، وحاولت القوات الاسرائيلية اختراق الدفاعات السورية والالتفاف حول القوات السورية العاملة فى القطاع الشمالى ، فى محاولة منها لتقديم العون للقوات الاسرائيلية العاملة فى محور القنيطرة ـ سعسع ، حتى يتم حسم القتال بالسرعة المطلوبة قبل استكمال وصول القوات العراقية التى بدأت طلائعها تصل الى مسرح القتال ، ونشطت وحدات اسرائيلية من المدرعات والمشاه الميكانيكة فى داخل الجولان فى عملية هدفها تصفية الجيوب التى خلفها السوريون وراءهم ، بعد الانسحاب شرقا ، وقامت الطائرات الاسرائيلية بتركيز هجماتها ضد المحاور الرئيسية المؤدية الى جبهة القتال فى محاولة لمنع وصول طلائع القوات العراقية الى جبهة القتال أو تأخير تقدمها على الأقل ، وعلى الرغم من عنف الغارات الاسرائيلية ، وقيام الطيران الاسرائيلى بتقديم الجهد الرئيسى فى العمليات، الا أن اسرائيل عجزت عن تحقيق السيطرة الجوية الكاملة ، وذلك بفضل المقاومة الأرضية العنيفة من الصواريخ أرض ـ جو ، خاضوا معارك شرسة وعنيفة فى الجو .

وقبل انتهاء يوم الخميس ١١ أكتوبر شنت القوات السورية هجومها المضاد فى منطقة خان أرينبة فى محاولة لوقف الهجوم الاسرائيلى بالقطاع الشمالى من الجبهة ، واتاحة الفرصة للوحدات العربية المقاتلة فى الهضبة كى تنسحب وتنضم الى القوات السورية التى بدأت تتجمع لانشاء خط دفاعى جديد فى مواجهة الهجوم الاسرائيلى المضاد على طول الجبهة .

ومع بداية يوم ١٢ كانت ملامح الخطة الاسرائيلية قد اتضحت ، ويمكن تحديدها بما يلى :

- غارات جوية مكثفة ضد الأهداف السورية فى العمق بغرض شل الاقتصاد السورى ، وزعزعة الجبهة الداخلية ، ونشر حالة من الرعب
- هجمات مدرعة مكثفة من أجل تحقيق الخرق فى خطوط الدفاع السورية ، وقد تم بالفعل ، واستهدفت القوات الاسرائيلية تطويق دمشق نفسها .
- هجمات بحرية مركزة على ميناء اللاذقية ، والمنشآت الاقتصادية على طول الشاطىء السورى بهدف تدمير الاقتصاد السورى وتأخير وصول المساعدات السوفيتية .

وكترجمة عملية لهذا المخطط ، شهد يوم ١٢ أكتوبر قتالا جويا ضاريا ، اذ القى سلاح الجو الاسرائيلى بجهده الرئيسى على الجبهة الشمالية ، وراحت الطائرات المعادية تهاجم فى موجات متتالية الأهداف العسكرية والاقتصادية على الجبهة السورية . وفى العمق واجهت الطائرات الاسرائيلية مقاومة عنيفة من أجهزة الدفاع الجوى وتصدت لها الطائرات العراقية والسورية .

« ولقد أبدى الطيارون العراقيون والسوريون شجاعة فائقة وكفاءة عالية منعت الطائرات الاسرائيلية فى أغلب الأوقات من الوصول الى أهدافها ، وظلوا نشطين طوال النهار ، مما اضطر القيادة الاسرائيلية الى

اعادة النظر فى موقف نجم عنه استخدام احتياطيها من الطائرات التى كانت معدة للاستعمال فى مهام أخرى ».(١) •

وفى البر بدأت القوات الاسرائيلية فى تطوير هجومها مستهدفةشق طريقها الى أقرب بقطة من دمشق ، وكانت القوات الاسرائيلية تتقدم فى القطاع الشمالى عبر ثلاثة محاور :

المحور الأول ــ الشمالى : وخصص لمحاولة الوصول الى « بيت جن » و « عرفه » على سفوح جبل الشيخ فى عملية تستهدف الالتفاف حول الدفاعات السورية المقامة قرب سعسع من الجهة الشمالية الغربية •

المحور الثانى ــ الأوسط : اعتبر محور الجهد الرئيسى ، وقد حشدت باتجاهه القوات المدرعة الرئيسية معززة بوحدات المشاة الميكانيكية والمدفعية ذاتية الحركة ، وكان هدف القوات العاملة فى هذا المحور فتح ثغرة فى خطوط الدفاع السورية ، ثم الاندفاع شرقا ، والالتفاف حول الأجناب السورية وابادتها بالتعاون مع قوات المحورين الشمالى والجنوبى العاملين فى القطاع الشمالى من الجبهة •

المحور الثالث ــ الجنوبى : بدأت القوات الاسرائيلية التقدم باتجاه « كفر ناسج » ثم محاولة الاندفاع شرقا حتى غباغب •

دار قتال عنيف بالدبابات ، واستطاعت القوات السورية أحرازبعض النجاح ، اذ وصلت الى مشارف قرية « سعسع » • أما القوات العاملة فى جنوب الخط الرئيسى المؤدى الى دمشق فاستطاعت الوصول الى الشرق قليلا من قرية كفر ناسج •

كان من الواضح ان دمشق هى الهدف الرئيسى ، وكانت القيـادة الاسرائيلية ترمى بثقلها كله للوصول الى العاصمة العربية ، أو تطويقها ، وصرح ديان بانه سيصل دمشق بعد ساعات ، كان الهدف ثمينا جدابالنسبة للقيادة الاسرائيلية ، اذ ان سقوط دمشق يعنى تركيع سوريا ودحرالجيش السورى وبالتالى رفع معنويات الجنود الاسرائيليين العاملين على الجبهة المصرية ، والذين كانوا يتلقون ضربات عنيفة من القوات المصـرية • ان سقوط المدن الكبيرة يحدث دويا هائلا ، وتأثيرا معنويا سيئا على المقاتلين •

وربما يتساءل البعض : هل كان هدف القوات الاسرائيلية احتلال دمشق؟ وبغض النظر عن تصريحات ديان التى أعلن فيها عن قرب وصول قواته الى دمشق ، فان العمليات العسـكرية التى كانت تتم على الجبهة منذ بـدء مرحلة الهجوم المعادى المضاد ، توضح قصد القيادة العسكرية الصهونية وهو احتلال دمشق ، وربما كان التأثير المعنوى هو الهدف الرئيسى ، غير ان تدمير الجيش السورى تدميرا تاما كان يعنى جنرالات الحرب الاسرائيليين، ثم ان احتلال دمشق ــ ولو لفترة محدودة ــ سيؤثر على مسار الحرب كلها •

كان هذا تقدير القيادة الاسرائيلية ، وهكذا صرح ديان لممثلى الصحافة العالمية •

بعد ظهر الجمعة ١٢ أكتوبر ، طرأ عامل جديد على الموقف ، وهنا

١ ــ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ــ ص ٦٧ .

ننقل ما حدث من ملف وكالة رويتر الخاص بالحرب ، قبل ان نتطرق الى التفاصيل :

« فوجئت القيادة الاسرائيلية مفاجأة تامة عندما نجحت القوات العراقية في الوصول الى الجبهة ، والاشتراك لأول مرة في القتال ، وهكذا باغت لواء عراقي مدرع ، وصل لتوه الى أرض المعركة ، القوات الاسرائيلية المتقدمة على محور « جعبا » ـ « كفر ناسج » وشق هجومها المعاكس ، وتمكن من دحرها واجبارها على التراجع حتى « تل الشعار » بعد قتال عنيف تكبدت القوات الاسرائيلية خسائر كبيرة في المعدات والارواح وتم خلالها أسر عدد من أطقم دباباتها وجنود عاملين مع القوة » .

وصلت القوات العراقية الى جبهة القتال فى لحظة مناسبة تماما .

لقد دخل لواء « خالد بن الوليد » العراقى المعركة جنبا الى جنب مع الجيش السورى ، وكان الموقف على الجبهة السورية كما لخصته السطور السابقة .. وفى المساء ، مساء الجمعة ١٢ أكتوبر اعترفت القيادة الاسرائيلية باشتباك قواتها مع القوات العراقية فى قتال عنيف بجبهة الجولان .

● ● ●

يبدو ان الطائرة قد وصلت الى الارتفاع المحدد لها ، أو الارتفاع المناسب ، اهتزت قليلا ، خيل الى انها تتراجع الى الخلف مسافة قصيرة ، كما لو كانت جوادا يخطو الى الوراء خطوتين قبل ان يركض الى الأمام ، كان وجه القائد هادئا جدا ، ومن خلال ملامحه عبثا حاولت استنتاج الموقف، بدأت الطائرة تتحرك الى الأمام ، ومن بعيد بدت جبال (بمه و) على الحدود العراقية ـ الايرانية ، وتعاقب اللون البنى فى درجات مختلفة ، أغمق ، افتح ، وهذا الجبل يمتلىء بكهوف طبيعية عميقة يستخدمها المتمردون الاكراد كمخازن للسلاح والذخيرة والعتاد ، كان الجبل أصم لانستطيع بالطبع أن نلمح انسانا يتحرك عليه ، غير اننى أيقنت بحس خفى أن هناك عيونا تتطلع من ذلك الجبل الى الطائرة ، ربما تضج كهوفه بحياة خفية الان ، ورأيت طائرتنا بعينى أحدهما ، يتطلع الى الهيلوكبتر المحلقة على ارتفاع عال ، بعيد ، يجرى التخمين ، من يستقلها ، بماذا تقوم ، ان الارض بعيدة عنا ، وملامحها أقل وضوحا ، وتذكرت خريطة العمليات العسكرية عندما اطلعنا عليها مدير ادارة التوجيه السياسى ببغداد ، ازاح ستارة كبيرة تغطى حائطا بأكملة ، وبدت الخطوط النحيلة ، والعلامات ، والكلمات الصغيرة ، كل خط يعنى نهرا أو بلدا ، كل علامة تعنى فى الواقع بشرا يعشون فى عزلة فوق ربايا الجبال ، او فى موقع وعر ، او فى قلعة قديمة ، تعنى صراعا تسيل فيه دماء ، ان جبل (بمه و) ، هذا شهد خلال عام ١٩٦٥ ، وفى منطقة مضيق (سرتك) معارك قاسية بين وحدات الجيش العراقى والمتمردين الاكراد ، من الجو يبدو مضيق (سرتك) كفجوة لايميزها عن صخور الجبل الا اللون الاغمق قليلا ، ان الغيوم تتجمع فى

الافق العـالي ، وكأن قوى خفية تشرف على الاضـاءة فى هذا النهـار الشمـالى ، يضعف ضوء الشمس ، يغيب احيـانا ، يصبح لون الضوء رماديا يبعث على الرهبة ، وكأن ستارة خفية اسدلت على السماء ، لكن فوق ذرى الجبال البعيدة الشاهقة المجللة بالثلوج والواقعة داخل الحدود الايرانية تظل أشعة الشمس تتـألق ، تلمع فكـأن القمم البعيدة غطيت بمرايا مصقولة تعكس الأشعة ، للمعة الثلوج ، تأثير مختلف ، رأيت الثلوج فوق جبال لبنان ، ولكن لم تصحبها هذه اللمعة الحـادة ، كانت اشبه بتراكم الجير المنطفيء ، أو الطبـاشير ، لكن الثلوج فوق هذه الجبـال الشمـالية تبرق ، تزهو من بعيد ، هكذا رأيتهـا فيمـا بعد ، فى حوض راوندوز ، فوق جبل تاتان ، جبل سر حسن بك ، يبدو البريق الثلجى غامضا ، وكأنه يطالعنا من زمن مختلف ، من واقع آخر غير الذى نعيشه ، ليضفي على النهار والجو سحرا أسطوريا ، غامضا يرعش النفس بشتى الخواطر ، الى أسفل ، تبدأ رقعة فسيحة من المياه فيروزية اللون ، لون ليس فيه زرقة البحر الصريحة الواضحة ، أو رمادية مياه النهر ، رقعة عريضة من المياه بدأت تتضح ملامحها وابعادها ، ليست منتظمة الحواف ، تبرز فى خطوط مستديرة ، تنبعج فى بعض المواضع ، تجف ، اللون خضرة متنوعة ، بحيرة دوكان ، كأن قاع البحيرة صنع من الفيروز ، ما هو مصدر اللون ؟ ربما اختلاط زرقة السماء ، وبياض الثلوج التى تعمم جبال الافق ، وتحدد اللون الأخضر وانتشاره ، ويبدو بناء خرسانى عنـد النهاية البحيرة من الغرب ، انه سد دربندى خان ، يقع على نهر (ديالى) ۰ ان الفرع الرئيسى من نهر سيروان ينبع من الشرق بعيدا ، داخل الأراضى الأيرانية عند خانق (أسد آباد) الواقع على طريق كرمنشـاه ــ حمدان ، ثم يخترق الجبال بكثير من الالتواء والتعرج ، ثم يشق له طريقا فى السلسلة العظمى ما بين (هه ورامان) والقسم الثانى فى الجنوب الشرقى المسمى شاهد (أعلى قمة فيه تبلغ ١٠٧٥٧ قدما) ، وعندما يدخل الى الحدود العراقية يصب فيه نهر تانجه رو ، ثم يدخل جبال (به رانان) وامتداد (خوجسـك) الى الجنوب الشرقى ، ثم ينحرف الى الجنوب الغربى . ويعرف فى ثالأراضى العراقية باسم (نهر ديالى) الذى يصب فى دجلة على بعد (١٨) ميلا من بغداد ۰ ان الخزان الذى نراه الآن من الطائرة يقع على بعد حوالى (١٠) كيلو مترات أسفل ملتقى سيروان بتانجرو ، انه عبارة عن سد خرسانى طوله (٢٤٥) مترا ، وارتفاعه (١٣٠) مترا ، يقع نهر سيروان عندمضيق دربندخان ، والبحيرة الفيروزية التى أصبحت وراءنا الآن هى الناتجة عن تخزين المياه امام السد ، وتبلغ كمية ما تخزنه من مياه ٣ر٧ مليار متر مكعب ، ويهدف المشروع الى التحكم فى مياه سيروان ، والقضاء نهائيا على اخطار الفيضان بمنطقة ديالى ، وتوسيع الرقعة الزراعية على ضفتى نهر (دايلى) ۰ ويستفـاد من المشروع فى توليد الطـاقة الكهربائية فى المنطقة ، ويشمل سد دربندى خان ، احد مشروعين للرى فى المنطقة ، المشروع الثانى هو خزان (دوكان) المقام على نهر الزاب الصغير ، ان الاراضى الخضراء التى رأيناها من الطائرة يسقيها نهر ديالي ، وينظم

الرى بهـا هذا السد ، دربندى خان ، فى هذه المنطقة كان يوجد اكراد مسلحون ، منتشرون بين القرى ، وبعد معارضة الملا مصطفى البرزانى والجناح الرجعى فى الحركة الكردية لمشروع الحكم الذاتى ، قام المتمردون الاكراد المسلحون باحتلال قمم الجبال العالية المحيطة بمنطقة دربندى خان ، بدأوا يقصفون مواقع القوات العسـكريـة العراقية ، وفى نفس الوقت يضربون السد ، جسم السد نفسه ، بغرض تدميره ، وتدفق المياه المحجزة امـامـه لتغرق المنطقة ، وكان المتضرر الاول هى قرى الاكـراد انفسهم ، دخلت القطاعات العسكرية العراقية المرابطة هنا فى صراع مع العصـاة بهدف ابعـادهم عن المناطق المسيطرة عليهـا من قبلهم والتى يستطيعون منها ضرب السد ، ولم يكن الامر سهلا ، لقد تم طرد العصاة عن القمم الغربية ، ولكنهم استعـادوا بعضها ، واستردتهـا القطعـات العسكرية مرة أخرى ، وبقى جبل زمناكو ، كان هذا فى صيف العام الماضى، ان الطائرة تطير الآن فوق (دربندى خان) ، وكلمة دربندى بالكردية تعنى بصورة عامة مضيقا بين هضبتين أو سلسلتين من جبال ، تمييزا لها عن المضيق الطويل الوعر والذى يسمى (كلى) ، ودربندى خان تعنى محطة المضيق ومنه مرت الجيوش العربية أثناء توجهها للحرب ضد الفرس ، وكان من بينها القوات التى قادها مسلم الباهلى أحد القادة المسلمين الأوائل ٠

أن الطائرة تتجه الى جبل زمناكو ، تقترب منه أو يقترب هو منهـا الحذر يحكم الحركة ، بدا أننا لا نطير ، ولكن نتجه الى تسلقه ، أنه جبل صخرى ، وهو يقوم أمامنا ، يرتفع أكثر ٠ عندما طرنا فوق جبال حمرين كانت الحشائش والطحالب تغطى الصخور ، لكن (زمناكو) قطعة هائلة من الصخر الاجرد غير الملتحى بالحشائش أو الطحالب ٠ انه جبل عقيم ، خلو من الماء وحوافه مدببة ، مسننة ، يشهر حرابا من الصخور ، يخيل لنا ان حركة الطائرة تزداد بطأ ، وكأن جاذبية خفية فى الجبل تبطىء من تقدمها ، أصبحنا فوق بداية الطريق المؤدية الى القمة ، ان الطيار يتطلع الى الأمام ، الى أسفل ، وتبدو فوق الصخر الشاهق الحاد ، المعتم ، ربايا للجنود ، ان مواضعها وشكلها يختلف عن الربايا التى رأيناها فوق جبل حمرين أو على طول الحدود ، هناك المواقع أكثر تمويها ، يبدو كل موقع غارقا فى الوحدة على الرغم من تقارب المواقع هنا ، ان قمة الجبل مستطيلة ممتدة كظهر ديناصور ضخم ، وتذكرنا الربايا بالركاب الذين نزلوا مع السندباد فوق جزيرة وسط المحيط ، وبمجرد أشعال النار فوجئوا بالجزيرة تتحرك ، كان ظهر حوت قد نام طويلا فى عرض البحر حتى نبتت فوقه الحشائش والطحالب وبمجرد اشعال النار تحرك ليغوض فى الأعماق ، وتختفى الجزيرة ، كان خاطرا ساخرا يطوف بالذهن ، ماذا لو تحرك الظهر، الذى نركبه نحن ، وهوت الطائرة ، وأفضل ــ لو حدث لنا حادث ــ ان نسقط فوق حشائش الوادى ، ولكن أن نهوى فوق الصخر الموحش القاسى فأمر يدعو الى الرعب ، مع ان المصير واحد ، القائد حريص على أن يمر فوق جميع مواقع رجاله وكأنه لا يقبل بينه وبين نفسه ان يقول جنود موقع فى

نهاية اليوم « لقد مرت طائرة القائد على الموقع القريب » ، كان يريد ان يمر فوقهم كلهم مهما تنوعت مخادر الخطر ، فالعصاة يحتلون مواقع قريبه عند أقصى الجبل ، ويمكن للاسلحة الخفيفة أن تنال الطائرة ، ان ارتفاعنا يبدو قليلا لو قيس بالمسافة التى تفصلنا عن ظهر زمناكو العجوز ،ولكنه أقصى ارتفاع يمكن للطائرة ان تبلغه اذا قيس من سطح الوادى .

ان طيران القادة فوق الربايا التى يعيش بها الرجال ، فى ظل ظروف صعبة ، يرفع المعنويات بلا شك ، قرب نهاية القمة التى تمتد حوالى سبعة كيلو مترات استدارت الطائرة فى المواجهة تماما بعض المواقع التى لازال المتمردون يتمركزون بها وقتئذ ، بدت الصخور قريبة منا للغاية ، لا يفصلنا عنها الا بضعة أمتار ، ولكن عندما ابتعدت الطائرة عن القمة ، ووراح السفح الوعر ينأى شيئا فشيئا تكشفت حقيقة الهوة ، ومدى عمق جوانب الجبل ، ان (زمناكو) العجوز يبلغ طوله ٧ كم ، أرتفاعه ١٧٠٠٠ قدم عن سطح الأرض ، يستغرق صعوده أربع ساعات ، الصعود لا يتم بشكل مباشر ، ولكن عبر ممرات ، وطرق فى الجبل ، يستلزم الصعود ارتداء أحذية من نوع خاص ، ولياقة بدنية عالية ، وغالبا ما يصعد الجندى وهو يحمل مئونته الى جانب سلاحه وذخيرته ، ان الجنود يستطيعون التسلق المتواصل لمدة أربع ساعات بدون تعب ، ويتنافس الجنود فى قلة عدد الوقفات ، أى أن الجندى الذى يقف أثناء الصعود أقل عدد ممكن يصبح أكثر احتمالا ومهارة ، هذا التسلق الصعب لا يتم فى ظروف عادية ، ولكن تحت الخطر ، حيث يحمل كل شبر من الجبل خطر الموت ، كان بعض الجنود يحملون جرادل المياه وأثناء تسلقهم الجبل تنطلق عليهم رصاصات المتمردين ، تصيب الجرادل التى كانوا يضعونها على كتفهم المواجه للفراغ ، وليس للسفح ، وعند وصولهم الى القمة يجدون الوعاء مثقوبا عدة ثقوب ، والمياه كلها فرغت ، منظر الربايا فوق (زمناكو) يجسد تلك الظروف القاسية التى يعيشها المقاتلون العراقيون ، والتى تكسبهم خبرة قتال ولياقة عالية ، انهم هم الذين ذهبوا الى الجبهة السورية فى تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ أنفسهم ، ان الحياة فوق ربايا الجبال قاسية ، خاصة فوق هذه القمم الشاهقة .

زمناكو خلو من الثلوج ، ولكن فى مواقع أخرى يرابط الجنود فوق قمم مغطاة بثلوج أبدية يبلغ سمكها عدة أمتار ، ويمكن للانسان ان يعرف عمر تلك الثلوج لو نشرها بمنشار كهربائى ، عندئذ تبدو خلال الشريحة العرضية الخطوط التى تحدد عدد الأحقاب التى أستمرت عبرها الثلوج ، تماما كما يعرف عمر الشجرة من الدوائر التى تبدو فى القطاع الداخلى للجذع ، ان الجنود فى رباياهم المنعزلة يشعرون بتضامن عميق فيما بينهم . للزمن ايقاعه الخاص هنا ، تحت الخطر وفى تلك الظروف القاسية ، أحيانا فى أيام الشتاء التى تعيد مناطق الشمال الى المراحل الأولى من تاريخ كوكبنا ، حيث تثقل السماء بغيوم ، ويتصاعد البخار من الصخور ، وتتحلل السحب الى ثلوج ، الى أمطار غزيرة ، فى بعض تلك الأيام تدخل الربايا السبات .

« ودخلنا السبات »

عبارة تقال عند بدء نزول الثلج ، تراكمه حول المواقع ، ان الطرق تقطع ، تصبح زلقة ، الحركة عليها تستحيل بالنسبة للانسان أو البغال، تدخل الحياة لحظات تبدو فيها الحركة والأضواء والليل والنهار ، وكأن كل شيء توقف ، تجمد ، فكأن الزمان لا يمضى ، والعمر لا يتقدم ، كأن الكون كله دخل ثلاجة ضخمة ، انه السبات ، تنقطع الربايا عن العالم ، تستمر العزلة لمدة أربعين يوما كاملة ، لايسمع من الأصوات الا مرور الرياح بين الجبال ، والزمهرير يقص الاطراف قصا ، كل ما يصل المواقع بعضها ببعض هو سلك تليفونى ، سلك رفيع ، نحيل ، يمتد فوق الصخور الى بقية الربايا ، الى أسفل . سلك يحمل الأصوات الأدمية يؤنس كل منهما الآخر ، وعادة ما يتم الاتصال بين موقع فى الذرى العالية وموقع بأسفل ، وفى احدى الربايا المرتفعة قرب (الأتروش) كان ضباط الموقع الذى دخل السبات ينظم الشعر ، وأثناء الحديث التليفـونى اليومى الذى يتخـلل فترات الهدوء التى تكف فيها أصوات الطلقات ، يطلب منه زملاؤه المرابطون فى الوادى ان ينظم لهم الشعر ، ويبدأ فعلا فى نظم قصـيدة ، قد تكون قصيدة غزل ، أو حنين الى المدن النائية ، والحياة التى تدب فى الطرقات ، قد تتغنى بمجد الوطن ، وبطولات الشهداء ، وعبر أسلاك التليفون ، ولاشيء فى العالم يعادل مشاعر السرور التى كانت تبعث فيه دفئا ، عندما تهتز أسلاك التليفون الميدانى بصيحات الاعجاب من زملائه بالوادى .

ان الجبال تشرف على بعضها البعض ، كالرءوس الأدمية التى يطل كل منها على الآخر ، لهذا فالحركة يجب ان تتم بحســاب فوق الربايا والمواقع ، الجبل لا يفصح عن نفسه ، عن محتواه ، لا يكشف عن الانسان الذى يتحرك فيه بسهولة ، يمكن الخطر دائما فى القمم ، فوق بعض القمم ، كان جنود الربايا أثناء احدى مراحل القتال لا يتحركون الا بصعوبة ، كانوا لا يخرجون لقضاء حاجة فى العـراء الا خلال اللحظـات التى تأتى فيهـا الطائرات لتقوم بعمليات القصف ، تلك هى اللحظات التى تختفى فيها الرءوس الأدمية أيضا ، فان الحياة فوق القمم تحمل اخطارا من نوع غريب حدث فى احدى المرات التى جرى فيها أطـلاق النـار بين العصاة وربايا الجيش ، أن سقطت قذيفة مدفع جبلى بالقرب من جنديين كانا يجلسان قرب الحافة ، حافة الجبل ، ونتيجة لضغط الهواء قذف بهما الى الوادى السحيق ، بحث زملاؤهما عنهما بدأب عظيم ، لم يعثر لهما على أثر ،اعتبرا من المفقودين ، وبعد اثنى عشر يوما تصادف ان أحد المغاوير كان يقوم بواجب عند حافة الجبل ، وعندما أطـل الى اولـوادى ، رأى فى الأرض البعيدة ، غير المنتظمة الوعرة ، جنديين ، اتخذت الاستعدادات اللازمة ، مدت اليهما الحبال ، وتولت مجموعة من المغاوير عملية الانقاذ ، كانأحدهما والآخر فى حالة سيئ ، لقد عاش الجندى الأول سبعة أيام ، كان جريحا ، وكان الجنديان يتبادلان الحديث ، يسليان بعضهما البعض ، حتىاستشهد الأول على مرأى من زميله ، فبقى الثانى وحيدا مع الجثة لمدة خمسة أيام،

في وحدة ، وصمت وعزلة ، وسيات الموت ، كانا يقتاتان على الحشائش المزروعة حولهما ، ويبللان لسانهما بقطرت الندى والمطر المتساقط من السماء ، وحاليا يوجد الجندي الثاني الذي انقذ ، في صفوف الجيش العراقي ، تجربة وعرة تعكس ما قد يلاقيه الانسان في هذه الطبيعة القاسية ، والتبدل السريع المفاجيء ، في وضع الانسان ، وعندما يعود المقاتل الى مدينته في أجازة يمشي في شوارعها وكأنه قادم من عالم آخر ، أحقا هذه حياة ، اضواء ؟ دور سينما ؟ نساء أطفال ؟ ضجيج ؟ الضجيج الانساني ، تدفق نهر الحياة ٠

كان الجيش العراقي لا يواجه عصابات تقليدية خلال السنة الأخيرة، ولكن قوات شبه نظامية ، مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة ، مدعومة بتدخل أجنبي مباشر بالاضافة الى ظروف الطبيعة الوحشية ٠

دارت الطائرة لتنزل في واد منخفض تحت جبل (زمناكو) ، أن الجبل يجثم كظل ثقيل ، ومن حولنا سلسة من الجبال أقل ارتفاعا ، ان كلمة (جبل) تثير في الذهن تداعيات كثيرة ، الوعورة ، صعوبة التنقل ، الارتفاع ، الحواف المفاجئة ، الانهيارات الصخرية التي تحدث أحيانا ، المكان الذي يلجأ اليه العصاة ٠ ان تعبير (طلع الجبل) كان يعني بعد ١١ آذار ١٩٧٤ ، الانضمام الى القوى الرجعية الكردية التي يقودها البارزاني، ومعاداة الثورة والانجازات التقدمية ، وكانت دوافع الذين طلعوا الى الجبل كثيرة ومختلفة ، بعضهم نتيجة الارتباط العشائري المتخلف بقيادة الملا مصطفى البرزاني ، قسم ثان طلع الجبل لانه قدر الموقف لصالح المتمردين، بمعنى أن ثمة اتفاقا سيعقد بين الحكومة وقيادة الملا ، وبالتالي يعودون هم ليحصلوا على مكاسب أكبر ، أو مناصب متميزة ، ومعظم أفراد هذا القسم من المثقفين الانتهازين طبعا ، قسم ثالث طلع الجبل بدافع ما يمكن تسميته « عقدة الجبل » معظمهم من الشباب المثقف الذي لم يشترك في حركات كردية مسلحة من قبل ، وقرأ كثيرا عن حركات الكفاح المسلح في أمريكا اللاتينية وآسيا ، ومن هنا انضموا الى الحركة ليعيشوا تجربة رومانسية قرأوا عنها وتخيلوها ، قسم رابع طلع الجبل هربا من عقوبات وقعت عليهم الى الجبل يخلصهم من ذلك ، تلك هي الأسباب الرئيسيةالتي أدت بعدد من الاكراد الى طلوع الجبل ٠٠ الى مرافقة العصيان المسلحبعد الحادي عشر من آذار ١٩٧٤ ، ويبقى موقف بعض المثقفين الواعين محل تساؤل ، لماذا انضموا الى التمرد الرجعي ؟ وهذه نقطة ستثار فيما بعد ، وخلال الرحيل في الشمال ، ولكن الآن يقوم (زمناكو) في مواجهتنا ، لا يدع فرصة كي تتراكم الأفكار الا في اطاره ، وتطرح وعورته تساؤلا : كيف أمكن اقتحامه ؟ ولم أكن أدري أنني سأتوقف كثيرا خلال الأيامالتالية واطرح نفس التساؤل أمام قمم أخرى أكثر ارتفاعا ، وأشد وعورة ، ان شمال العراق يتألف من سلاسل جبال شاهقة ، تمتد متوازية متوالية ، تتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، تبدأ بالكثبان الغربية من دجلة ثم تتصاعد سلسلة شاهقة تليها سلسلة أكثر ارتفاعا حتى تتمبهضبة

شماء ، تتخللها قمم تطعن السماء ، ووديان طويلة عميقة ، وانهار أوجدت لها طريقا في الصخور ، وتتميز هذه الجبال بمجموعة من المضايق الوعرة التي يسلم كل منها الى الآخر ، وتعد بمثابة مفاتيح للمنطقة · وقفنا أمام زمناكو ، عند موضع معين لينفرج الصخر انفراجة على شكل حرف V ، وكأنها علامة نصر غامضة يرفعها الصخر في وجه السماء التي بدت أرق ما في المكان ، من خلال تلك الفتحة ، وفي الخلف ، بعيدا عن الأفق تبدو جبال زاغروس داخل الأراضي الأيرانية ، متوجة بثلوج كالمرايا الكونية تعكس ضوء النهار أو تحتفظ به ، تشعه ، بدا زمناكو وكأنه ستارة غامقة انفرجت قليلا لتكشف مشهدا صاغته قدرة خفية ، ونعود مع الزمن الى اليوم الذي دارت فيه فوق تلك السفوح الشاهقة أصعب المعارك ·

• • •

الصراع الانساني ، أو الحرب بمعنى آخر ، لها قوانين ، منها مايتشكل بالبيئة ، بطبيعة الأرض ، هناك قوانين عامة للحرب ، ولكن عندما تدور تلك الحرب فوق الصحراء يصبح لها خصائص تختلف عن الحرب في البحر ، أو الجبل ، أو السماء ، والحرب في الجبل تحد من حرية الحركة ، فالطرق قليلة ، وصعبة ، لهذا فان القيمة العسكرية للطرق المتاحة تتضاعف وتتزايد أهمية الحصول على المرتفعات المشرفة عليها ، في الجبال يزداد الاعتماد على الوحدات الصغيرة ، وبالتالي تكون صفات المبادأة والقيادة والعمل اللامركزي وهي الصفات الواجب توافرها في قادة الوحدات الصغرى ذات الأهمية القصوى ، لان النجاح في العمليات الجبلية يعتمد على الاستخدام الصحيح للوسائل المتيسرة للقائد أكثر من اعتماده على الكثرة العددية ، في الجبال يصبح من المهم السيطرة المركزية عند وضع الخطة ، فمن يمكن الافادة منها بأقصى مجهود مستطاع · في نفس الوقت يجب أن تعمل كل مجموعة تكتيكية وهي مستقلة تقريبا للحصول على أغراضها ، أي أن تكون الخطط مركزية · أما في التنفيذ فتستقل الوحدات التكتيكية ،تتطلب الحرب في الجبال تركيزا شديدا على النواحي الادارية ، فان المعونة الادارية التي يمكن تقديمها لوحدات تعمل في منطقة جبلية تكون ملموسة الأثر على ناحية العمليات أكثر منها في أنواع خاصة من العتاد والتموين ، والنقل وأخلاء الجرحى ، أن هذه القوانين أو القواعد المتعلقة بحرب الجبال كان الجيش العراقي يضعها أمام عينيه ، الى جانب خبرته الخاصة بالمكان والعصاة ، والأساليب الجديدة التي عمل بها خلال السنة الأخيرة الواقعة بين نيسان (أبريل) ١٩٧٤ ، آذار (مارس) ١٩٧٥ ، كان الجيش العراقي النظامي قد طور أساليبه بحيث أصبحت وحداته المقاتلة تعمل بشكل ثوري ، لاتقاتل بالشكل التقليدي ، انما تقاتل في مجموعات صغيرة ، تتجمع أحيانا ، وتتفرق أحيانا أخرى طبقا لما يقتضيه الموقف ، قرر مجلس قيادة الثورة أن تكون العمليات العسكرية ذات طابع انساني تماما ، وهذهمعادلة صعبة في عالم الحرب ، كيف تحارب القوات ، ؟ وكيف تكون حربها انسانية ؟ لكن هذا ما حققه الجيش العراقي بالفعل في الشمال، انالجيش

لم يحرق قرية ، ولم يعدم أمرأة ، ولم يمس طفلا ، كان هذا يحدث في الماضي، في عهد الحكومات الرجعية الضيقة الافق ، القصيرة النظر ، ولكن خلال هذه السنة الأخيرة، ومنذ بداية الحرب وانتهائها كان الجيش يقدم المساعدات للقرى التي يدخلها ، ويقيم العلاقات الطيبة مع الأهالى ، كان العمل السياسى يتم جنبا الى جنب مع العمل العسكرى ، وكان الجيش فى معظم الأحيان يرد على الاعتداءات التى يوجهها اليه العصاة ، أى لا يكون البادىء الا فى العمليات الاستراتيجية التى كانت أيضا تمثل ردا عسكريا حازما على خطط وضعها العصاة ، وشرعوا فى تنفيذها ، كانت العمليات العسكرية تتابع بدقة من قبل القيادة السياسية واللجنة العليا لشئون الشمال ، والتى رأسها صدام حسين ، كان يتابع بنفسه أدق الحوادث ، وأصغرها شأنا ، لم يرتكب جندى واحد عملا يسيء الى الاستراتيجية الموضوعية من قبل القيادة لمعالجة القضية الكردية ، عندما اجتمع قائد التشكيل برجاله فى هذا القطاع خلال الأيام الأخيرة من حزيران (يونيو) ١٩٧٤ ، كانت هذه الملامح كلها فى ذهنه ، ان خطة التشكيل كله يجب أن تعرض فى مؤتمر عام حتى يمكن توزيع الواجبات المختلفة بشكل يناسب جميع المجموعات القائمة بالعمليات . بدأ زحف القوات العراقية الساعة التاسعة مساء يوم ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، وتردد فوق الصخور العجوزة التى اندمجت بسواد الليل أصوات الطلقات النارية ، وقذائف المدفعية ، كان العصاة يستخدمون الرشاشات المتوسطة والثقيلة ، ومدفعية الهاون . ومن الخطوط الخلفية تساندهم وحدات من المدفعية الأجنبية بعيدة المدى ، استمرت المعركة طوال الليل ، إحاطت القوات العراقية ، ومعها فصائل الانصار من الاكراد الوطنيين وقوات حرس الحدود الكردية ، أحاطت الجبل من ثلاث جهات ، وبدأت وحدات المدفعية تقصف المواقع التى تتمركز بها قوات العصاة الرجعية . بدأ التسلق من عدة جهات ، أطلق العصاة نيران الهاون بغزارة ، ان الهاون سلاح لا يمكن الاستغناء عنه فى الحرب الجبلية نظرا لارتفاع خط مرور القنبلة ، وكان العصاة مزودين بالعديد من عياراته المختلفة ، وأنواع متعددة المصادر منه من بينها الهاون ٨١مللى، الاسرائيلى الصنع ، والذى تم تسليم العشرات منه فيما بعد للسلطة الثورية بعد انتهاء التمرد ، فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٣ تموز (يوليو) تم تحرير الجبل ،استمرت المعركة القاسية ١٤ ساعة متصلة ، وكانت الدماء الحمراء تلون الصخور البينة اللون العديمة المسام والتى لا تتشرب الدماء ، فتبقى آثار الصراع ، شاهدا صامتا مؤلما . كان قيظ تموز (يوليو شديدا ، والجبل يفح لهيبا ، هنا تتضاعف الحاجة الى المياه ، واستخدام الجرادل فى نقل المياه يجعلها حارة ، بدأت طائرات الهيلوكبتر تنقل أوعية المياه الى الربايا ، فى نفس الوقت كان الجنود الذين حاربوا لمدة أربع عشرة ساعة منهمكين فى واجب جديد ، هو اعداد المواقع الدفاعية فوق الجبل ، تجهيزها بالاسلاك ، بالحفر ، رص الالغام على المناطق الحيوية بالجبل ، والممرات الهامة ، ان الوصول الى الربايا يجب أن يصحبه تأمين

كافة الامدادات للجنود الذين سيدأون التمركز لأيام كثيرة مقبلة ، وخلال هذه الحركة التي أزدحمت بها صخور الجبل ، تدوى قذيفة من حين الى آخر ، فيتردد صداها بين الصخور ، أشد رنينا من الصوت نفسه ، ومنذ هذا التاريخ ، ٣ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، يرابط الجنود العراقيون فوق ظهر زمناكو ، يمتطون هذا الديناصور المتحجر الضخم ، بعد قهره ٠

●●●

« مەمی وآيش » من أشهر الملاحم الشعرية المكتوبة باللغة الكردية، كانت (آيش) فتاة رائعة الجمال ، قدها شبيه بشجرة باسقة ، أما خداها فشبيهان بشمعتين تنيران دياجير العتمة ، اختارت آيش ، (مەمی) ، أحب بعضهما بعضا حبا عظيما ، كان (مەمی) أبنا للأرملة (زوزان) التي قاست كثيرا بسبب أبنها الوحيد ، حتى جعلته شابا ، شقيت لصبح أبنها سعيدا في حياته ، تمت خطوبة (يش) الجميلة الى (مه مى) ، ولقيت الخطوبة ترحيبا من جميع أهالي الناحية فيما عدا طاهر « أغا ثرى الناحية» تأججت نار حامية بين جنبيه ، وأخذته الكآبة ، كيف يستولي (مه مى)! ذلك الخادم الفقير ابن الارملة الكادحة على أجمل بنات الناحية ، بدأ يفكر في كيفية الاستيلاء على (آيش) ، أنه الاغا ، والاغا سيد مطاع ، وحاكم بأمره ، وكل الثمر الشهي يجب أن يذوقه ، طلب من رئيس خدمه أن يمضي فورا الى (مەمی) يطلب منه التراجع عن زواجه بايش ، والا فلابد أن يترك القرية الى قرية شيخ جواد البعيد للعمل هنـاك ، هذا هو أمر الاغا وأمره نافذ مطاع ، وحينما بلغ (مەمی) يطلب منه التراجع عن زواجه هـذا هو أمر الاغا وأمره نافذ مطاع ، وحينما بلغ (مەمی) أمر الاغا حزن حزنا عظيما، قرر ان يرحل ليعمل في قرية بعيدة ثم يعو ليسدد ديونه المتراكمة عليه للاغا ، وقال لامه « كوني مواظبـة لآيش العفيفة الطاهرة ، فرحي قلبهـا الحزين وواسيها من آلامها ، أنا فخور بأم مثلك ، اتمنى أن أرجع اليكما مرفوع الرأس من سفرتي هذه » .

لفظ هذه الكلمات ثم ركب جواده الى مسـتقبله المجهول ، وتمضي سنوات ، تورق أشجار الصفصـاف وتذبل ست مرات ، خلال هذه المدة كان (طاهر أغا) ، يبعث بالرسل الى (آيش) برغبها ، يهددها ، لكن عبثا وبقيتمحافظة على عفافها تنتظر عودة (مەمی) ، كما كانت بيتلوبي تنتظر بوليسيس ، وكان من عادتها أن تسأل السابلة هل رأى أحد منهم في رحلته حبيبها (مەمی) وكيف حاله ، وهل هو على قيد الحياة ؟ وفي احـد ايام السـنة السابعة رات فارسا مغوارا يقترب من بعيد وهو راكب صهوة حصان اشهب وكأنه بطل من الاساطير ، عندما تأملته (آيش) بدقة صرخت صرخة عالية ، بكت بحرقة حيث تذكرت ما قاسته من آلالام خلال تلك السنين من فراق حبيبها وغبطتها ، كان هو (مەمی) . تعانقا ، ثم وضـع (مەمی) شيئا ، بعد فترة قال (مەمی) :

« حبيبتي ، اذهبي الى أمي المسكينة لكي تأتي وتشارك في فرحتك فتقر عينها برؤيتي » .

أجابت « آيش » :

(ياحبيبى ، دع عنك هذه الليلة ، فلتمض لكى تنام امك المسكينة نوما هادئا ، انها مكدودة ، متعبة ، انها تنام بعد العشـاء مباشرة ، والآن استرح ، سأجلب لك الحليب واللبن الطيب لنشربهما معا ، ولنعش بعد هذا الفراق الاليم لحظات كلها سعادة وهناء بعد هذه السـنين العجاف التى حرمتنى منك » .

فى الفجر استيقظت الأم العجوز ، فتحت باب « آيش » بهدوء وهى تسير على أصابع رجلها ثم دخلت .. كانت الغرفة مظلمة تماما ولكن باقة من نور الصباح قد تسربت من خلال الشباك الوحيد للغرفة ، وسقطت على سرير (آيش) فانارته بوضوح ، صرخت « زوزان « متعجبة ، متسائلة عن هذا الشاب الغريب الذى يحتضن (آيش) كالعاشق الولهان ، بدات الام ترتجف من الفضب ، آن (مهمى) ابنها هو خلاصـة عمرها ، مازال مجهول المكان بسبب (آيش) أهكذا ترمى (آيش) نفسها بين أحضان غريب ، تلفتت حولها ، كان الشاب الغريب قـد علق كل اسلحته الى الجدار ، أمسـكت (البندقية) وصوبتها الى رأس الشاب ، ولكنها خافت الفضيحة لأن الطلقة ستحدث صوتا وسينتشر الخبر فى القرية كلها ، واذا عاد (مهمى) قريبا قريبا فانه سيسمع الخبر الفاجع ويصدم فى (آيش) ، أمسكت السيف ، وبكل ما تبقى لدى شيخوختها من قوة غرسته فى قلب الشاب الغريب ، وتفجر الدم غزيرا كالنبع ، صرخت « آيش » ، قامت تنوح نواحا رهيبا .

ــ قتلت ابنك ، قضيت على حبيب قلبك وقلبى ، كان حبيبى منذ سبع سنوات فى ديار الغربة ، احاطت به الاخطار ، من كل حدب وصوب ، ولكنه لم يهلك حتى ولم يجرح ، قتلته شر قتلة .

تذكرنا هذه القصة الكردية بمسرحية « البير كامى » « سوء تفاهم » ، ولكنها تمس جانبا مأساويا فى الواقع الكردى حيث الصراع محتدم ودموى بين الاخوة الاشقاء منذ سنوات طويلة ، انتابنى أسى غامض ، وأنا اصـغى الى علي جمعة الكردى البسيط ، كان شقيقه الاكبر يقاتل الى جانب قوات العصاة الرجعية وقتئذ ، لا أ رى لمـاذا تذكرت قصة (مهمى وآيش) كلما التقيت بكردى له أخ يقاتل فى الجانب المقابل ، هذا هو لب المأسـاة التى تغذيها وتنميها القوى الرجعية الداخلية ، والرجعية العالميـة ، وتلك هى الدراما الحزينة التى ارادت ثورة العراق انهاءها وعملت من اجل هذا بداب ونضج خلال سبع سنوات كاملة ، على جمعة فلاح شـاب فى الثلاثينات نحيل ، ملامح وجهه حادة ، كان فى الماضى ، قبل الثورة يقاتل فى صفوف الحركة الكردية :

ــ انتا كشعب قاتلنا سنوات طويلة ، وسقط منا ضـحايا كثيرون ، وتشردنا الى أن جاء حزب البعث العربى الاشتراكي وبدأ فى تطبيق الحكم الذاتى .

واسأله بحـذر ، محاولا تلمس الاغوار الانسانية الاشـد وعورة من سفوح زمناكو :

ـ هل تعلم اين يوجد اخوك الآن ؟
ـ أظنه في ايران .

ان كردستان منطقة شاسعة ، والجبال وعرة والانتقال صعب ؛ لكن المنطقة كلها كقرية واحدة ، كل شخص معروف للآخر ، والأخبار تيناقلها الناس بسرعة ، ولا شيء يندرج تحت كلمة سر ، كنت اسأل علي جمعة عن موقع شقيقه ، وأعتقد انه يعرف مكانه ، في قرية اخرى التقيت بكردي اسمه حسن حمجان ، كان قبل بيان ١١ آذار مع أخيه وتصادف أن شقيقه كان مقيما في قرية تسيطر عليها السلطة الثورية ؛ عندئذ جمع حاجاته والتحق بالعصاة ، أما حسن الذي يقيم في منطقة يسيطر عليها العصاة وقتئذ ، فقد تسلل سرا والتحق بصفوف القوى الوطنية التي تحارب التمرد ، تبادل الشقيقان موقعهما ، ثم اقتتلا .

●●●

ونعبر القرى القريبة من جبل (زمناكو) وسد دربندي خان ، نقصد موقعا فيه أحد الضباط العراقيين الذين شاركوا في حرب تشرين ، تقف عيوننا عند ملامح الاكراد في هذه الناحية ، انهم ينتمون الى قبيلة كردية قديمة جدا ، «الجاف» ، وتحتل منطقة واسعة من قزلرباط في لواء ديالى ، وناحية بنجوين في أقصى الشمال الشرقي لمحافظة السليمانية ، ومعظم أفراد « الجاف » استقروا في تلك المناطق التي نمر بها الآن ، وقلة منهم لازالوا يعيشون حياة الرعي حيث يتوجهون شتاء الى سهل كركوك ، والى هضبة بنجوين صيفا ، وفوق رابية مرتفعة يبدو الموقع الذي نقصده ، الصخور مكسوة بالطحالب الخضراء ، وثمة أشجار متفرقة تنمو هنا وهناك وفي هذا الصمت يدوي صوت الضابط العراقي مرحبا بنا ، انه جهوري الصوت ، منذ فترة طويلة لم ينزل في أجازة ، عندما بدأ يستعيد أحداث حرب تشرين صمت قليلا ، وبدأ يسترجع تلك الايام ، يوم أن اندلع القتال ، كان بوزارة الدفاع ، نقل كضابط ركن في أحد الالوية المدرعة ، بالتحديد اللواء السادس المدرع الذي كانت باباته تتقدم على الجنزير ، لحق باللواء في منطقة المحمديات التي تقع على الطريق بين بغداد ودمشق ، واصل اللواء تقدمه على الجنزير حتى وصل الى دمشق بسبب عدم توافر العدد الكافي من الناقلات ، غير ان شعور القيادة في بغداد كان يدفعها الى تحقيق المستحيل من أجل دفع الجيش العراقي بأسرع وقت ممكن الى الجبهة السورية ، كانت التعليمات واضحة ، الاوامر صريحة ، التقدم في كل الظروف على الجنزير ، على الناقلات ، بكل الوسائل الممكنة ، يوم ١٤ تشرين (اكتوبر) وصل اللواء الى منطقة (هـ ـ ٣) ، قابل اللواء عددا من الدبابات بلغ مجموعها كتيبة ، وفجر ١٦ اكتوبر دخل اللواء الى دمشق ، كانت رائحة الحرب فوق المدينة ، وثمة انفجارات مكتومة بعيدة تصل الى الآذان من بعيد ، ربما صوت الانفجارات نفسه ، الصدى ، غير أن هذا كله كان يجسد ليل الحرب والخطر ، جاء رائد سوري من الشرطة العسكرية ، استقبل اللواء ، وبرفقته مجموعة من جناد الشرطة العسكرية ، تقدموا اللواء الى

منطقة الكسوة التى خصصت لتجمع التشكيل ، وكان الجنود السوريون يرحبون بالمقاتلين العراقيين ، يصافحونهم ، يصيحون :
ــ الله ينصركم يا شباب .
في تمام الساعة الثانية ليلا ، تلقى اللواء أمرا من مقر قيادة الفرقة الثالثة المدرعة ، بالتحرك ومهاجمة تل عنتر ، فى نفس الوقت علم الرجال أن اللواء المدرع ١٢ (لواء خالد بن الوليد) يخوض معركة مع العدو في سعسع ــ تل عنتر ، فى الفجر وصل قائد الفرقة بنفسه ، طلب سرعة التوجه بالهجوم لطرد العدو من تل عنتر ، وتل المال ، كان جنود وضباط اللواء لم يذقوا النوم منذ ما يقرب من ست وثلاثين ساعة ، وكان أمر اللواء يود بينه وبين نفسه لو نال رجاله قسطا من الراحة ، لكن الموقف كان يقتضى توجههم السريع الى القتال ، غير أن الجانب الذى كان بمثابة البديل لهذا الارهاق هو حماس الرجال وتشوقهم للمعركة ، شن اللواء المدرع السادس هجوما كبيرا تمكن من خلاله استرداد تل عنتر ، وتل العلاقية ، يوم ١٧ تشرين (اكتوبر) تكامل اللواء بجميع قطعاته على الجبهة ، اشترك مع اللواء ٢٠ فى معركة بمنطقة كفر ناسج ، فى هذه الليلة سرت الانباء بين الجنود العراقيين والسورين بأن طلائع الفرقة السادسة قد بدأت بالوصول ، كان وصول كل تشكيل عراقي الى سوريا يرفع من معنويات المحاربين ، فى نفس الوقت الذى يربك خطط القيادة الاسرائيلية التى انقلبت حساباتها رأسا على عقب . أصبحت دمشق هدفا يستحيل الوصول اليه ، وخاصة تصريحات ديان الذى كان يتمنى أن يحتسى القهوة فوق جبل قاسيون .
حوالى الساعة الثامنة صدر أمر من مقر الفرقة بالهجوم فجرا ، وبالفعل قام اللواء العراقى المدرع بهجوم ليلى ، فقد تم تقديم ميعاد الهجوم ، وتمكن من تثبيت مواقعه التى كسبها فى تل عنتر والعلاقية ، خلال تلك المعارك كان يحدث شيء هام لدى القوات العراقية ، ويتأكد ، لقد رأى المقاتلون العرب الجندى الاسرائيلى قتيلا وأسيرا وفارا ، خلال فترة وجيزة جدا اكتسبوا معرفة ثمينة بامكانيات الجندى الصهيونى ، يمكن القول أن حاجزا الوهم الذى صنعته الدعايات المعادية حول قدرات الجندى الصهيونى قد سقط نهائيا ، وطوال الليل شنت القوات العراقية الخاصة هجمات مركزة ضد دبابات العدو ومواقعه .
و ويتطلع الضابط الى قمم جبال المنطقة الكردية ، هل تذكره بمرتفعات الجولان ؟
كان واجبنا المقدس الا يدخل اليهود دمشق ، كل جندى وضابط كان يشعر انها مدينته ، وكأن حياته ارتبطت بكل شبر فيها .
يذكر انه خلال الهجوم على تل عنتر ، والعلاقية ، وخلال المعارك التى جرت عند الهجوم الاسرائيلى المضاد على تل عنتر ، ان اشترك عدد من الجنود الاكراد ، والضباط الاكراد ، كان حماسهم رائعا لقتال العدو العدو الصهيونى ، كان المرافق الخاص معه كرديا ولازال يرافقه فى هذا الموقع النائى بمنطقة دربندى خان ، فى السماء قبل الرحيل الى كركوك ثم استئناف الرحيل .

المحور الثانى

كركوك ـ الجولان

.. كركوك ، ٢١٠ كيلو مترا .
اذن سنصل بعد حوالى ساعتين ونصف تقريبا ، بعد مفرق بعقوبة ـ كركوك ، أصبحت مجموعات النخيل أقل كثافة . على جانبى الطريق امتدت أرض سهلية مغطاة بحشائش قصيرة تكشف احيانا عن رمال حمراء ، للمنطقة طابع خاص ؛ هكذا كل قسم من العراق ، فى شمال العراق تختلف درجات الضوء من قطاع الى آخر ، فى دربندى خان وجلولاء ، حول بحيرة دوكان الفيروزية ، نجد الخضرة اكثف واللون عميقا والمرتفعات شاهقة . ضوء النهار يبدو مبطنا بالظلال ، وفى السماء تطير الهليوكبتر فى أحشاء وسادة ضخمة من قطن رقيق ، هش ، غامق ، هنا فى الطريق الى كركوك حيث المنطقة سهلية الى حد ما ، نمر عبر جبال حمرين ، نخترقها الآن بالسيارة ، تبدو اقل ارتفاعا من زمناكو ، وجبل بشتكو وبمه ، ويمتد حمرين الى يمين والى يسار ، اندفاعه مستمر حتى نهر جلة غربا ، ساعات النهار لا تزال فتية ، والطريق يمتد ، والذهن يرحل الى أيام تشرين ، يستعرض التشكيلات العراقية المتجهة الى الجولان ، ونتوقف قليلا عند اللواء الثامن مشاة آلى .
١٢ اكتوبر ١٩٧٣ :

●●●

وصل اللواء الى غوطة دمشق ، لاقاه احد ضباط الشرطة العسكرية السورية ، قاد عربته امام الرتل فى بساتين الغوطة . لم يكن قائد اللواء العراقى يعرف دمشق بشكل مفصل ، فى سنة ١٩٥٨ مر بها مرورا عابرا ، ثم ان ملامح المدن تتغير فى زمن الحرب ، حيث يختل ايقاع الحياة ، تصبح خطى الناس فى الطريقات أسرع ، يختفى المتسكعون ، تعلو الجدية وجوه الفتيان والفتيات ، تمرق العربات العسكرية ، لاتمر احداها متمهلة ، ويكتسب مرور سيارة عسكرية معنى خاصا تتجرد منه الايام العادية ، وصل اللواء الى منطقة مكتوب على مدخلها (الجلاء) كان يتمركز بها اللواء السورى المدرع السبعون ، بدت مليئة بالحفر المعدة لايواء المدرعات ، بدات المدرعات تتجه الى الحفر الجاهزة للتمركز فيها ، حول معسكر الجلاء امتدت تلول ومرتفعات ، لاحظ المقاتلون العراقيون أن القصف المدفعى رهيب جدا ، وقريب أيضا ، كان يوم ١٢ أكتوبر من أصعب وأد الايام على الجبهة السورية ، انه اليوم الذى بدأ فيه شن الهجوم المضاد الاسرائيلى بتركيز عنيف ، فيه اشتبكت الواحدت المقاتلة من لواء خالد بن الوليد ، انصرف ضابط الشرطة العسكرية السورية ؛ أصبح اللواء بدون ضابط ارتباط سورى ، بدأوا يستغلون الوقت فى توزيع الوحدات والانتشار ، بالقرب منهم انتصبت مضحات وقود ، كانت المشاكل الادارية محلولة ، خاصة فيما يتعلق بالتموين ، طوال الطريق الطويل كان المسئولون العراقيون يتصلون باللواء يشرفون على مسائل الامداد والتموين ، وكان القائد العام للقوات المسلحة ، أحمد حسن البكر قد امر بصرف مبلغ مناسب لكل لواء يتحرك الى الجبهة ، وذلك تحسبا للطوارىء . أصبح لدى قيادة اللواء ثلاثة آلاف دينار كعملة سائلة للمصاريف الطارئة وحتى لا تحترق النقود اذا ما

اصيب مقر القيادة فقد تم توزيع المبلغ على قادة الكتائب والسرايا . اشتروا خبزا وعنبا ، وتابعوا بأنفسهم وصول الطعام الساخن الى كل جندى فى اللواء ، فى نفس الوقت استمر القصف القريب بعنف ، فى الجو ظهرت على صفحة السماء خطوط بيضاء نحيلة ملتوية أحيانا ، مستقيمة أحيانا اخرى ، صواريخ سام السورية ، وبدا واضحا اصرار طائرات العدو على الهجوم ، اعداد من الطائرات هوت كالذباب سقاط كل طائرة ميثر زئيرا من الهتاف والتهليل مصدرة مقاتلون ، ومواطنون .. غير أن الموقف امام قيادة اللواء ظل غامضا ، ان وضوح الموقف علي أرض العمليات من العوامل الاساسية بالنسبة لأى مقاتل يصل الى الجبهة ، يساعده الوضوح علي اتخاذ القرار الصحيح ، قرر قائد اللواء الذهاب الي دمشق ، الى مقر القيادة العامة ، ركب سيارته ، دخل لى شوارع المدينة ، مرة أخرى راى الحرب فى الطرقات ، فى الابنية ، فى أزياء الناس ، أمام معرض دمشق راى أشجارا مقطوعة ، متفحمة ، مبنى الاركان العامة مصاب سيارة مقصوفة محترفة ، الجنود يتمركزون عند النواصى ، بين الحين والحين تمرق سيارة نقل تابعة للقوات المسلحة السورية ، تحمل صناديق الذخيرة الرمادية اللون ، أو عددا من المقاتلين . لمح قائد اللواء جنديا سوريا برتبة عريف ، اقترب منه ، سأل :

ـ أين مبنى الاركان العامة ؟

أبدى الجندى دهشة ، لم يدر القائد العراقى سببها :

ـ من أنت ؟

ـ أنا آمر لواء عراقى آلى ، اريد أن أذهب الى مبنى الاركان العامة .

قال العريف السورى :

ـ كيف تختارنى أنا لتسألنى مباشرة ، اننى المرافق الخاص للواء طلاس ، أية صدفة ؟

اتجه العريف الى احدى المناطق ، دخلا الى عدة دهاليز مبطنة بالاسمنت تحت الأرض ، وبين الحين والحين يتوقفون لمراجعة الاوراق ، بينما يروح رجال القوات المسلحة ويجيئون جاء ضابط سورى برتبة عقيد ، رحب بقائد اللواء العراقى ، قال :

ـ قبلك وصل اللواء مدرع ١٢ (لواء خالد بن الوليد) ، تفضل ، سلم على القيادة .

مرة اخري سلك عدة دهاليز ، راى عددا آخر من الضباط ، فجأة وجد نفسه فى غرفة فسيحة ، راى الفريق حافظ اسد بنفسه ، ادى التحية العسكرية ، صافحه ، الى جواره وقف اللواء مصطفى طلاس ، واللواء الدرديرى ، وبعض كبار القادة السوريين . من الواضح أن الموقف يمر بفترة عصيبة بمركز العمليات ، وراح أحد الضباط يصدر أمرا بالتليفون .

« خلى القوة الجوية توقف الرتل » .

قال أحد الضباط مخاطبا الفريق حافظ أسد :

لقد جاء ومعه لواء مش ميكا .. (مشاة ميكانيكية) .

هز الفريق حافظ أسد رأسه :

ـ عظيم لواء مش ميكا .. عظيم جداً .
ثم وجه كلامه الى قائد اللواء العراقي :
انت تعرف أن الحرب كر وفر ، حدث عندنا اختراق بسـيط ، ان وصولكم الآن سوف يبدل الموقف ، هل وصلتم بهذه السرعة علي الجنزير ، أعلم انكم جئتم علي الجنزير ..
أجاب قائد اللواء الثامن مشاة آلى :
ـ سيدى ، ستصل تشكيلات أخرى قادمة من زاخو ، من السليمانية ، ومناطق الحدود الايرانية .
لم يستغرق الحوار وقتا طويلا ، كانت الصيحات تعلو فى التليفون ، اشار أحد كبار القادة الى الخريطة ، لم يكن لدى قائد اللواء خريطة للجبهة ، كان الموضع المشار اليه قرية « قيطة » ، قال القائد السورى : أمامك لواء سورى ، ستحتل هنا ، عاد القائد العراقى الى شوارع دمشق ، أمام النادى العسكرى لمح سيارة قائد الفرقة العراقية ، طلع الى النادى ، كان لقاء حارا ، مضى بعده قائد اللواء الى معسكرات الجلاء بدأ الحركة فى اتجاه دير العدس لم يصحبه ضابط ارتباط سورى ، لهذا راح يتوقف بين الحـين والحين ليسأل أفراد الجرش السورى الشعبى .
ـ ين دير العدس ؟
فيشـيرون الى الاتجـاه ، وعلى الطريق تناثرت دبابات محترقة ، وعربات ، وعجلات ، كان القصف المدفعى الاسرائيلى قريبا ، استطاع تمييز القصف المدفعى السورى من القصف المعادى ، تقـدم الى الامام بصـحبة ضابط عراقى كردى الاصل ، كانا عند مفرق ترابى يبْعد عن دمشق حوالى ٢٥ كيلو مترا ، بدءا استطلاع الأرض والمواقع ، تساءل الضابط المرافق :
ـ أين اللواء السورى ؟ هذا قصف عنيف يا سيدى ، المفروض ان هنالك لواء سوريا امامنا .. لكن ..
بدت الحيرة على قائد اللواء الثامن ، قال الضابط :
سيدى ، اللواء الثامن برقبتك .
امر القائد بتوقف الكتيبة التى تقدمت ، كانت ملامح الموقف العصيب الذى تمر به الجبهة السورية قد تجسدت تماما ، عاد الى مقر قيادة اللواء ، حاولا الاتصال بالقائد العراقى فى دمشق ، لكنه كان يتفقد القوات العراقية فى غباغب ، قرر قائد اللواء الثامن أن يتصرف ، أمر الرجال بالانتشار يمينا ويسارا بمركباتهم المدرعة ، تقدم برفقة حرسه الخاص فى اتجاه الصنمين ، رأى أحد الضباط السوريين يحمل مدفعا ، آر .بى.جى ـ مضاد للدبابات
ـ اين مقر اللواء الموجود هنا ؟
اشار الضابط السورى الى قرية (قيطة) ، فى قيطة التقى بقائد اللواء السورى ، كان مرهقا ، عيناه حمراوان ، لحيته طويلة ؛ التأثر باد عليه قال قائد اللواء الثامن :
ـ العراق صـار معكم .
لثم قائد اللواء السورى شارب زميله العراقى :
ـ الموقف عصيب .. اللواء دمر ، لم يبقَ منه الا دبابتان .

ــ اللواء السادس المدرع فى الطريق والباقى يجىء من كل مكان فى العراق .

من مقر قيادة اللواء السورى بقيطة ، اتصل قائد اللواء الثامن بأحد آمرى الكتائب ، امره بالدخول الى المنطقة التى تقع بين قيطه ، والصنمين ، اثناء دخول الكتيبة ، اغارت عليها اربع طائرات من طراز ميســـتر ، بدا القصف ، فتح الجنود العراقيون النار ، هللوا ــ الله اكبر ــ وكانت هذه أول مرة يطلقون فيها النار منذ وصول اللواء ، فى نفس الوقت جرت محاولة اختراق اسرائيلية ، فى دير العدس أصدر قائد اللواء اوامره بمنع اختراق الجبهة بأى ثمن ، تحركت كتيبة دبابات من قيطة باتجاه كفر شـمس . اشتبكت مع الدروع الاسرائيلية ، دمر عددا من الدبابات الاسرائيلية، أشتعلت خمس دبابات عراقية ، فى قرية قيطة التقى عدد من ضباط اللواء الثامن مشاة آلى ، بعدد من ضباط لواء خالد بن الوليد ، شرح قائد لواء خالد بن الوليد تفاصيل المعركة الاخيرة التى تمت باتجاه كفر شمس . اثناء حديثهما وصل جنديان الى مبنى المدرسة التى تم فيها اللقاء يحملان أحد زملائهما المصاب بحرق ، تجمع بعض القاتلين حوله ، انصرفوا الى موقعهـم ، عاد ضابط اللواء الثامن الى وحـداتهم ، اختلفت حالتهم النفسـية .الآن فى الطريق بذلوا أقصى ما فى وسعهم ليلحقوا الحرب قبـل ان تنتهى ، الآن تتبدل واجباتهم القتالية ، أصبح من المهم الا يحدث اى خرق اسرائيلى هنا أو هنـاك ، هكذا الحرب تتغير فيهـا الظروف بسرعة ، والاوضـاع التى تستمر سنوات تتبدل فى لحظات ، ويلعب عنصر المفاجاة دوره ، وتمضى الأمور ، ليس كما يقدر أو يتمنى الانسان ، تتبدل ، تتغير ، وعليه مقاومة تغيرها ومحاولة توجيهها كما يريد ، تبدو المواقف الصغيرة لحظات حدوثها وكأن كل شيء أصبح متعلقا بها . ان الواجب القتالي المحدود الذى قد يبدو ضئيلا بعد مرور زمن على القتال يكون وقت حدوثه مصير الحرب كلها ، فى ليلة ١٣ اكتوبر وصلت الكتيبة الثالثة الأولى فى جدبة وقيطة ، أما الكتيبة الثانية فأنضمت الى لواء خالد بن الوليد ، صـباح ١٣ اكتوبر بدأ توزيع وحدات اللواء اكثر وضوحا ، اذ تم تمركزه على القطاع الممتد من تل شمس الى قرية المسطاح ، وكان القاتلون السوريون قد وفروا لزملائهم العراقيين خرائط واضحة للمنطقة ، بحيث اصبح قادة الواحدات على معرفة بطبيعة الأرض التى يحاربون فوقها ، اعتبـاراً من السبت ١٣ اكتوبر ، بدأ العدو يمركز هجماته ضد جدبة وقيطة ، كان يحاول قصف الوحدات العراقية ، وبعض قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، المنتشرة فى المنطقة ، كان العدو يحاول الوصول الى جدبه ، وقيطة ، ثم قطع طريق درعا ــ دمشق ، فى منطقة الصنمين ، تركزت وحدات اللواء على امتداد حوالى ٢٥ كيلو مترا من تل المال الى الصنمين ، وتعتبر هذه المساحة اكبر من طاقة اللواء وخاصة أن احدى كتائبه ملتحقة بلواء خالد بن الوليد ، وعندما وصل اللواء المدرع السادس الى الجبهة التحقت الكتيبة الثانية باللواء مرة اخرى ، ومنذ يوم ١٣ أكتوبر وحتى وقف اطلاق النار وجه العدو هجمات مركزة وعنيفة ضد هذا القاطع الذى احتله اللواء الثامن مشاة ميكانيكى لعراقى ، الواقع بين

تل المال وحتى لصنمين ، لم ينفذ جندى اسرائيلى واحد ، لم تنجح دبابة معادية في تحقيق اى اختراق ، لأية مسافة ، وخلال تلك المعارك أبدى المقاتلون العراقيون على المستوى الجماعي والفر ى ، بطولات رائعة .

●●●

• ، ويمضى الطريق بنا الى كركوك ، نمر بالقرب من بلدة « بيات » التى تسكنها عشائر « بيات » العربية ، من وقت الى آخر يظهر راع صغير يقود عشرات الأغنام وأذكر قطعان الماشية التى كانت تجرى وتتفرق فى خطوط منتظمة ودائرية لحظة مرور الهيلوكبتر على ارتفاع منخفض فوق جبال حمرين ، والمناطق القريبة من دربندى خان ، الى الشرق تقع بلدة كفرى ، احدى المدن الصغيرة ، المشهورة فى الشمال ، تقع على السفح الغربى لقمة جبل (بامه شاسوار) سميت كفرى بسبب وجود شجرة الكفر التى يستعملها الناس حطبا للوقود ، كانت كفرى فى قديم الزمان تقع فوق تل يشرف على سهل واسع في المكان المسمى حاليا باسكى كفرى أو كفرى القديمة ، ويمر من بين أطلالها خط بغداد ــ كركوك الحديدى ، كان للمدينة القديمة أسوار مرتفعة وأربعة أبواب : باب السليمانية ، وباب كركو ، وباب بغداد ، وباب دوانزه امام ، او الائمة الاثنا عشر ، وهم اثنا عشر مسلما إستشهدوا فى فى معركة جرت بين الجيش الاسلامى بقيادة عقبة بن فرقد والجيش الفارسى فى السهول المحيطة بكفرى سنة ٢١ هجرية ، فى كفرى ، أيضا ، نشبت ثورة ضد الانجليز سنة ١٩٢٠ ، كانت مواكبة للثورة التى انطلقت من الفرات الاوسط ، فى تلك الثورة ، سال الدم العربى والكردى معا .

(كان الاكراد يتبارون مع أخوانهم العرب فى الشعيبة ، الا انه كان ينقصهم جميعا كل عدد القتال الحديثة ، فى الوقت الذى كان الانجليز يمطرونهم فيه بحمم المدافع ، كان العرب والاكراد يقاتلون ببنادقهم القديمة ، وعتادهم القليل ، والاكراد لم يألفوا القتال فى المناطق الصحراوية والشمس المحرقة ، ولئن لم تتمكن الشجاعة ضد قنابل المدافع الثقيلة آنئذ ، فان الكفاح الموحد هذا قد رسخ أسس النضال المشترك والتآخى فى السلاح بين العرب والاكراد أتاح لهم فيما بعد . توجيه ضربات أخرى الى الغاصب المحتل ، الا أن رمال الشعيبة ضمت رفات العديد من الفرسان الاكراد ، وعليها سال الدم العربى والكردى ، فلا يزال المسنون العرب ، يذكرون بطولات الاكراد فى الشعيبة ، وفى الدواوين والمجالس الكردية يتحدثون باعجاب عن بسالة فرسان العرب وكرم الضيافة عندهم (١) ..

ويتوالى ظهور الرعاة ، فى هذه المنطقة القريبة من كركوك قبائل عربية منذ قرون عديدة ، عشائر الجبور واللهيب والكروى ، وعشائر بيات ، والعبير والجحيس ، والبوحمدان ، والنعيم ، والكروية ، وحرب ، وبنوزيد ، والعزه والسعيدات ، والصارع ، والاكراد ، والتركمان .

كركوك ٤٠ كيلو مترا .

---

(١) ابراهيم خان ــ تأليف مكرم الطالبانى ص٥١

اذن سنصل بعد نصف ساعة ، يثير الاسم احساسا بالتاريخ ، لماذا ؟ لا أدرى ، ربما لاننى قرأت الاسم كثيرا خلال كتب الرحالة ، وبعد لحظات أتجول فى شوارع البلدة ، أرى المكان والناس ، اللقاء الأول بالمدن فيه بكارة الاكتشاف ، متعة المعرفة ، يذكر الاسم ايضا بأحد المحاور الرئيسية التى دارت حولها مناورات القيادة الرجعية فى الحركة الكردية ، منذ اعلان بيان أذار ١٩٧٠ ، وحتى بدء تنفيذ قانون الحكم الذاتى ١٩٧٤ ، احتلت كركوك واجهة بارزة فى المحادثات والمناقشات والرسائل التى تم تبادلها فى الحوار الذى استغرق أربع سنوات ، كانت القيادة الرجعية تعارض الحكم الذاتى ، وتقدم المطالب التعجيزية ، وغير الموضوعية ، طلبوا ضم كركوك الى منطقة الحكم الذاتى ، ان تخصص كل عائدات النفط للاستثمار فى كردستان ، متجاهلين الوجود التاريخى القديم للعشائر العربية ، والتركمان الذين يسكنون كركوك ، اما المطالب التى تخص البترول ، فانها تقترب من موضوع التحدى ، كركوك تعنى البترول ، والبترول هو محور التحدى الثورة العراقية للاستعمار عندما قررت تأميمه ، فى عمل ثورى ونموذجى لا يمكن ان تقدم عليه أمة نامية للاستفادة من ثرواتها القومية ، كان المنفذ التقليدى هو القضية الكردية ، كما قال أحد الاصدقاء ان الاستعمار يمسك بشجرة الملا ، كلما أراد اسقاط حكومة فى العراق يهزها قليلا ، نص بيان آذار ١٩٧٠ على اجراء احصاء شامل لتحديد المناطق التى تسكنها اكثرية كردية وضمها الى منطقة الحكم الذاتى ، بشكل مبدئى تقرر اعتبار احصاء عام ١٩٥٧ هو المرجع ، وكان ممثلو الحزب الديمقراطى الكردستانى قد رفضوا الاستناد الى احصاء عام ١٩٦٥ الذى تم تحت حكم عبد السلام عارف ، لأنهم يعتقدون انه وجه توجيها عنصريا ، بعد اعلان البيان قال الملا مصطفى البرزانى ، انه ليس مستعدا للاعتراف بنتائج الاحصاء اذا كانت تشير الى أن المناطق التى يعتبرها هو كردية ليست وفقا للاحصاء قال بالحرف الواحد ، « ان كركوك جزء من كردستان ، واذا ظهر فى الاحصاء ان اكثرية السكان ليسوا من الاكراد ، فأنا لن أعترف بذلك »

لم تكن كركوك الا حجة فى أيديهم لاعاقة تنفيذ الحكم الذاتى ، ولكسب الوقت حتى تتم استعداداتهم العسكرية لشن حرب أهلية ، ان سرعة التنمية والتحولات الاجتماعية وتوطيد الجبهة الوطنية التقدمية ، كل هذا جعل الامبريالية والصهيونية تدفع الملا مصطفى البرزانى ، لتنفيذ دوره الرامى الى اشغال الثورة العراقية عن تحقيق التقدم وعن اداء مهامها القومية والتحررية ، ولتعطيل الجيش العراقى عن أداء دوره فى أى مواجهة مقبلة بين العرب والعدو الصهيونى .

●●●

فى مواجهة اللواء الثامن مشاة آلى ، أصيبت بعض الدبابات العراقية تقرر الخروج لاستعادة الشهداء ، كانت الدبابات فى مواقع متقدمة ، تتداخل مع الخطوط المعادية ، تطوع للخروج سبعة مقاتلين على رأسهم ملازم ، خرجوا مع بداية الليل ، يعلمون ان الموقف وعر ، ربما أصيبوا ، عندئذ يحتاجون لمن يخرج اليهم كى يعود بهم ، ان الاصرار على استعادة جثة

شهيد ، أمر له مغزاه فى الحرب ، لجثمان الانسان الذى ضحى قدسية ، يترك هـذا فى نفوس المحـاربين الاحياء ، يقينا غامضـا بأنهم لن يتركوا لو جرحوا حتى لو أستشـهدوا ، سيصر زملاؤهم على اسـتعادتهم ، لن يصبحوا هياكل عظمية ملقاه بلا مدافن ، ان تتاح الفرصة للعدو كى يمثل بهم . مع ان الموتى لا يشعرون بالم ، يصبح الجسد الانسانى الميت رمزا للحياة الراحلة نفسها ، واذا اطمأن الانسان بوعيه أو لا وعيه الى أن جسده لن يترك بعد موته فان هذا يمثـل عاملا من عوامل اقدامه وشـجاعته . اطمئنان غريب لدى المقاتل ينتابه ازاء هذا الاصرار من قائده وزمـلائه . مشاعر غامضة : بالتأكد ان المقاتلين السبعة لم يفكروا فى كل هذه البواعث النظرية التى نتأملها ، ونجردها بعد انتهاء الموقف والحدث ، ابرز ما كانوا يشعرون به : الاحترام الكامل لهؤلاء الشهداء الذين يرقدون داخل دباباتهم أو حولها . فتحوا الدبابات ، وجدوا بعض رفاقهم مصابين اصابات مباشرة ، اثناء عودتهم بزملائهم الشهداء اشتبكوا مع دورية اسرائيلية . بدأ قتـال عنيف : طوال اليوم دارت معارك عنيفة بين لواء خالـد بن الوليد واللواء السادس المدرع ، وكتيبة دبابات من اللواء الثامن وبين العدو . هاهى معركة تنشب فجأة : يقاتل الرجال ، يعو الملازم على رأس القوة التى خرج بها ليعطى تمام لقائد اللواء :

ــ عدت بالشهداء .. واستشهد من رجالى ثلاثة عدت بهم أيضا ، الملازم صقبان من أصغر الضباط سنا فى اللواء ؛ عمره بالتحديد عشرون سنة : حاكم الوجه ، به آثار ذلك الشحوب الذى يبدو فى سنى المراهقة الاخيرة ، والذى يعكس احلاما خاصة تدور حول الحب ، وحنين غامض ، ورغبة فى الرحيل الى بلاده بعيدة ، كانت لدى صقبان احلامه الخاصـة ايضا التى لم ولن يعرف احد شيئا عنها ، وكان قادة التشكيل يراعونه دائما فى التمارين . ربما لأنه أصغر سنا ، ربما لأن صورته تذكرهم ببداية حياتهم العسكرية . وما أعمق الاثر الذى يحدث فى نفس أن يتطلع الانسان الى آخر فيذكره بسنى حياته البعيدة .

كان قائد وحدته يسأل فى التدريبات :

ــ من أحدث ضابط ؟

ويرفع صبقان يده .

ــ هل تستطيع ان تفعل كذا ، وكذا ..

فى مواعيد تناول الطعام ، كان مقعده دائما فى نهاية المـائدة ، يوم الجمعة ١٦ اكتوبر ، جاءوا الى مقر القيادة اللواء .

ــ الملازم صقبان أستشهد سيدى ..

بدا القائد متأثرا ، فى الحرب يندر ظهور التأثر على الانسان خاصة لحظات الاشتباك ، بقدر ما يخوض الانسـان النيران بذاته ، بنفس القدر يتجرد عن هذه الذات ، لكن استعادة لحظات الموت ، وخسارة الرفاق أشد مما يؤلم ، لاتبرز المشاعر الحزينة على الوجوه ، الا اذا ناءت النفس بحملها، هكذا حزن القائد ، قال الضابط الشاب الذى جاء يبلغ الخبر :

ـ سيدى لكم نتمنى ان نستشهد مثل صقبان ، استشهد فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهر الجمعة .. ليتنى استشهد مكانه .

هكذا يحاول الانسان تخفيف الاثر ، أيختلف الأمر لو استشهد فى ساعة تسبق الثانية عشرة أو تليها ؟لكنه العقل البشرى يحاول تخفيف الموقف، والخسارة . فى شمال العراق ، كان بعض الضابط يحاربون فى الجبل ، معظمهم شبان ، يصغون الى الأخبار التى تتردد فى الحرب ،فلان استشهد، فلان أصيب ، لحظة سماع الخبر لا تؤلم ، لكن عندما يجىء وقت الطعام ، يجدون مكانا معينا قد خلا . يتحرك الشجن الانسانى كأوعر ما يكون ، لحظة استلام المرتبات ، ينظرون فى الكشوف ، يجدون خطا أحمر أمام بعض الأسماء ، خط أحمر يلغى كل الشهور التالية ، والسنين ، والأيام ، والآمال ، يلخص المعنى القاسى ، ان انسان عشنا معه ،ربطتهبناذكريات ومواقف عديدة ، هذا الانسان رحل الى الأبد ، ابدى قائد اللواء تأثرا ، فى نفس اليوم كان ضابط التوجيه السياسى قد أصر على الاشتراك فى دورية قتال كانت متوجهة للاغارة على بعض المدرعات الاسرائيلية . قالوا له أن واجبك لا يدخل ضمن نطاق القتال ، أصر ، مضى ، حارب واستشهد ، فقد لفترة من الوقت ، عندما عاد المقاتلون بجثث زملائهم ، كانت بينهم جثة بدون رأس ، مصابة بضربة مباشرة فى البطن ، كان يرتدى الزى العسكرى العراقى ، وكانت السترة الخارجية ذات شكل مختلف ، وقف أحد الجنود وكان يعمل أصلا حائكا للثياب ، صاح :

« هذا ملازم عصام حسن من الحلة » ..

جثا على ركبتيه .

« انا الذى خيطت له البدلة ، اراد الياقة بهذا الشكل » .

ظل يرد :

« انا الذى خيطت له الياقة هكذا .. »

وبكى .

●●●

ركز الاسرائيليون القصف على مواقع اللواء الأماكن التى يرابط فيها المشاة بصورة خاصة ، يستخدمون القذائف شديدة الانفجار ، ويركض أحد الجنود ، تصيبه شظية ساخنة حادة ، كأنه ذبح بخنجر ، استمر اندفاع الجسد لحظات ، ثم .. لحظات ثم هوى مبللا التراب بالدم ، هل للموت قانون فى الحرب ؟ أم ان عمر الانسان يخضع لقانون الصدفة ، يتجاور اثنان ، تجىء شظية ، تصيب أحدهما دون الآخر ، اذا تحدثنا بلغة العلم قلنا ان الموت يخضع لقانون الصدفة فى الحرب ، الانسان البسيط يقول بلا تعقيد « الاعمار بيد الله » واذا جاءت اصابة مباشرة لجندى يقول زملاؤه ، « كان اسمه مكتوب على الشظية » ، من اغرب الاحاديث التى سمعتها وقت الحرب ما دار بين عدد من المقاتلين حول الطرق المختلفة المؤدية الى الموت . بالقصف المدفعى المباشر ، الموت كنتيجة لتفريغ الهواء ، الموت بالشظايا ، الموت بالسلاح الأبيض ، لكن الآراء اتفقت حول الطريقة التى لا يعانى منها الانسان

قط : وهى اصابته المباشرة بقنبلة زنة ألف رطل . عبوة رهيبة لاتبقى أثرا اذا جاءت فى الصميم ، غير أن الانســان لحظات القتال لا يرى الموت . أبعد شيء عن ذهنه وقتئذ التفكير في الموت ، لحظات التعرض للقصف المباشر آخر ما يفكر فيه الانسان الموت ، ربما يتوقع اســتشهاد زميله ، وا آخر بجواره ، لكن فى حدود ذاته هو لا يتوقع الموت ، قد يخاف بعد انتهاء الخطر عندما يستعيد ما جرى بينه وبين نفسه ، لكن لحظه الاشتباك نفسها يحدث انفصال بين الانسان والواقع . فى القتال تسمع المحاربين يصرخون. صرخات عاليه ، وحشية البدائية لكن هذه الصرخات تعم أذنى المقاتل نفسه عن سماع الهول حوله بقدر ما تلقى الرعب فى نوس أعدائه ، صرخات تحجب نفسه عن نفسه ، تحدث من الانفصال المؤقت بين المقاتل والواقع المحيط به بكل ما يحويه من احتمالات الخطر ، وابعاد مفزعة ، ان مواجهة الموت مرة تشجع على مقابلته مرات تالية ، حدث أن تعرضت خلال عملى كراسل حربى الى مواقف كثيرة كان خطر الموت خلالها وشيكا ، فى احدى الغارات الجوية أثناء حرب الاستنزاف ، عام ١٩٧٠ على الجبهة المصرية ، كنا نستقل سيارة جيب على الطريق المحاذى لقناة السويس، فجأة رأينا جنديا يسرع ليختبىء تحت شجرة قصيرة ، قبل اختفائه اشار بيده الى أعلى ، يعنى ان هناك طيران ، وصوت الطيران لا يســمعه من يركب ســيارة بسهولة ، نزلنا ، انبطحنا ، انفجرت قنبلة زنة ٥٠٠ رطل على بعد قليل منا ، كانت تستهدف أحد الكبارى ان وعيى كان حادا جدا ، يلتقط أدق التفاصيل . أعى حتى الآن درجة اللون الأخضر للحشائش القصيرة القريبة من الترعة التى انبطحنا بجانب ضــفتها ، لون المبنى الرمادى المواجه ، الحفر الدائرية فى أسفلت الطريق ، مياه الترعة الراكدة ، حشائش صفراء أشبه بالشوك ، سماء حادة صافية لا تخفى جسم الطائرة الذى بدا نقطة بيضاء تميل فى خط منحن لتلقى حمولتها من الهلاك ، وتصعد من جديد ، فى السماء استعدت الموقف ورحت أتخيل ماذا كان سيصير اليه حال جثمانى ، أصداء موتى عند الأهل والأصدقاء ، فى الأيام التالية كنت أمضى الى مواقع وســط الانفجارات لا أثر عندى لخوف أو تر د ، يحكمنى شعور غريب ، ألم يكن من المفروض ان أموت يوم الأحد الماضى الساعة الواحدة والنصف ؟ اذن فالوقت الذى عشته خلال اليومين التاليين ليوم الأحد يعد أكثر مما يجب ، انه الوقت الضـــائع ، لايهـــم الموت اذن ، وحتى الآن كلما استعدت هــذا الموقف أو ما يشـابهه ، أرى نفسى بعينين محايدتين ، أو بذاكرة أخرى تعى موتى ، أرى نفسى تائها فى الزمن ، ان البشرية فى استمرارها تطمس ملامح الاعماق الصغيرة ، وكلما ذهبت الى جبهة القتال ، لا يعنينى كيف سارت المعركة أو تطورت ، بقدر ما يؤرقنى ، تصور الآلام التى عاناها جندى لا أعرفه ، لحظة استشهاده ، أو الصور الأخــيرة التى تداعت فى ذهنه المحتضر ، وعندما أسمع الأرقام الصماء تعلق (وخسرنا أربعة شهداء ..) اتساءل عن حياة كل منهم ، ان موت انسان يعنى نهاية عالم قائم بذاته ، كما ان الخطر يشمل الجميع ، ويجعل للمشاعر أحاسيس موحدة ، فى احد المواقف تقدم قائد عراقى كبير الى أقصى المواقع الأمامية ، تحدث الى الجنود والضباط .

فوجيء ، بهجوم من ثماني دبابات اسرائيلية ، كانت الدبابات العراقية في مكان آخر .

ــ ما هو الحل يا سيدي ؟

ويجيب القائد :

ــ لن ينسحب أحد ، أما ان نخرج ، أو نستشهد ، أو نبقى أحياء .

وبقدر ما أحس الجنود بالقلق لوجوده معهم خوفا عليه ، بقدر ما أحسوا بدفعة معنوية عالية ، جعلتهم ــ وهم المشاة ــ يتصدون للدبابات، يدمرون منها ، يردون الهجوم ، نفس القائد يقول :

((أنا شخصيا زارني كبار المسئولين العراقيين سألوني عن احتياجاتي العامة والشخصية ، ذهبوا معي الى المستشفيات، تحدثوا الى الجرحى والجنود الذين أدوا أعمالا بطولية اهتمت بهم أعلى المستويات القيادية في العراق ، بعضهم رقي الى رتبة ضابط))

وأسـألـه :

ــ هل تذكر لنا نموذجا معينا ؟

ــ نعم .. هناك الملازم عارف علي حسين ، كان ضابط صف خلال الحرب ، ضرب بالمدفعية المضادة للدبابات دبابتين اسرائيليتين ، انه الآن بأحد المواقع العسكرية القريبة من الموصل ..

وأدون الأسم ، ملازم عارف علي حسين ، لعلنا نلقاه .

موقف آخر .. أصيب ضابط عراقي برتبة كبيرة ، استقرت شظية في ذراعه ، نزفت دماؤه بغزارة ، نقل الى المستشفى الميداني المتقدم ، أسرع جنوده يتطوعون بدمائهم من أجل انقاذه ، لولا دماؤهم لما استمرت حياته ، ويقول هذا الضابط منفعلا :

ــ انني أحمل دماء جنودي في عروقي ، أعيش به .

كان الضباط في التشكيلات العراقية يتقدمون من جنودهم ، أحد ملامح الشجاعة العربية التي برزت خلال حرب تشرين ، على جبهة القتال كان الضباط المصريون يتقدمون جنودهم صائحين (اتبعونا) ، نفس الصيحة أطلقها الضباط العراقيون والسوريون أثناء هجومهم على العدو ، هناك لحظات أيضا خلال القتال يستمد فيها القائد معنوياته من جنوده ، التأثير متبادل ومتصل ، أثناء المعركة في الجولان استشهد بعض قادة الوحدات ، بسرعة كان يتقدم مقاتل ويتسلم القيادة ، وفي مواقف أخرى قاتل الرجال قتالا مريرا للعودة بجثث الشهداء من الضباط والجنود .

((كركوك)) .

أخيرا ، لم نقرأ لافتة ، لكن ظهرت شعلة برتقالية ، نار صريحة واضحة، لايسبقها دخان ، نار قريبة من الطريق ، نار ثرية المصدر فهي مستمرة أبدا ، كالبقع البرتقالية على ضوء النهار الأزرق الصافي ، ينحني الطريق عدة مرات، أخيرا تبدو المدينة ، في السهل خارجها خطوط نارية تتصاعد نحو السماء ، انها الغازات الطبيعية المشتعلة ، انها حقول البترول .

يتأكد الأحساس بظلال التاريخ عند الولوج الى طرقات المدينة . فوق تل كبير مستطيل بعض مواضعه مغطى بحشائش غميقة الخضرة ، تقبع كركوك القديمة ، يرتفع التل عما يجاوره حوالى ٢٢٠ قدما ، بعض سقوف المنازل من طين يحوى خصوبة ، مع الزمن نبتت فيه تلك الحشائش الخضراء التى تشبه الطحالب ، بقية المدينة تحت التل على ضفتى مجرى واسع رأيناه غير ممتلىء بالماء تماما ، انه مجرى (خاسه جاى) ، يقسم المدينة الى نصفين، يفصل بين عصرين ، الى الشرق كركوك القديمة فوق التل ، يقول التاريخ ان الذى أنشأها الملك (سردبنال) أحد ملوك الاشوريين ، ولما انتقل حكم العراق الى الاسكندر الأكبر ، أصبحت ضمن اجزاء مملكته ، بعد وفاته وتقسيم ملكه بين قواده الثلاثة (بطليموس وسلوقس وآنطيفونس) ٠ كانت كركوك من نصيب سلوقس ، هدم مبانيها القديمة ، أقام مبان جديدة أحاطها بسور فوقه ٦٥ برجا ، بابان كبيران ، سمى الشمالى منها (باب طوطى) ودعى الآخر (باب الملك) وكان (طوطى) هذا حاكما عليها جاء بقبائل كثيرة أسكنها حول السور الذى أقامه ، وصارت تدعى (كرخ سلوك)وهى تطوير للكلمة الآرامية (كرخادبيت سلوك) أى مدينة سلوقس ، ثم انتقلت الى الفرثيين عام ٢٢٦ ق٠م بكركوك وبقيت سيطرة الفرس حتى حرر العرب العراق ، ذكرها المؤرخون العرب والرحالة ، أمثال أبن عبد الحق (المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ــ ١٣٣٨ م) فى كتابه (مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع) ذكرها أيضا ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٢٨ م) ذكرها في معجمية ٠ تلك هى كركوك القديمة القابعة فوق التل ، أما المبانى الحديثة المنشرة فى السهل ، ممعظمها شيد بعد تدفق النفط بكميات كبيرة من جوف الأرض ، اعتبارا من نوفمبر ١٩٢٧ ، نرى فى السهل بعض المنازل مبنية من الجبس والحجارة غير المنتظمة ، الفضاء هنا منطلق صريح ، كانت كركوك مركزا أداريا هاما أيام الدولة العثمانية، والآن تعتبر من أهم المواقع الاقتصادية بالعراق ، حيث توجد بها منشآت شركة النفط العراقية الوطنية ، عبرنا شاورع المدينة التى يميل بعضها ، ويرتفع البعض الآخر ، مما يدل على عدم استواء الأرض ، بعد عام ١٩٦٨ ، انجزت الثورة العراقية خطوات عميقة ، أبرزها تأميم البترول ، التى تمثل تحديا للقوى الامبريالية العالمية بدأ الاستعمار يحاول الاستفادة من القضية الكردية ، كان الاستعمار يسعى طول السنوات الماضية لخلق الفرقة وبث الشكوك ، والعمل على عرقلة أى جهد حتى لا يعيد الاطمئنان والثقة بين العرب والاكراد ٠ يريدون فتح هذا الجرح فى جسد العراق وابقاءه فى حالة نزيف مستمرة ، ونلاحظ ان الاستعمار كانت له سياسة ثابتة وان تغيرت ملامحها فى الفترات التاريخية المختلفة بالنسبة للمشكلة الكردية ، تهدف الى أضعاف العراق وابقائه مثخنا بالجراح ، وذلك منذ العشرينات عندما قامت بريطانيا بمساندة الشيخ محمود وتنصيبه ملكا على الاكراد فى السليمانية، وذلك بهدف ارهاب العناصر الوطنية التى برزت خلال ثورة العشرين ، وحتى السنوات الأخيرة ، عندما قامت الدول الرجعية المحيطة والتى تقهر أى حركة للاكراد داخل أراضيها بمساندة حركاتهم داخل العراق ، ومتد

عام ١٩٦٨ ، اتسم تعامل الثورة العراقية مع القضية الكردية بالنضج ، وتضمن بعدا آخر ، ولأول مرة تحتك القومية العربية بقومية أخرى تتعايش معها في بلد واحد ، وأرض واحدة . مر هذا الاحتكاك بظروف متعددة ، ابرزها التحالف العربى الكردى فى مواجهة الاستعمار ، وتحالف القوى الوطنية العربية ـ الكردية ، ضد أنظمة الحكم الرجعية فى العراق والفردية ، وبعد عام ١٩٦٨ ، بدا أن ثورة العراق حريصة على الطابع الانسانى لحركتها مع القضية الكردية ، مما يبرز البعد الانسانى للقومية العربية ، أثناء تعاملها مع قومية مختلفة ، وهذه الظروف انفرد بها العراق بين كل الاقطار العربية نتيجة لظروف التاريخية ، ويبرز بيان الحادى عشر من (مارس) عام ١٩٧٠ الاطار النظرى لهذا الطابع الانسانى ، ويتضمن ـ برغم اعتباره بيانا سياسيا ـ عددا من الخطوات الهامة التى تعكس الواقع العملى لهذه النظرة ، كابراز التراث الثقافى الكردى وانشاء جامعة كردية بالسليمانية ، ومجمع علمي كردى ، وتدريس اللغة الكردية فى المدارس ، وتعميم المؤلفات الكردية ، وأقامة اتحاد للادباء الاكراد ، واعتبار عيد الدورز عيدا وطنيا فى الجمهورية العراقية ، واصدار عفو شامل عن المدنيين والعسكريين الذين اشتركوا فى أعمال العنف بالشمال واعادة الطلبة الذين فصلوا أو اضطروا الى ترك الدراسة بسبب ظروف القتال فى المناطق الشمالية الى مدارسهم بغض النظر عن أعمارهم ، أو ايجاد علاج ملائم لمشكلاتهم ، واعادة العمال والموظفين والمستخدمين من المدنيين والعسكريين الى الخدمة وتخصيص رواتب تقاعدية لعائلات الذين استشهدوا فى ظروف القتال المؤسفة من رجال الحركة الكردية المسلحة ، وللعجزة والمشوهين ، والعمل السريع لاغاثة المتضررين والمعوزين عن طريق انجاز مشاريع سكنية وغيرها تؤمن العمل للعاطلين ، وتقديم معونات عينية مناسبة واعطاء تعويض معقول للمتضررين الذين يحتاجون المساعدة ، واعادة سكان القرى العربية والكردية الى أماكنهم السابقة ، والاسراع بتطبيق قانون الاصلاح الزراعى فى المنطقة الكردية وتعديله بشكل يضمن تصفية العلاقات الاقطاعية وحصول جميع الفلاحين على قطع مناسبة من الأرض ، واعفائهم من الضرائب الزراعية المتراكمة عليهم خلال سنى القتال المؤسفة.

ان الحكم الذاتى للاكراد الذى أعلنته ثورة العراق فى بيان مارس ١٩٧٠ ، يجب أن يفهم اطار موقعه من تاريخ النضال الكردى .

لقد كانت الحركة الوطنية الكردية التقدمية ، تعتبر (الحكم الذاتى) مطلبا أساسيا طوال تاريخها ، ومحور كفاحها . وفى بعض الفترات كانت تطالب بالاستقلال الادارى ، ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت الحركة التحريرية الكردية قد وضعت جانبا شعار دولة كردية مستقلة منفصلة عن العراق ، وحملت بديلا عنه شعار الحكم الذاتى للشعب الكردى ، وطالبت الاحزاب التقدمية العراقية طوال تاريخها بالحكم الذاتى للاكراد .

وجاء فى التقرير السياسى للمؤتمر القطرى الثامن لحزب البعث العربى الاشتراكى :

● ● ●

● ان الحركة القومية الكردية في العراق برغم بعض الملابسات التاريخية التي رافقتها وما تحتويه من شوائب واتجاهات انعزالية رجعية بعضها على صلات مفضوحة بالدوائر الاستعمارية والرجعية • فهي من حيث الجوهر والأساس حركة قومية تمتلك في حدود مطالبتها بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي في اطار لجمهورية العراقية وعلى رأسها الحكم الذاتي • مبررات مبدئية وواقعية ، وانها في هذا الاطار ، جزء أساسي من الحركة الوطنية في القطر العراقي •

● ان حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي انساني واشتراكي وديمقراطي العقيدة لذلك فان من الطبيعي تماما أن يتفهم الحقوق المشروعة للجماهير الكردية ، وأن يناضل في سبيل تأمينها وضمانها ، ولما كان الحزب يقود السلطة الثورية في البلاد منذ ١٧/٣٠ تموز ١٩٦٨ ، فانه يتحمل المسئوولية الأساسية في ضمان هذه الحقوق في ضيع دستورية وقانونية واجرائية •

● ان المنهج الأساسي والثابت الذي يعتمده حزب البعث العربي الاشتراكي في الوصول الى تأمين هذه الحقوق وضمانها ، هو المنهج السلمي والديمقراطي عن طريق التعاون المخلص والايجابي مع القوى الخيرة الوطنية والتقدمية في صفوف الجماهير الكردية• وفي اطار العمل الوطني المشترك المتمثل بالجبهة الوطنيةوالقومية التقدمية •

ويمضي التقرير السياسي في عرضة للمشكلة التقدمية :

● ولتلك الاعتبارات سعى حزب البعث العربي الاشتراكي بكل الطرق المتاحة ومنذ ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، لحل المسألة الكردية التي كانت قد بلغت درجة كبيرة من التعقيد والتشابك بسبب التدخلات العديدة التي طرأت عليها وبخاصة التدخلال الأجنبية ، والدكتاتورية من الجماهير الكردية وتطلعاتها المشروعة ،واستمرار القتال سنوات طويلة ، وبسبب أوضاع الحركة الكردية ذاتها وعوامل عديدة أخرى • وفي الواقع كانت المسألة الكردية أكثر المعضلات التي واجهت حزب البعث العربي الاشتراكي والثورة خلال السنوات الماضية صعوبة وتعقيدا ، فقد كان عليه أن يبلور صيغة نظرية وعملية تنسجم مع طموحات جماهيرنا الكردية القومية ووحدة البلاد ، ووحدة حركتها الوطنية والتقدمية ولا تتعارض مع أهداف النضال العربي • وقد استطاع الحزب أن يجد الصيغة الصائبة والمتكاملة من النواحي النظرية والسياسية والعملية وان يسجدها في الوثيقة التاريخية العظيمة ـ بيان الحادي عشر من (آذار) سنة ١٩٧٠ ـ الذي يعد نقطة تحول تاريخية في نضال جماهيرنا الكردية وتطلعاتها القومية المشروعة ، وفي نضال شعبنا في القطر العراقي بأسرة من أجل بناء مجتمع ديمقراطي تقدمي مزدهر)) •

« غير أن مسيرة بيان الحادى عشر من آذار ، لم تجر بالشكل الذى كان يأمله حزب البعث العربى الاشتراكى ، فلقد ارتكبت فى ميدان التعامل مع الحزب الديمقراطى الكردستانى بعض الأخطاء من جانب أجهزة الحزب والسلطة ، ولعل فى مقدمة تلك الأخطاء تعدد الأجهزة والمراكز التى كانت تتعامل معها . وبدون تنسيق فى غالب الأحيان مع مختلف شئوون المسألة الكردية ، وقد أدى ذلك وخلال فترة طويلة الى فقدان السيطرة المركزية على الأحداث والتطورات والى الضياع فى المسئل والمشاكل الثانوية والتفصيلية على حساب القضايا الأساسية ، والتصورات المكزية » .

« وفى الجانب الآخر ، فان قيادة الحزب الديمقراطى الكردستانى لم تتصرف فى أغلب الأحيان مع منطلق الوحدة الوطنية والتحالف الصادق مع حزب البعث العربى الاشتراكى ، والذى كان يفترض انه نشأ بعد اعلان بيان آذار » .

« وخلال الفترة الماضية (١) لم تضعف العناصر والتيارات الرجعية والعميلة والمشبوهة والانفصالية النافذة فى قيادة الحزب الديمقراطى الكردستانى ، وبالدرجة التى كانت متوقعة قبل اعلان بيان آذار وبعده ، وقد ارتكبت هذه العناصر أعمالا تخريبية واسعة النطاق . وقامت بنشاطات اعلامية معادية للحزب والثورة على الداخل والخارج . وكانت خلال المرحلة الماضية ومازال مركز استقطاب لكل القوى المعادية للحزب والثورة من عرب وأكراد ، وتعاونت مع المتآمرين على الحزب والثورة ، ومنحتهم الحماية فى المناطق التى تسيطر عليها ، وهى ما تزال حتى اليوم تتعاون مع الدول الرجعية فى المنطقة والقوى الاستعمارية وبشكل مكشوف تماما ، لاضعاف الحزب والثورة ، بل للتآمر عليها . وان هذه التيارات والعناصر تشكل اليوم ، الاحتياطى الأول لقوى الاستعمار والردة داخل القطر العراقى » .

« وبعد أربع سنوات من النضال المثابر على طريق الحل السلمى والديمقراطى للمسألة الكردية ، لم تعد الاتجاهات السياسية والاقتصادية والنفسية العامة للجماهير الكردية كما كانت عليه قبل بيان الحادى عشر من آذار ، أن قطاعات واسعة من جماهيرنا الكردية تجد الآن من عناصر الأمن والاطمئنان فى حياتها ، أكثر مما كانت تجد فى أى وقت مضى ، كما تلمس بصورة مباشرة نتائج سياسة الثورة فى تلبية حقوقها المشروعة وفى تحسين مستوى حياتها فى سائر الميادين . وفى الوقت نفسه ، فأن استمرار حالة السلام خلال السنوات الأربع الماضية ، قد خلق ظروفا اقتصادية

---

(١) المقصود الفترة السابقة على كانون الثانى ١٩٧٤ ، والتى سبقت المعارك العسكرية فى الشمال .

جديدة فى المنطقة الشمالية ، وأصبح عدد المواطنين الاكرادالذين يرتبطون بالانتاج الزراعى والصناعى وبالفعاليات التجارية المتصلة هى الاخرى وبدرجات متفاوتة بالحياة الاقتصادية الوطنية للبلاد أكثر من ذى قبل ، كما أن استقرار النظام وتوطده ونجاحــه فى انجــاز الكثــير من المشــاريع الصــناعية والزراعيــة والاروائية والسياحية ومشاريع الخدمات فى المناطق الشمالية ، قد خلــق ظروفا موضوعية لصالح الســلام فى النهــاية ، وأصبحت مهمــة العناصر المحرضة على التمرد والتخريب أصعب من ذى قبل بكثير، بل أن محاولات هذه العناصر غالبا ما تصطدم بالمواقف السلبيةمن جانب جماهيرنا الكردية ، برغم ما تستخدمه من وسائل التحريض والأرهاب)) .

حرصت ثورة العراق على الأسلوب السلمى فى معالجة المشكلة ، لكن القوى الرجعية فى الحركة الكردية بدأت فى تأزيم المواقف ، وخلال السنوات الأربع الواقعة بين صدور بيان آذار ١٩٧٠ ، وقانون الحكم الذاتى فى آذار ١٩٧٤ ، تمت جهود دؤبة من ثورة العراق لتجنب الصراع المسلح، ولكن فى نفس الوقت ، كانت القوى الرجعية تقابل كل خطوة تقدمية تخطوها الثورة ، تقابل بزيادة المسافة التى تفصل بين القوى الرجعيةوالثورة. وفى سنة ١٩٧٢ ،بدا من الواضح أن الدول الأجنبية والرجعية ، قد بدأت تكثف مساعداتها القوى الرجعية ، وكما يتضح من تاريخ الحركة الوطنيــــة الكردية فان أبعد القــوى عن الحرص على مصـــــالح الشعب الكردى ، واعدى أعدائه القوى الاستعمارية، والرجعية المحلية والطبقات الاستقلالية .

ولهذا الموقف أسباب موضوعية عديدة ، منها الأهمية الاستراتيجية والتى تتركز فى منطقة الحكم الذاتى بالعراق حيث تعتبر الجبال الشاهقة حزاما طبيعيا يفصل الاتحاد السوفييتى عن الشرق الأوسط ، ومن الخطط العسكرية لحلف الناتو ، الاستيلاء على هذه الجبال ، وتلغيم ممراتهابألغام نووية ، ورغبة الدول الاستعمارية فى استمرار حالة التفتت ، وعدم حل المشكلة حلا عمليا عادلا وانسانيا ، لأن هذا سيؤدى الى ترسيخ الوحدة الوطنية العراقية ، ويسد منفذا هاما بوجه المؤامرات السياسية والعسكرية والاســتعمارية ، وركيزة الاســتعمار فى المنطقــة ، هى القــوى اليمينية والعشائرية ، التى يحركها حينما تتطلب مصالح الاحتكارات النفطية ، أو الاحــلاف الاســــتعمارية والمؤامــرات ، العــدوانية من جهــة أخــرى ، بريطانيا فى الاستفادة من حركة الشيخ محمود ، هاجمته بكل قسوة ،عاملت الحركةالحركة بعنف دموى ، وعنما قامت جمهورية مهاباد فى أيران ، قمعت بقوة وقسوة ووحشية ، وساعدت الجيوش البريطانية ، والأمريكية ، الجيش الأيرانى فى العمليات العسكرية التى أدت الى قمع الجمهورية الجديدة ، كان الاستعمار يبحث ، باستمرار ، عن ركائز له فى المنطقة .

اذن ، يتضح الهدف الحقيقى من تدفق المساعدات الأجنبية علــى القوى الرجعية فى الحركة الكردية ، خلال السنوات الأربع (١٩٧٠ — ١٩٧٤)

والتى كان يمهد فيها ، للحرب ضد السلطة الثورية فى العراق ۰ ان قوى الاستعمار هى آخر من يحرص على حقوق الشعب الكردى ، لأن هذا مناف لمنطق التاريخ ۰

ومن المثير ، أن بعض الدول التى يعيش فيها اكراد ، كانت تقدم الدعم العسكرى المباشر والاقتصادى والمعنوى للقوى الرجعية بقيادة الملا مصطفى البرزانى ، بينما تنكر على الاكراد المقيمين بها ، حقوقهم البسيطة وتضطهدهم، هناك عوامل متداخلة تحكم هذه الدول الرجعية ، منها النيابة عن أمريكا فى التدخل المباشر بالحركة الكردية ، الى جانب الخوف من نجاح تجربة الحكم الذاتى فى العراق ، مما يدفع الاكراد بها ، الى المطالبة بالمثل ، من ناحية أخرى كان التمرد المسلح فى الشمال يرمى من وجهة نظر الدول الاستعمارية، الى هدف آخر ، وهو انهاك الجيش العراقى ، واستنزاف موارده ، وطاقاته القتالية ومعداته ، بعد اعلان بيان مارس ۱۹۷۰ ، قالت صحيفة معاريف الاسرائيلية فى عددها الصادر بتاريخ ۱۲ مارس ۱۹۷۰ :

« أن اعلان الحل السلمى للمشكلة الكردية فى العراق ، سيمكن الحكومة العراقية من توجيه امكانياتها العسكرية للوقوف بقوة وثبات ، على الجبهة الشرقية » ۰

ثم أثارت صحيفتا (معاريف) و (دافار) الموضوع ، عندما أعلنتا أن « بيان ۱۱ مارس » الذى يكفل للاكراد حقوقهم القومية فى اطار الجمهورية العراقية المدحدة ،يعنى أمرين بالنسبة لاسرائيل :

- امكانية قيام العراق بدور أكبر فى المواجهة ضد اسرائيل ، وذلك بتحويل ۲۰ ألف جندى الى الجبهة الشرقية ، فضلا عن توفير ۹۰ مليون دولار كانت تستهلكها الحرب مع الاكراد ۰
- انضمام بعض المحاربين الاكراد ، وهم متمرسون على حرب العصابات ، الى المنظمات الفدائية الفلسطينية ، بكل خبراتهم فى القتال وطاقاتهم عليه ۰

لقد أثبتت التجربة ، ان الجيش العراقى قوة يعمل لها حساب كبير فى الصراع الآخر الدائر فى المنطقة ضد الصهيونية ، ولولا تدخله فى أكتوبر ۱۹۷۳ ، سواء على مستوى التدريب ، أو التسليح ، أو من لناحية العدديه، حيث أصبح يعبرمن حيث الحجم ، الجيش الثانى فى المنطقة بعد الجيش المصرى ، وبالتالى فان اشغاله فى الشمال ، سوف يؤدى الى عدم تدخله ، أو الى تدخل محدود فى حالة نشوب الصراع المسلح من جديد ضد الصهيونية ۰

كتطبيق عملى للمنطلق الانسانى الذى اتبعته ثورة ۱۷ يوليو ، فى معالجة القضية الكردية ، حرصت قيادة الثورة على تجنب الصدام المسلح مع الجيب اليمينى فى الحركة الكردية ، لهذا استمر الحوار أربع سنوات كاملة ، من سنة ۱۹۷۰ حتى ۱۹۷٤ ، غير أن هذه السنوات ، كان لها جانبها الايجابى ، شهد العراق عدة مشاريع هامة ، قامت الثورة بتنفيذها، ويوما بعد يوم كانت الهوة تزداد اتساعا بين قيادة القوى الرجعية ، وبين الشعب الكردى ، ان الشعارات التى رفعتها الحركة الكردية ، وأبرزها

الحكم الذاتى قد بدأت الثورة تطبيقها فعلا ، اذن ماذا يريدون ؟ صفوف الثورة ، وتحمل السلاح معها ، فى نفس الوقت ، بدأت المساعدات تتدفق على الملا من الدول الاستعمارية واسرائيل ، وذلك لتحقيق ثلاث خطوات :

أولا : رفض الحكم الذاتى رفضا تاما ٠

ثانيا : تصعيد المشاكل الى أقصى حد ، وأشعال الحرب ٠

ثالثا : الانفصال عن العراق ٠

وخلال السنوات التى سبقت بدء التمرد المسلح ، استهدفت جميع الخطوات التى تتخذ من جانب الملا ، والجناح الرجعى ، تحقيق الانفصال التام، وتدمير الوحدة الوطنية للشعب العراقى ، ولتنفيذ هذا بدأ على المستوى العسكرى يعد قواته لتحقيق المخطط ، بدأ فى تشكيل عدة ألوية نظامية ، لقد نبذوا أسلوب حرب العصابات الذى كان متبعا خلال فترات الصراع المسلح الماضية ٠

خلال تلك المراحل ، كان السلاح السائد لدى الاكراد الذين يقاتلون الجيش ، البندقية ، مع تطور الزمن ، بدأوا يستعينون بأسلحة أكثر تقدما ، يقول أحد ضباط المدفعية الذين حاربوا فى الشمال سنوات طويلة :

« كان سقف الموقع الذى ننام فيه ، يعكس تسليح الجانب الآخر فى البداية كان عاديا يكفى لصد طلقات البنادق ، وعندما تسلحوا بالرشاشات الثقيلة والمتوسطة ، اضطررنا ، الى أضافة سمك آخر اليه من الأحجار ، وبعض أكياس الرمل ، وعندما تسلحوا بالهاون وبعض أنواع المدفعية المتوسطة ، اضطررنا الى تدعيم السقف بالخرسانة ، والقضبان الحديدية » ٠

خلال هذه الفترات ، كان الاكراد ، يحاربون حكومات دكتاتورية ، ورجعية تحكم العراق ، واشترك معهم الكثير من المناضلين العرب فى العراق، الذين وقفوا ضد الحكم الرجعى والفاشى ، لكن عندما بدأت القوى الرجعية تتصدى للثورة والقوة الثورية اختلف الأمر ، تدفق العتاد والسلاح الحديث من معسكر الرجعية العالمية ، أصبح التسليح متطورا ، أحدث أنواع المدفعية المضادة للطائرات ، أحدث أنواع الألغام المضادة للدبابات ، والأفراد، كميات كبيرة من العتاد ، أما التنظيم العسكرى فقد اختلف ليتفق مع الهدف الجديد الانفصال » هذا يعنى ضرورة التمسك بالأرض ، لهذا ، انتشرت التشكيلات النظامية لتغطى المناطق المزمع الانفصال بها ، وأصبح التنظيم العسكرى يضم عدة هيزات « الهيز » كلمة كردية تعنى وحدة عسكرية نظامية يبلغ تعدادها من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ محارب وتقارب اللواء ، ويقسم الهيز الى ثلاثة (بتاليون) أى ما يوازى كتيبة ، ويوجد تنظيم أصغر (لق) ويعنى السرية ، (سربل) أى الفضيلة ، ويوجد تنظيم أكبر من الهيز ، وهو (الاشكر) ويقارب مع تكوينه وعدده ، الفرقة ٠ كان لدى العصاه فى الشمال ، حوالى ١٥ هيز ، وزعوا على المناطق المختلفة ، وبلغ عدد هذه الهيزات ، حوالى ثمانين ألف مسلح ، وقوة من المدربين تدريبا خاصا كانت تتبع قيادة الملا مباشرا ، كانوا فى السنوات الماضية ، يتجمعون ، ويضربون

ثم ينسحبون • لكنهم في هذه المرة ، قرروا الاحتفاظ بالارض ، التشبث بها . وفيما بعد وخلال المعارك العسكرية ، كانت قيادة الملا ، ترسل برقيات الى تشكيلاتها في المناطق التي يدور فيها القتال :

« نطلب منكم التمسك بالأرض حتى آخر ••

« تمسكوا بكلي على بك حتى آخر ••

« تمسكوا بزوزاك حتى آخر ••

زودت هذه القوات أيضا ، بأسلحة ثقيلة ، في نفس الوقت ، وعد التدخل الاجنبي ، بتقديم الدعم العسكري للتمردين ، وذلك عن طريق الأسناد المدفعي من خارج الحدود العراقية ، بواسطة المدافع بعيدة المدى من طراز ١٧٥ مللي ، والتي لم تزود بها الا اسرائيل في المنطقة واستخدمتها على الجبهة المصريه ، خلال حرب أكتوبر • من ناحية أخرى ، فان المدفعية الثقيلة الاجنبية ، تدخل الى المناطق التي يسيطر عليها المتمردون ، وتعمل من داخل هذه الأراضي مع أخذ احتياطات معينة ، وهي ارتداء الجنود الاجانب ، ملابس كردية وغالبا ما يكون هؤلاء الجنود من أكراد أيران • وكانت أيران تدفع عددا من أكراد أيران للالتحاق بالتمرد الرجعي في العراق ، وسوف يكون هذا أحد الأسباب التي أدت الى تغيير موقف أيران، فيما بعد • وأرسلت أميركا ، بعض مستشاريها العسكريين الى قيادة الملا لمساعدته ، ويقول عبد الله البرزاني ، أبن الملا مصطفى ، والذي أنضم الى الثورة العراقية ، أنه رأى خبراء أجانب ، أميركيين وصهاينة في مقـر والده ، كانت قوات التمرد تعتبر المنطقة المحصورة بين صلاح الدين ، وامتدادها شرقا وجنوبا مع حافة بازيان ، تدخل ضمنها منطقة دربندي خان الى جلولاء ، تتجه شمال غرب الى دهوك رزاخو على الحدود التركية ـ العراقية ، هذا الخط الهلالي ، مهيأ للدفاع بتلك السلسلة الجبلية الوعرة المتحكمة ، والتي تتخللها مضايق جبلية صعبة تعتبر أوعر الممرات في العالم، كان للجيش العراقي خلف هذا القوس ١١ كتيبة موزعة على كل المنطقة، وترابط في مواقع متفرقة فوق قمم الجبال ، قدر الخبراء العسكريون الأميركيون والأجانب ، مدة ثلاثة شهور لحصار هذه الكتائب ، ثم استسلامها، وخلال هذه الفترة ، تقوم قوات التمرد بصد جميع الهجمات الرئيسية التي سيقوم بها الجيش العراقي في محاولة الوصول الى مواقع هذه الكتائب لفك الحصار عنها ، ولكن الملا مصطفى البرزاني ، قدر المدة بستة شهور ، سيحكم خلالها الحصار ، وسيقاتلون خلالها بأسلوب نظامي ، يمنع تقدم الجيش على جميع المحاور ، والطرق ، الممرات الجبلية الوعرة ، وبعد أن يتم تسليم جميع كتائب الجيش العراقي في المنطقة ، تقوم أميركا والقوى الاستعمارية الرجعية ، حملة دعاية مكثفة ، يتم خلالها ، طرح القضية على الأمم المتحدة ،وتبدأ الخطوات العملية لتحقيق الانفصال الكامل •

هل كانت الثورة العراقية ، تعلم بهذا المخطط ؟ أن تفاصيل الخطة العسكرية ، أدلى بها الأسرى فيما بعد ، واثبتتها الوثائق ، لكن قبل مارس ١٩٧٤ . هل كانت الثورة تعلم بنية القيادة اليمينية ، بتنفيذ هذا المخطط•

خلال الفترة السابقة على ١١ مارس ، كان كثير من الاكراد ، يطلعون الجبل ، ويمرون عبر مخافر الجيش التى ستحاصر طبقا للخطة الموضوعة ، ونجد دارا توفيق رئيس تحرير جريدة (التآخى) وهو من الرجال المقربين الى الملا ، وقد أغلق مكاتب الجريدة وقتئذ ، وجاءت عربات نقل لتحمل الأثاث والكتب من قلب بغداد لتمضى الى الجبل ، وفى احدى الادارات بالحكومية ، جاء صباح أحد الأيام مهندس كردى يعمل بهذه المصلحة ، فتح ادراج مكتبه ، أحرق بعض أوراقه الخاصة ، ثم أخذ الباقى ، ومر على زملائه مصافحا ، وقال لكل منهم ، انه قرر أن يطلع الجبل ، بل أن (ادريس البرزانى) أبن الملا مصطفى وقائده العسكرى كان قد زار بغداد، قبل أيام قليلة من ١١ مارس ١٩٧٤ ·

هل كانت الثورة العراقية ، عاجزة عن التصدى لهؤلاء ، منعهم من الطلوع الى الجبل ؟ بالتأكيد ، لو حدث هذا فى زمن أى حكومة سابقة ، لكان أسهل الأمور هو الاسراع بالقاء القبض عليهم ، والمبادرة بشن الهجوم العسكرى بأسلوب تقليدى ، لقد كانت التحليلات السياسية للثورة ، تثبت وتؤكد ، ان القوى الرجعية ، سوف تبدأ القتال ، لكن النضج الثورى كان يقطع الطريق على أى خطوات تشـنجية أو عصـبية ، كانت القوى الرجعية تزداد عن الشعب الكردى ، مما اضطرهم الى استخدام أساليب أرهابية لضم مقاتلين اكراد اليهم ، كمحاصرة قرى بأكملها ، وترحيل عائلاتها الى أيران ، وبهذا يضمن وجود رب الأسرة الى جانب التمرد ، كان أخلاء القرى أيضا عملا عسكريا من جانبهم ، يعكس الهوة بينهم وبين الشعب ، ومع بدء الحرب ، تحول الى سلاح ضدهم ·

وفى الجانب الآخر ، كان العمل السياسى الدؤوب الناضج الذى تقوم به الثورة ، والذى استمر ، فى الواقع ، لمدة أربع سنوات ، يتحول بسبب مواقف المتمردوين ، الى المجال العسكرى ، فبعد ١١ مارس ١٩٧٤ ، تقدمت قوات المتمردين بقطع الطرق ، ومنع المرور عليها ، ونفذوا حركة اغتيالات واسعة للعناصر التقدمية الكردية ، وتعود بحصار كتائب الجيش ·

باختصار ·· تلأحعن

بدأوا الحرب ·· مبثعكتمر مب تفمغففض

ونعود مرة أخرى الى كركوك ، المسافة بين قيادة القطاع والمدينة ليست كبيرة ، عدة ساعات قضيناها هناك ، يبدو السهل منبسطا ، وآخر ما تبقى من ضوء الشمس ينسحب من السماء بسرعة ، نحن فى بدايات مارس ١٩٧٥ . المناخ بين بين ، لكنه فى السماء ينطفىء · يميل الى برودة. حقول النفط وشعلات النار تزداد توهجا ، تبدو من الطريق ، متلاحمة ، متجاورة ، وأذكر وصف أدموندز أحد الحكام الانجليز ، لهذه الشعلات عام ١٩٢٥ . ربما انطفأت الشعلات التى رآها ادموندز ، ربما هى تلك التى نراها الآن ، نار أزلية لم تهدأ ، لم تنطفىء عند الغروب يبدو التاريخ فى المدينة فوق المرتفع ، تبدو البيوت القديمة أكثر اتساقا مع درجات الضوء الضعيفة ، الصفراء وكأنها رائحة التاريخ البعيد . ثمة عرب واكراد

يجلسون على اجزاء من ســـور حجرى قديم ، وللقاهى الصـغيرة مطلية جدرانها باللون الأبيض ، لاتوجد مقاعد ، انماد كك خشبية بيضاء .يجلس عليها الرجال متجاورين ، بعكس المقهى المصرى الذى يضم مناضد يجلس اليها الرواد متواجهين ، يكثر من المزارات والمساجد والأماكن الاثرية ذات الطابع المميز ، من أبرز الاماكن ، القبر المعروف بقبر (دانيال)وتروى حوله أسطورة ، يبدو انها مستوحاة من النيران الأزلية للغاز الطبيعى ، كانت هذه النيران مشتعلة دائما حتى قبل ان تعمل شركة النفط فى استخراج البترول على نطاق واسع ، فى هذه الأماكن ، كانت آبار نفط بدائية حفرت بأدوات يدوية ، وكانت هذه الطرق تستخدم لاستخراج البترول منذ قديم الزمان ، ويوجد قبر آخر ، اقيم تخليدا لسيدة نبيلة ، أسمها بغدادى هانم ويعنوه برج مثمن الاضلاع ، وقبر آخر لأحد مشايخ الصوفية المنتمين للطريقة القادرية ، ويقال ان السلطان العثمانى عبد الحميد . كان يراسله بشفرة خاصة يسألة الرأى والمشورة ، ان الطرقات الضيقة فى الأحياء الشعبية من المدينة ، والحوارى التى تذكرنا بجوارى ألف ليلة ، والوكالات ذات الأبواب الضخمة ، تضفى على المدينة ذلك الطابع آلتاريخى الخاص ونمضى فى المدينة المزدحمة ، وتمضى الحياة من حولنا ، وحوالى العاشرة ليلا . يخف الزحام من الطرقات ، وتغلق المتاجر ، ولايبقى ساهرا حتى ساعة متأخرة الاصيدليات الخضر وحائكى الثياب ، نعود الى الفندق فى ساعة مبكرة . فى الغد سنذكب الهيلو كبتر مرة أخرى ، رأسا الى الجال التى لاتزال تشهد بعض المعارك ضد العصاة ، الاتجاه الى مواقع الخطر ،الأحساس الغامض الذى يشعر به الانسان ، أين سأكون غدا فى مثل هذا الوقت تماما ؟ كيف ستكون رحلتنا فى الجبل ، مجرد خواطر تعبر سريعة ، ثم يعود الذهن الى ترتيب ماسنقوم به ، والتفكير فى المشروعات المؤجلة . ونمر ساعات الليل . بينما المدينة ملفوفة بوهج نارى دائم . أن السماء فوق البيوت تبدو حمراء ، متوهجة وكأن حريقا هائلا قد أشتعل فى الكون ، أن شعلات النار الأزلية التى رأيناها مرسومة فوق ضوء النهار ، تنفردبالمدينة فى الليل ، تتوهج السماء والطرقات وتتوارى النجوم البعيدة ، أنظر الى السماء أصغى الى الهدوء المستتب ، وصيحات بعض الدرك هنا وهناك ، (كركوك) لم قرأت الاسم وهأنذا أنام تحت النادى المتأجج بالضوء ، وأقلب أوراقى ، غدا سـألتقى بمقاتلين اشــتراكوا فى حرب تشرين ، ويحاربون الآن من أجل وحدة وطنهم ، أعود مع الأيام الى حرب (اكتوبر)، الى معارك اللواء المدرع ١٢ ، أو لواء خالد بن الوليد ، أول لواء مدرععراقى يصل الى الجبهة السورية ، أول لواء عراقى يصطدم باسرائيل فى حرب تشرين ، سمعت الكثير عن بطولات هذا اللواء ، وعن جنوده وضباطه ،فى الجيوش الوطنية ذات التقالبد العريقة ، يسمع الصحفى أو الكاتب ، أثناء تجواله سواء بين وحدات الجيش ، أو المواطنين عن وحدة معينة ، أوضابط معين . وجندى معين ، يتحدث أكثر من طرف عن دور معين أداه مقاتلون أو مقاتل انها البطولة ، لكل جيش وطنى أبطاله الذين يتحدث عنهم ، وتروى

أعمالهم وتصبح جزءا من تراث الأمة ٠

● ● ●

قرأت وسمعت عن دور اللواء المدرع ١٢ ، (لواء خالد بن الوليد)، وأقلب أوراقى ، ان معركة هذا التشكيل العربى من أهم المعارك التى جرت على الجبهة السورية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٠

الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ، اتصلت القيادة السورية بقائد عام القوات العراقية وأخبروه ان المهمة القتالية التى كان قد كلف بها اللواء المدرع ١٢ ، (خالد بن الوليد) قد تغيرت ، وطلبوامنه أن يحضر الى مقر غرفة العمليات ، ومضى القائد العراقى الى غرفة العمليات ، حيث شرحت له المهمة القتالية الجديدة ، وأعطى خريطة توضح المكان ، والمواقع والمهام القتالية المطلوب تنفيذها الى اللواء الذى وصل لتوه الى الجبهة السورية ومع خيوط الضوء الأولى من يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ، كانت سيارة القائد العراقى تتوقف عند المقر الميدانى لقيادة اللواء ، شرح المهمة الجديدة لقائد اللواء وضباطه وعندما سئل قائد اللواء عما اذا كان لواؤه مستعدا لتنفيذ المهمة ، أجاب بالحرف الواحد (٠٠ ان الامر لم يعد ما اذا كنت مستعدا أم لا ، فالعدو قد اندفع نحوى وما على الآن سوى الاسراع بملاقاته ، وأنا لا أضمن تنفيذ الواجب فقط ، بل تقرر ٠ وفى الساعةالثانية ظهرا ، بدأ لواء (خالد بن الوليد) يتقدم الوصول الى قرية دير العدس ـ كفر شمس ـ تل العوسج) أى أكثر مما لتحقيق المهمة المطلوبة ، غير انه عند بدء التحرك جاء ضابط الاتصال السورى الى قائد عام القوات العراقية ، وأخبره ان ثمة ظروفا جديدة ، قد طرأت ، وطبقا لها ، فقد قررت القيادة السورية ، تغيير المهمة القتالية للواء ، وطلب القائد العراقى الاتصال الفورى بقائد لواء (خالد بن الوليد) ليقف مكانه ، اذ أن الدبابات بدأت التحرك بالفعل ، ولكى يتأكد بنفسه ، فقد استقل سيارته الجيب ، ومضى بها مسرعا الى دبابة القيادة فى اللواء ، طلب منه ألا يتقدم الى كفر ناسج ـ تل المال ، كما هو موضح بالمهمة التى الغيت ، وبالفعل ، اتجهت الدبابات العراقية لاتباع المحور الجديد ، كان اللواء يتقدم على رتلين ، وتل أيمن ، وهدفه كفر ناسج ، ورتل أيسر ، وهدفه قرية عقربا ، وتوجيه ضربة الى القوات المعادية فى المنطقة والتى كانت تتقدم على محور « جبعا » ـ كفر ناسج ، بدأت المدفعية الاسرائيلية، تحاول قصف المدرعات العراقية المتقدمة ، وكانت مدفعية العدو تتمركز فى الساعة الرابعة والنصف من اجتياز تل عنتر ، واستأنف تقدمه ، فدمر قوة العدو ، فى تل حمد ، دار قتال عنيف حول قرية كفر ناسج ، تم خلاله دخول القوات العراقية الى القرية حوالى الساعة الرابعة والنصف ، أى أن اللواء خاض معركة متصلة استمرة ساعتين ونصف الساعة تمكن خلالها من تدمير قوات العدو فى المنطقة ، بعد هجومه المضاد الناجح ، وتحرير قرية كفر ناسج ، فرت قوات العدو فى حالة اضطراب وذعر ، وفى القرية استولى

المقاتلون العراقيون على ثماني دبابات اسرائيلية سليمة ، من طراز سنتوريون• كان رجال المدرعات العراقيون، يعرفون هذه الدبابات جيدا ، اذ عملوا عليها من قبل ، عندما كانت تدخل ضمن تسليح الجيش العراقى ، اداروها بسرعة واستدارت الأبراج بمدافعها لتصب قذائفها ، القذائف الخاصة بالدبابات ، نفس الذخيرة الاسرائيلية تساقطت فوق العدو بعد لحظات من استيلاء الجنود العراقيين عليها ، وكان لهذا أثر معنوى سيىء فى الجانب المعادى •

وخلال الهجوم كانت دبابة قادة احدى كتائب اللواء تتقدم الرتل الذى اقتحم كفر ناسج ، وأصيبت أصابة مباشرة فى المواجهة ، وبترت ساقا القائد العراقى ، بدأت الدبابة تحترق ، تهتز ، وبعد لحظات ستنفجر ، نظر جنود الطاقم الى قائد دبابتهم وكتيبتهم فى نفس الوقت ، بدأوا يحاولون مساعدته للخروج من هذا الجحيم المصغر الذى سينفجر بعد لحظات ، غير أن القائد الذى غرق فى بركة من دماء سالت بغزارة ، أصدر أمره الأخير :

ـ غادروا الدبابة بالأمر •

وعندما أصر أحد الجنود على القيام بواجبهم تجاه قائدهم ، جمع كل ما تبقى لديه من طاقة وجهد ليصب حزما فى أمره :

غادروا الدبابة بالأمر .

ومال صدره على رأسه ، كان كقائد السفينة ، آخر من يغادرها قبل أن تغرق ،واذا أصيب وفقد الأمل ، فليبق معها ، يتحد المصير الانسانى بمصير الحديد والبارود الصامت ، واحتراما للأمر الأخير ، قفز الجنود • وعندما انفجرت الدبابة تلاشى كيان البطل مع دبابته ، لكن ليبقى نورا وسطورا تضاف الى تراث الأمة العربية ، وحتى ذلك الحين بلغت خسائر لواء خالدبن الوليد ، تدمير خمس دبابات ، استشهاد قائد الكتيبة ، وخمسة عشر ضابطا وجنديان ، فقدان ضابط وخمس رتب أخرى مختلفة ، وفى المساء صدرت الأوامر بانسحاب الوحدات الى التلول المشرفة على كفر ناسج لمشاغلة العدو وايقاف تغلغل قواته •

● ● ●

فى الساعة الثالثة والربع ، كان الرتل الايسر من لواء خالد بن الوليد، يتقـــدم باتجـاه قرية « عقربا » ، شـــكل الـرتل من كتيبـــة الدبابات، وكتيبة مشاة الى ، عند وصوله الى (عقربا) هوجم من الطائرات الاسرائيلية المعادية ، الا أن الرتل واصل تقدمه داخل قرية تل المـــال ، وكانت المعلومات التى وردت من القيادة السورية تفيد بأن الجناح الايسر للرتل سيكون محميا بالوحدات السورية الا أن ظروفا طرأت حالت دون ذلك ، وهنا اتصل قائـد عام القوات العراقية بقائد لواء خالد بن الوليد ، وطلب منه أن يكون مسئولا عن تغطية جناحهالايسر ، بعد أن تجاوزت الوحدات قرية تل المال اشتدت مقاومة العدو ، أصيبت دبابتان من الرتل ، دمرتا ، وفى المقابل تمكن الجنود العراقيون من الاستيلاء على ثلاث دبابات سنتوريون ، ومرة أخرى أداروا مدافعها فى اتجاه القوات المعادية ، فى هذه الأثناء ، حل الظلام ، لكن الرتل تمكن من تمييز هدفه النهائى وهو تل الشعار ، واستمر فى اندفاعه ، حيث

أحتلت القوات تل البراق برغم الكثافة النارية المعادية ، وأستولت على أربع دبابات أخرى معادية سليمة واستطاعت قوة أخرى من الرتل الوصول الى سفوح تل الشعار والاستيلاء على دبابة أخرى • مع الضياء الأول ليوم ١٣ أكتوبر واصل الرتل التقدم صوب تل الشعار ، واصيبت دبابة قائد الرتل وبهذا فقد الاتصال مع قائد اللواء . في نفس الوقت ، دعم العدو قواته ، وهاجمت طائراته في موجات متلاحقة ، أصدر قائد الرتل أمرا بأخلاء تل الشعار ، والانسحاب الى قرية الطيحة في قتال تراجعي ، ثم صـــدر أمـر بالانسحاب الى قرية شمس لاعادة تنظيم القوات ، وكان مجموع خسائـر الرتل حوالى ١٦ دبابة ، وفي الليلة السابقة ، ليلـة ١٣ أكتوبر ، قامـت الوحدات العراقية الخاصة ، فانتشرت في المنطقة ، تهاجم مرابض المدفعية المعادية والدبابات ، ومواقع الجنود ، وهكذا يكون أهم انجاز قد تم يوم ١٢ ، هو الهجوم المضاد الناجح للقوات العراقية الذى تمكنت بواسطته من دحر العدو مسافات كبيرة الى الوراء ، على محور غباغب ـ كفر ناسج وتكبيد العدو خسائر كبيرة في المعدات والأرواح ، وأسر عدد من ضباطه وجنوده •

مع الضياء الأول ليوم ١٣ أكتوبر ، كان العدو ينسحب ، باتجاه ماعص،
لقد أدخل اشتراك القوات العراقية ، عاملا جديدا في الموقف ، زاد من تعقيد الأمور أمام القيادة الاسرائيلية ، اذ أصبح واضحا ، ان معدل النيران القوى في المدرعات والمدفعية ، لايعطى اسرائل القدرة على أحداث ثغرة في الخطوط السورية . كما تريد القيادة الاسرائيلية ، وكلما طالت المعركة ، دخلت عليها عناصر جديدة ليست في صالح الجيش الاسرائيلى . أما الوضع العربى فقـد تحسن مع وصول التعزيزات ولم يعد بأمكان القوات الاسرائيلية عنـــدئذ ، تطبيق أسلوب وتكتيك المطاردة والتطويق بسهولة •

● ● ●

صباح السبت ١٣ أكتوبر :

أستأنفت المجموعات المهاجمة تقدمها ، ركز العدو نيرانه الشديدة ضد لواء خالد بن الوليد العراقى ، غير أن دقة تصويب جنود اللواء وكفاءة القوات العراقية في الرد ، قللت من الخسائر آلى حد كبير • بعد قتال استمر ثلاث ساعات ، تمكن الرتل الايسر من اجتياز تل البراق ، والسيطرة على السفح الايسر لتل الشعار ، وبدأ يشتبك مع دبابات العدو عند سفوحه ، في نفس الوقت استمر العدو في الضغط على الجناح الايمن ، وقاتلت الوحـدات العراقية ، قتالا تراجعيا من كفر ناسج الى تل عنتر ، الا أن اللواء شن هجوما مضادا ، وتمكن من اعادة احتلال كفر ناسج ثانية وايقاف العدو ، ثم تقدمت مجموعة قتال أخرى من اللواء ، باتجاه تل أبويه ، فأحتلته ، ودحرت القوات الاسرائيلية فيه • ووصلت الى طريق دمشق ـ القنيطرة العام ، في هذا اليوم انعكس انزعج القيادة آلاسرائيلية ، بشكل واضح عندما أعلن العـــدو أن مجموعة من الكوماندوز الاسرائيلية قامت بمهمة خاصة خلف الخطوط العربية في ليلة ١٣ أكتوبر ، مستهدفة مهاجمة القوات العراقية التى كانت تتدفق من الحدود العراقية الى الجبهة السورية ، وقد توغلت هذه القوة ـ وفقا للمصادر

الاسرائيلية – الى مسافة ١٠٠ كيلو مترا الى الشمال الشرقى من العاصمة دمشق • وهاجمت رتلا عراقيا ، ونسفت جسرا •

ويبدو أن القيادة الاسرائيلية ، قد اذاعت هذا البيان بقصد رفع الروح المعنوية لرجالها ، أو أن قوة من الكوماندوز الاسرائيليه حاولت بالفعل ، القيام بمهمة ضد القوات العراقية خلف الخطوط وفشلت ، لأننى لم ألق أى أثر لهذا الحادث ، لم تسجلة يوميات القتال ، أو ذاكرة معظم الضباط والجنود ، ماحدث تلك الليلة هو استمرار تدفق القوات العراقية بمعدل كبير الى جبهة القتال •

وكانت الطائرات الاسرائيلية من طراز فانتوم ، قد أغارت عدة مرات على خزانات النفط فى مناطق مختلفة من سوريا ، وركزت على منشآت تصدير النفط العراقى المؤمم فى بانياس على الساحل السورى ، ويبدو أن هذه الغارات كانت تتضمن أبعادا أخرى بالاضافة الى أهدافها العسكرية ، وعلقت جريدة الثورة العراقية فى افتتاحيتها يوم ١٣ أكتوبر على هذه الهجمات الاسرائيلية :

((هل كان ضرب منشآت تصدير النفط العراقى المؤمم فى بانياس على الساحل السورى ، عملا اسرائيليا ، ومن تلك الأعمال الغادرة ، التى أرتكبها العدو ، فى الأيام الأخيرة نتيجة ما أصابة فى المعركة من ارتباك وفشل ، أم كان عملا أميركيا ، أراد به سادة البيت الأبيض ، الانتقام ، وبواسطة اداتهم الشهيرة اسرائيل ، من القطر الذى عاقبهم فى ٧ تشرين (تاريخ تأميم حصة أميركا فى النفط العراقى) فأمم مصالحهم النفطية ، وفتح المعركة السياسية – النفطية ضدهم على أوسع وأخطر نطاق)) •

وتمضى ((الثورة)) •

((واننا لنعقد اعتقادا جازما أن ضرب المنشآت النفطية فى بانياس ، كان ((خدمة خاصة)) أبدتها اسرائيل لسادة البيت الأبيض الخائفين من اشهار سلاح النفط بوجههم ، والغاضبين أشد الغضب من هذا العراق المشاكس ، الذى يقلب فى وجههم ((قدر الماء الساخن)) ، كلما حاولوا الألتفاف عليه ، والخلاص منه• هناك اشياء لا تعرفها أميركا ، التى تحاول الانتقام بهذه الطريقة اليائسة ، نحن عندما أقدمنا على التأميم فى حزيران ١٩٧٢ ، كنا نعرف سلفا ، ان المعركة التى فتحناها ، معركة صعبة وطويلة وباهظة التكاليف ، وكنا نعرف سلفا أيضا أن الامبرياليين ، لن يقفوا مكتوفى الأيدى ، وسيحاولون الانتقام بشكل أو بآخر ، ومع معرفتنا بكل ذلك ، أقدمنا على التأميم ، لأننا كثوريين نؤمن أن الدفاع عن الحقوق المشروعة ، لا يكون الا بالهجوم الشجاع على مغتصبى تلك الحقوق)) •

● ● ●

الأحد ١٤ أكتوبر :

حشد العدو نيران مدفعيته ودباباته وأسلحته المدرعة ، فى محاولة للتصدى لقوات اللواء المدرع ١٢ ، وصلت قوات العدو الى خط تل قرين – كفر ناسج – تل المال ، وبدأت توجه قصفات مركزة الى وحدات اللواء التى

تمركزت فى كفر شمس ، وفى تمام الساعة الخامسة والثلث صباحا ، بدأ لواء خالد بن الوليد ، فى تطبيق أسلوب الاسناد النارى ، لارباك هجوم العدو المضاد المتوقع شنه ، والذى بدأ بالفعل ، بقصد الاستيلاء على تل عنتر، وأمكن بالفعل ، إيقاف الهجوم المعادى بعد تدمير خمس دبابات معادية ، وخسر لواء خالد بن الوليد ٨ دبابات ، دمر هجوم العدو عند السفوح الشمالية لتل عنتر ، وفى تماما الساعة التاسعة تمت السيطرة على تل حمد ، والاشتباك مع دبابات العدو فى كفر ناسج ، فى هذا اليوم طرأ تغيير أساسى على الجانب الاسرائيلى ، بدأت قوات العدو تأخذ مواقع دفاعية فى مواجهة الهجمات المركزة للقوات العربية ، ولوحظ ان الجزء الرئيسى من الطيران الاسرائيلى ، غائب من سماء المعركة ، بسبب اشتراكه فى مواجهة الهجوم الشامل الذى بدأته القوات المصرية على جبهة سيناء صباح اليوم ، وربما كان تخفيف حدة الهجمات راجعا الى نقل الجزء الأكبر من القوات الاسرائيلية ، الى الجبهة الجنوبية لمواجهة تطورات الوضع ، واقتناع القيادة الاسرائيلية بأنه توسيع الجيب سكون له نتائج خطيرة ، كما أن مزيدا من الوحدات العراقية لم يعد فى مقدرة الجيش الاسرائيلى ، القيام بعمليات هجومية خاصة ، وان كانت فى طريقها الى الجبهة مما يجعل اختراق الخطوط على الجبهة السورية، عملا بالغ الصعوبة .

● ● ●

الاثنين ١٥ اكتوبر :

بدأت مدفعية العدو تقصف الوحدات العراقية من لواء خالد بن الوليد، لمدة نصف ساعة ، وشوهدت بعدها ، تحركات لمجموعات من المدرعات المعادية تحاول التقدم نحو تل قرين وكفر ناسج وتل المال . اشتبكت مع دبابات خالدبن الوليد ، التى صمدت وصدت الهجوم المعادى ، فى نفس اليوم ، حاول العدو عدة مرات احتلال تل عنتر ولم يحقق أى نجاح ، وفى الساعة الواحدة ظهرا ، هاجم بثلاث مجموعات قتال ، واسناد جوى كثيف، واستطاعت قوات العدو تحقيق تقدم فى تل عنتر ، وتجمعت وحدات لواء خالد بن الوليد فى قرية شمس وذلك لتشكيل قاعدة أمينة لدعم لواء مدرع آخر كان قد بدأ الوصول الى الجبهة ، بهدف الاستعداد لشن هجوم واسع على تل عنتر .. فى ذلك اليوم تكاملت وحدات اللواءين العراقيين السادس المدرع ، والثامن مشاة آلى ، الذى استعرضنا بعض معاركه من قبل .

وحتى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة من صباح يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر ، لم تتوقف الاشتباكات بين العدو ولواء خالد بن الوليد ،وهكذا يكون لواء خالد بن الوليد قد قاتل لمدة أربعة أيام متصلة بدون راحة بدون نوم ، بعد رحلة طويلة قطع خلالها أكثر من ألف وثلاثمائة كيلو متر، ثم دخل سلسلة من المعارك المتصلة فى وقت زمنى قصير ، معركة التنقل ومشاقها ، ثم معركة الصدمة الأولى ، ثم المعارك التى خاضها ضد العدو ، واجباره على التراجع منهيا بذلك قدرة العدو على تحقيق أى خرق فى هذا

القطاع باتجاه دمشق ، كان لواء خالد بن الوليد ، يحارب في ظروف صعبة، لقد اشتبك فور وصوله الى الجبهة بدون أى فرصة للراحة أو لتقاط الانفاس، معظم المقاتلين ليست لديهم خبرة بالمعالم الأرضية ، لم يتعرفوا بالقدر الكافى على ميدان القتال ، كما ان المهام القتالية التى كلف بها تغيرت أكثر من مرة فى ميدان ، وأثناء تحركة ، وتغيير المهمة القتالية أثناء التحرك أو عند الشروع فى الهجوم من الأمور الخطيرة التى تؤثرا سيئا على مجريات الأمور ، الا اذا كان الجنود والضباط ، دربوا من قبل على أكثر من خطة بديلة ، وبالتأكيد فان الكفاءة القتالية العالية ، والمستوى القتالى الجيد ، والهمة العالية التى يتمتع بها المقاتلون العراقيون ، هى الأسباب والعوامل التى أدت بهم الى النتائج الايجابية التى حققوها على الجبهة السورية ، ولنا أن نتخيل ما كان يمكن ان يقدمه هؤلاء المقاتلون العرب الأشداء الى جانب مقاتلى الجيش السورى الشجعان ، لو انهم اشتركوا منذ اللحظة الأولى فى القتال ، لو انهم تمكزوا فى الأرض قبل بدء المعركة بوقتت كاف ، تعرفوا خلاله على التضاريس وعلى رفاق السلاح السوريين ، لو ... ماذا كان يجرى ؟ كيف كانت ستصير الأحداث ؟ فى التاريخ لا يصح استخدام كلمة (و) ، ماحدث حدث ، لكن التأمل يجبرنا على التفكير من أجل ضرورة استيعاب هذا الدرس ، ضرورة دخول ثقل الجيش العراقى الى المعركة منذ اللحظات الأولى فى أى مواجهة مقبلة ، بهذا نوفر كثيراً من الجهد والعناء ، والدماء .

● ● ●

فى شمال العراق واجه الجيش العراقى ، حالة خاصة معقدة ، من أصعب الأمور ، وأشقها على المقاتل أن يوفق بين دوافع القتال والرحمة تجاه الطرف الذى يحاربه ، يتطلب هذا درجة وعى كبيرة ، واتزانا نفسيا دقيقا ، وهذا لا يتوفر الا بعمل سياسى دؤوب وعر ، عندما بدأ العصيان المسلح ، بدأت اللجنة العليا لشئوون الشمال التى رأسها صدام حسين تتابع مايتم من أحداث فى الشمال ، أدق تفاصيل العمل العسكرى والسياسى ، كانت المركزية شديدة جدا خلال ادارة المعركة ضد القوى الرجعية فى بداية العمليات ، ووقع حادث اعتداء من جانب جماعة من حرس الحدود الاكراد ضد أفراد قرية كردية ، وقام صدام حسين شخصيا ، بتعميم بيان يستنكر فيه الحادث ويشدد على ضرورة عدم تكراره ، وهذا هو الحادث الوحيد الذى وقع طيلة عام كامل استغرقتها الحرب ، نصت توجيهات اللجنة على عدم قيام الجيش بواجبات أجهزة الشرطة فى الأماكن التى يتم تطهيرها ، فى الماضى ، كان ضابط الجيش يعتبر حاكما عسكريا فى القرية أو المدينة، من حقه ان يعتقل أى انسان ، وأعدام أى انسان ، كان الجيش لايقيم فارقا دقيقا بين العمل العسكرى والواجب الانسانى ، كان المقاتلون غير مقتنعين بالأسلوب الذى تعالج به الحكومات الرجعية أو الدكتاتورية المشكلة الكردية ، بالاضافة الى ان الجيش كان خلوا من العمل السياسى الواعى، لكن الأمر الآن كان يختلف ، فى الواقع يبدو حرص الثورة على مصالح

الاكراد • حجم العمل أكبر من كل ما ينشر ، سواء المشروعات الانتاجية التى تقام فى مناطق الشمال ، أو اجراءات الاصلاح الزراعى ، أو عمليات التعمير ، وتعويض ضحايا الحركات المسلحة ، أو أسلوب معالجة المشكلة ، والقدرة الكبيرة على ضبط النفس ازاء تصرفات قيادة القوى الرجعية . قبل بداية العمليات المسلحة ، أصبح لدى كل ضابط « جندى » سواء كان عربيا أو كرديا _ فالجيش العراقى ، يضم عددا كبيرا من الاكراد فى مختلف الرتب ومختلف مستويات القيادة ، وسلم الترقى مفتوح الى أعلى المستويات، ليس هناك أى حظر على نسبة قبولهم بالكليات العسكرية ، ويوجد حاليا قائد فرقة كردى ، وعدد كبير من الضباط فى رتبة عميد فما فوق ، وفى أقصى الجبال الشمالية التقيت برئيس أركان حرب فرقة مدرعة كردى ، ضابط أهله من السليمانية ، وجنود اكراد فى جميع الوحدات التى زرتها فى الجبال ، حيث تقاتل المتمردين ، كل مقاتل فى الجيش العراقى أصبح مقتنعا بواجبه فى الدفاع عن وحدة العراق الوطنية ، واعيا أبعاد التمرد وأهداف الاستعمار الكاملة وراءه ، وكان هذا الوعى ، ينعكس فى تعبيرات الضباط والجنود ، المثقفين والبسطاء ، نفس المضمون ، وان اختلف شكل التعبير ، ويرجع هذا الى العمل السياسى الدءوب المثابر الذى بذلته ثورة العراق فى صفوف القوات المسلحة منذ ١٩٦٨ ، والذى شمل تطوير الكفاءة القتالية ، والسلاح ، الوعى بالقضايا الوطنية والقومية ، لم يحارب أحد المقاتلين بهدف تحقيق مكاسب معينة ، وليسوا أدوات فى أيدى حكومات هم لا يؤمنون بأهدافها ، ان الثورة هى التى توجه وتقود ، كان الواجب الوطنى واضح الأهداف ، يقاتل الجيش بعربه وأكراده ، الى جانب قواته توجد قوات حرس الحدود الكردية وفصائل الانصار التابعة للحزب الشيوعى سياسيا ، ومقاتلين من حركة التقدميين الاكراد ، والحزب الديمقراطى الكردستانى كردية محاربة معادية للملا ، ان الجيش هو الذى يتولى المهام الرئيسية ، بينما تتلخص واجبات العناصر الكردية التقدمية فى حماية أماكن محددة ، والاشتراك فى بعض العمليات ذات الطبيعة الخاصة ، لقد قررت الثورة منذ بدء القتال ، ان تحارب العصيان حتى يتم رفع الراية البيضاء نهائيا ، كانت توجد أكثر من معادلة صعبة تعمل الثورة على تحقيقها ، الحزم الشديد فى مواجهة العصيان ، والمعاملة الانسانية ، بعد بدء القتال أصبحت المناطق الشمالية موزعة الى ثلاثة أقسام :

- مناطق حمراء حيث يدور فيها القتال •
- مناطق صفراء حيث توجد قوى تندس فيها بعض العناصر المسلحة التابعة للعصاة بحكم صلات القربى ، والعشائرية .
- مناطق خضراء ، وهى التى يسودها الاستقرار وتوجد بها جميع أجهزة الخدمات والمشروعات التى تنفذها الثورة •

فى الجانب المقابل ، كان العصاة ، ومن ورائهم أجهزة الدعاية الاستعمارية التى تعمل على مستوى محلى ، ومستوى عالمى ، يبثون الدعايات ضد الجيش ، يقولون للقرويين ، ان الجيش اذا وصل فانه ، سيجدع

أنوفكم ، ويقطع أذانكم ، ويعدم أطفالكم ، ويحرق الزرع ، ويبيد القرى ، ويهتك أعراض نسائكم ، وتحت تأثير هذه الدعاية ، في البداية ، كانوا يقومون بترحيل كثير من العائلات الى المعسكرات التى أقيمت في ايران لايواء هؤلاء اللاجئين ،وبالطبع كلما تزايد عددهم أصبح للمشكلة جانب عالمي ، يمكن استغلاله للدعاية المضادة للثورة ، ومن ناحية أخرى يتم تجنيد شباب ورجال هذه العائلات في صفوف التمرد ، وربطهم تماما ، بالقوات المتمردة نتيجة وجود عائلاتهم فى ايران .

مع بداية الحرب ، وبدء العمليات ، بدا واضحا لأهالى المناطق التى دار فيها القتال حرص الجيش على التعامل الانسانى معهم ، لم تحرق قرية واحدة ، ولم يهتك عرض امرأة ، ولم يعدم طفل ، وجرت عدة حوادث ذات دلالة ، حدث في احدى الليالى ، ان فاجأ المخاض سيدة كردية ، اشتدت آلامها في ليلة بلغ فيها التوتر اشده حتى ليعجز العصفور عن الطيران ، تزايدت آلام السيدة ، وبدت معزولة عن أية مساعدة يمكن ان تأتيها من العالم ، عام قائد التشكيل المسلح العراقى فى المنطقة بالأمر ، طلب حضور طائرة هيليوكبتر صغيرة ، وبرغم الخطورة المترتبة على طيران الهليوكبتر فى الليل . الا أن الطائرة جاءت ، وتم نقل السيدة الى المستشفى القريب ، حيث تمت ولادتها بيسر ، فى منطقة أخرى كان بعض المتمردين فى مغارة عميقة من هذه المغارات التى تمتلىء بها جبال الشمال ، سقطت بعض القنابل أمام المغارة واحترقت الحشائش الجبلية ، تدفق الدخان الى المغارة ، علت أصوات استغاثاتهم ، وتقدم جنود الجيش . واتخذوا الاجراءات اللازمة لانقاذهم . فى منطقة أخرى ترك العصاة خلفهم بعض الأفراد المصابين اصابات خطيرة ، وكانت حياتهم مهددة ، ومن الضرورى اجراء بعض العمليات الجراحية العاجلة فى نفس مكان اصابتهم . وسارع القائد العسكرى العراقى بارسال فصيلة طبية تضم بعض الاطباء والممرضين ، وأجروا للمصابين عمليات جراحية عاجلة ، برغم خطورة المنطقة ، وتوتر الموقف فيها ، ثم نقل المصابين جنبا الى جنب على نقالات وضعت فى طائرة هيلو كبتر مجهزة لاخلاء الجرحى الى المستشفى الميدانى القريب .

كانت الثورة شديدة الحسم في محاربة العصاة .. شديدة الرحمة مع من يستسلم منهم ، بعد صدور أول قرار عفو عام تقاطر الموظفون والعمال والفلاحون المغرر بهم ، يجيئون الى أقرب القطاعات العسكرية ، يرفعون الراية البيضاء ، ويستقبلون ، تقدم لكل منهم مساعدة مالية ، يعود الموظف الى وظيفته فورا بدون أى مساءلة أو أستجواب ، لم يتعرض أحدهم لاستجواب، وفى هذه الحالة ، كانوا هم الذين يبادرون بالادلاء بالمعلومات التى لديهم . ويعود العمال الى مصانعهم والفلاحون الى قراهم ، وفى الموصل حيث مصنع الغزل والنسيج كان به ستة عشر عاملا كرديا التحقوا بالعصاة ، عادوا بعد صدور قانون العفو العام ، استلموا أعمالهم فورا . والطريف ان ادارة المصنع صرفت لهم مرتباتهم عن الفترة التى تغيبوا فيها وكانوا يحاربون خلالها الثورة ، بل ان قسما كبيرا من الاكراد الذين لجأوا تحت الضغط

التى ايران قطعوا ما يقرب من ثلاثة آلاف كيلو مترا ليدخلوا من ناحية الحدود التركية • العراقية تمت اعادتهم فورا الى قراهم بواسطة عربات الجيش وقامت القوات المسلحة بدفع أجورهم وأجور انتقالهم التى تكلفوها أثناء رحيلهم من ايران وحتى الحدود التركية العراقية •

كان الجيش يسعى لاعادة كل السكان الى القرى ، ولان الظروف التى كان يحارب فيها الجيش قد اختلفت فأصبحت القرية المزدحمة بالسكان أكثر أمنا بالنسبة للجيش من القرية المهجورة ، القرية المليئة بالسكان لايمكن ايواء العصاة بها الا فى حدود ضيقة جدا ، وفردية جدا ، بعكس القرى المهجرورة ، ثم ان تواجد الأهالى فى قراهم يتيح للجيش تقديم الخدمات واقامة المشروعات التى تثبت جدية الثورة وحسن نواياها فى خطواتها من أجل التغيير الجذرى فى الموقع الكردى ، وكان الجيش يوزع على الأهالى أسلحة لحماية أنفسهم وعارض البعض ، ربما انضم عدد من العصاة بذلك السلاح ، ولكن نظرة الثورة كانت ابعد ، أن اعطاه السلاح يعنى الثقة من جانب الثورة ، وفعلا هرب البعض الى الجبل بالسلاح ، ولكنهم كانوا قلة لاتوازى الأثر الكبير الذى أحدثته هذه الخطوة والتى ادت الى نتائج ايجابية فى المجالين السياسى والعسكرى •

هذه المواقف كان لها تأثيرها الايجابى ، ولا شىء يخفى فى المناطق الشمالية بالعراق ، مايحدث يتناقلة الجميع ، مهما بعدت المسافات أو اختلفت وجهات النظر ، ومواقع الناس ، بدأ الكثيرون يتوافدون عائدين بعضهم ترك عائلته فى ايران والتحق بصفوف الثورة • وكثيرا ما كان الجيش هو الذى يتولى ادارة الأعمال الخاصة بالخدمات ، كتقديم الطعام ومواد الاعاشة ، والاغطية والمعونات العاجلة للذين أضيروا فى القتال ، بمجرد دخول الوحدات العسكرية الى قرية كان يحتلها العصاة ، تبدأ على الفور اجراءات تأمين استمرار الحياة وتطبيق كافة قوانين الثورة بما فيها قانون الاصلاح الزراعى الذى يربط الفلاحين بالأرض ، ويضرب النظام الاقطاعى فى الصميم ، فى الجانب المقابل كان العصاة يرتكبون أعمالا تضر بمصالح الجماهير الكردية ، لقد طبقوا أسلوب الأرهاب فى التعامل مع المواطنين وخلال السنوات الأربع الممتدة من ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٤ أرتكب العصاة (٣٧٩) حادثة قتل ضد العناصر التقدمية الكردية ، و (٢١٩) حادثة خطف ، و (١٥٧) حادثة اغتصاب ، و (٢٩) حادثة سلب و (١١) حادثة تخريب فى السكك والقطارات و(٦) حوادث تخريب فى منشآت الكهرباء و (٣) حوادث تخريب فى القناطر والجسور ، والطرق ، بخلاف حوادث تخريب أخرى مختلفة ، ومحاولة نسف خطوط أنابيب البترول خلال الفترة التى وجهت فيها الثورة انذارها الى شركات النفط الاستعمارية سنة ١٩٧٢ قبل التأميم • وحرق القرى الكردية الموالية للثورة ، وضرب المواطنين فى هذه القرى بالمدافع ، تشريد المواطنين الاكراد من قراهم ، القاء المتفجرات والقنابل على بيوت بعض العناصر الكردية التقدمية ، وقد قام الرجعيون بوضع العراقيل المتعددة لتعطيل تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، وتصد العصاة

لتنفيذ القانون حتى ان الأجهزة الادارية لم تستطع تنفيذ أحكام القانون بالمناطق المتاخمة للحدود الايرانية ووصل الأمر الى حد اختطاف بعض موظفى الاصلاح الزراعى واجراء التحقيق معهم من أجل أرهابهم وتمرير الأمور التى يريدونها أثناء التطبيق ، وعدم مساعدة لجان البحث فى معرفة شخصيات الفلاحين المراد توزيع الأراضى عليهم بهدف وضع العقبات أمام لجان التوزيع ، وتركزت هذه الاجراءات فى محافظة دهوك ٠

يقول قادة أحد التشكيلات المسلحة فى الشمال :

ـ هناك مبادىء يجب أن يتحلى بها الثائر ، أولها التعامل بخلق الفرسان ، بخلق نضالى ، هؤلاء بدأوا تعاملهم اليومى مع أخوانهم الأكراد أكثر بشاعة ، كانوا يعملون ضد مصلحة الشعب ، ومن هنا كان لابد لاجراءاتهم أن تتسم بالارهاب والاغتيالات ، وبالتالى تتزايد عزلتهم عن الجماهير الكردية ٠

● ● ●

ويصل الليل الى ساعة متأخرة وغدا فى بدايات الصباح الباكر سنتوجه الى خليفان ، الى راوندوز ، الى حسنان ، الى أقصى منطقة تقدم اليها الجيش خلال العمليات الأخيرة ، وعندما عبرت بنا السيارة شوارع كركوك رحت أرقب سماءها المتوهجة بنيران أزلية ، وعقلى يسرح الى الجبال البعيدة وما تحفل به من خطر ، انفجارات ، وصراع ٠

المحور الثالث

حسنان ـ الجولان ـ كلى على بك

خليفان ـ الجولان

جبهـة القتـــال :

نحن الآن على الطريق المارة بقرية خليفـان التى تقع فى الوادى : الى اليمين منا ينتصب جبل كورك الصخرى المرتفع الى حد انه يقيم ما يشبه السد الصخرى فيحجب انطلاقة السماء ، يواجهها باستدارة فكأنه بطن الحامل . ارتفاعه ٢١٢٧ مترا ، والصعود الى قمته يستغرق ثمانى ساعات على الأقدام أو بالبغال بدون قتال ، صخوره جيرية مقددة تبدو كأنها تغلق كل الســبل . المدخل والمخرج من والى الوادى الذى نزلنا فيه ، بل يبدو كاكانه يتحدى طائرات الهيلوكبتر التى كانت تنزل وتطلع باستمرار وعندما تصل فوق (كورك) تبدو كأنها فى صراع صـامت معه ، ثم تختفى فوق مضيق (كلى على بك) ، ان ثلوجا قليلة تغطى قمة الجبل الذى رصـعته أشعة الشمس الواهنـة بدرجات عديدة من الظلال ، يبــدو الجبل أصم لا يفصح عن نفسه ، عبوسا خطــيرا فى وجه من يحاول اقتحامه ، ولكن هذا السد الصخرى الجبار الذى يبدوى لنا واجهته من الوادى فقط ملىء بالدروب التى يعرفها البشر ، يحفظون التواءاتها وانحناءاتها ، ويستغلون منعطفاتها لتحقيق المفاجأة فى القتال ويقتتلون حولها حتى الموت ليستولوا على هذه المنعطفات والزوايا ، ويحذرون منها عند صـعودهم ، فى هذا الصخر العظيم ممرات سرية ايضا ، وقمم كاذبة تخفى قمما أعلى ونخفى معها الخطر ، رحت اتطلع الى موقع ميدانى منصوب باتجاه الجبل وكأنه تهديد صامت فى مواجهـة الخطر الكامن غـير المرئى ، فى الوادى رايت الحرب ، تلك العلامات التى تميز المكان الذى يدور فيه قتـال ، أو يجرى به قتال ، يشبه الوادى تلك المناطق الخلفية القريبة من الخطوط الأمامية حيث الاشتباك ، غير ان ما يتميز به المكان هنا من حيث الخطر هو اشراف تلك الجبال على الوادى ، كورك الى اليمين بيخال الى اليسار ، بيخــال أقل ارتفاعا ، والاثنان يتقاربان من بعضهما البعض عندما يكونان الجدارين الرهيبين لكلى على بك ، هذا الممر الصخرى العجيب الذى نتج عن مجموعة زلازل شقت الجبل لا نراها الا فى ميدان قتال ، عربات النقل العسكرية تحمل صناديق الذخيرة ذات اللون الزيتونى الغامق ، والبطاطين ، وآلات حفر ، ان حركة سيارة النقل أو السيارة العســكرية تكتسب فى الميدان دلالة خاصة ، يصبح لحركتها مغزى يختلف عما لو رأيناها فى المدينة ، تبدو بألوانها الكاكية ، واطاراتها الضخمة فى الجبهة اكثر منطقية مـع الواقع المحيط بها ، انها فى المجال الذى خلقت من اجله تؤ ى المهمة التى تنتظر القيام بها فترات طويلة ، ربما تنقل هذه السيارات ذخائر ستستخدم بعد قليل ، ربما تنقل جرحى ربما تنقــل طعما للمقاتلين فى المواقع الامامية ، انها حركة الحرب ، على الطريق المرصوف ، يتحرك أيضا عدد من الأكراد المسلحين ، وعمال عرب وعمال اكراد يعملون فى اصلاح بعض آثار القصف على الطريق ، فى الاســفلت حفر دائرية ناتجة عن قـذائف الهاون ، من الواضح انها آثار قديمة ، اذ ان القتال العنيف للسيطرة على هذه المنطقة انتهى فى العام الماضى ، من خلال عينى المنظار المقرب الذى وجهته الى أعلى

قمة كورك ، رأيت حركة بعض الجنود في الاعالي ، اذن فقد روضوا الجبل الصخرى الوعر ، ركبوه ، ولكن يستمر الظل الصخرى جاثما فوق النفوس حاملا معه احساسا ثقيلا بالزمن ، والحرب ، والخطر ، وخواطر عمن ماتوا فوقه ، عاد الينا احد المقاتلين الذى صحبنا من كركوك ، كان قد اندفع الى بقعة من الأرض تحت منفح (بيخال) ، حيث رابطت سرية مدفعيته يوما ، ان حنينه القوى الى الاماكن التى شهد فيها الخطر ، والقتال ، والليالى التى تملؤها رهبة (كورك) والموت ، دفعته الى ان يعود ، وهو يصيح بانفعال ، (هنا كان مرقدى) (هنا كانت المدافع) (هنا .. هنا) وتمنيت لو أن رجاله الذين حاربوا معه كانوا باقين ، أى لقاء حار سنشهده ؟ لا شيء يثير الانسان مثلما تثيره علاقته بالمكان الذى ارتبط بحقبة من حياته ، كحارة أو شارع نشأ فيه طويلا ، أو منزل ارتبط بقصة حب ، أو حادثة معينة فما بالك عندما ترتبط حقبة بمكان شهد فيه الصراع الانسانى ، مضت عليه الليالى وهو يصد الخطر ويدفعه ، ويجيء الليل ليمسى بدون زميل له أو صديق ، عندئذ يمضى الزمن وكل دقيقة تضم حياة بأكملها ، وتمر الأيام والشهور ، ويحدث اللقاء بين الانسان والمكان ، وتتداعى الصور ، والمعانى ، وتخفق المشاعر ، نوجهها عبر قرية خليفان الى المكان الذى سنطلق منه الى أقصى الخطوط الأمامية حيث القتال ، غاصت اقدامنا فى وحل غطى احذيتنا تماما ، انه طين أرض خصبة تنادى شرهة من يزرعها ، وتتلفت فى (خليفان) ، فى البداية لم أشعر أن هناك قرية . كل ما رأيته مجموعة من جدران قصيرة تتفاوت فى الطول ظننتها بعض الجدران التى بنيت لأغراض مختلفة غير السكنى ، وخاصة أن الطوب من حجارة الجبل . بدت وكأنها بنيت من الصخر ، عندما مررت بينها اكتشفت انها بقايا قرية أحرقها العصاة قبل وصول الجيش خلال العام الماضى عند انسحابهم ، وانتابتنى رغبة فى تفقد بقايا الانسان ، دخلت بيوتا ، رأيت أكوابا زجاجية مكسورة شرب فيها الشاى يوما ، وقطعا من ثياب اختفى لونها تماما ، وقش ، وكسرات خبز أصبح لونها أسود أو رماديا وثمة أوراق فوقها كلمات بالكردية أو العربية ، لقد أحرقوا القرية وأجبروا جميع سكانها على الرحيل معهم الى ايران حيث معسكرات الايواء ، وفى بناء من الاسمنت كانت النوافذ مخلوعة ، والسقف مغطى بالدخان الأسود اللزج ، كانت ماكينة توليد الكهرباء فى هذا البناء المربع ، فكوها معهم ، وأحرقوا المبنى ، أما صهريج الماء الذى يقوم عند اعلى نقطة فى القرية فقد دمر تماما ، بعد لحظات كنا نستقل الهيلو كبتر (مى ـ ٨) السوفييتية الصنع ، وبدأ الجبل يتحرك ونحن نتحرك باتجاهاته ، محاولين تخطيه ، وخيل لى ان الصخر يسخر ، (ان ارتفاعكم مؤقت وبعد لحظات تنزلون ، أما ارتفاعى أنا فباق وخالد) .

● ● ●

بعد ١١ آذار ١٩٧٤ بدأ الملا مصطفى البرزانى فى تنفيذ مخططه الرامى الى الانفصال ، تقدمت فصائل العصاة المسلحة ، منعوا المرور على الطرق والمحاور الرئيسية ، بدأوا يرصون الالغام فى المدقات الترابية والطرق الفرعية ، وقامت تشكيلاتهم العسكرية بالهجوم على مواقع الكتائب العراقية

المنتشرة فى المناطق الشمالية . بدأ الحصار الذى حدد لاستمراره ستة شهور ، ولان الثورة العراقية كانت تؤمن منذ فترة طبقا للتحليلات السياسية ان الملا مصطفى البرازنى يتجه الى العصيان المسلح ، فقد انعكس هذا بالتالى على الجيش العراقى ، وخططه التى تم وضعها لبدء التحرك العسكرى لانهاء التمرد يوم ـ ٦ ـ ابرايل نيسان / ١٩٧٤ ، تحركت وحدات القوات المسلحة على عدة محاور رئيسية فى وقت واحد لاعادة الأمن والنظام الى المواطنين ، ولتطبيق قانون الحكم الذاتى ، على محور الموصل تم اندفاع الجيش حتى (زاخو) على الحدود التركية ، حررت جميع المناطق بسرعة ، واستمر قتال متقطع على محور (دهوك ـ عقرة) حيث رابط بعض العصاة فى مناطق جبلية وعرة . واعطيت الأولوية لتحرير الطرق الرئيسية وتأمين اجنابها ، وتحرير العوارض (المرتفعات) الرئيسية وتأمين المضايق .

●● المحور الثانى هو اربيل ـ رواندوز ، نظير فوقه الآن وعلى هذا المحور تم انقاذ كتائب الجيش العراقى المحاصرة فى شقلاوة ، وصلاح الدين ، وحتى ١١ ابريل ـ ١٩٧٤ تم فك الحصار عن جميع الكتائب ، وتحرير مساحات واسعة من الأرض ، لقد تم انهاء حالة الحصار اذن فى عشرين يوما ولم يستغرق الأمر ستة شهور كما قدر الملا مصطفى البرزانى وقيادته العسكرية . فى نفس الوقت وصل الجيش الى دربندى خان ، ودهوك ، وسرسنك ، انهارت القاعدة العسكرة التى كان الملا والدوائر الاستعمارية وضعوا على أساسها مشروع الانفصال ، كانوا يأملون تعويق وصول الجيش حتى تتم اثارة القضية عالميا ، ثم تطرح أمريكا مشروعها فى الامم المتحدة لانفصال كردستان ، وضرب الوحدة الوطنية العراقية فى الصميم . بعد ذلك يمكن القول أن الحرب دخلت منذ ١١ ابرايل وحتى مارس ١٩٧٥ فى مرحلة حرب استنزاف منظمة من جانب العصاة ، تراجعوا حتى شريط ضيق من الأرض محاذ للحدود الايرانية ، حاول العصاة أطالة مدة القتال الى اقصى حد ممكن ، منذ شهر اكتوبر ١٩٧٤ بدأ نزول الثلوج . تصبح الحركة صعبة فى المناطق الشمالية ، سطح الأرض لا يساعد على التقدم بالمشاة .. أو المدرعات ، ومن ناحية أخرى كان من المفروض أن تنشط قوات العصاة فى مواجهة وحدات الجيش ، ولكن يبدو أن روحهم المعنوية قد ضعفت ، بالاضافة الى الأسلوب الذى اتبعه الجيش العراقى وهو القتال بواسطة مفارز صغيرة كمجموعات متنقلة ، سريعة ، خفيفة الحركة مما يساعد على سرعة الحركة فى المناطق الوعرة ، فى الشتاء ، يبدأ السبات : تبدو هذه المناطق الجبلية وكأنها دخلت ثلاجة كونية ضخمة ، وفى مثل هذه الظروف يصبح من الصعب على الجيش التحرك بواحدات كبيرة على المحاور الرئيسية ، ويغلب على الحرب طابع الاشتباكات المتصلة بالمدفعية ، وكثيرا ما استمرت هذه الاشتباكات ليالى بأكملها . وبلغت حدا من العنف ، لاشتراك المدفعية الثقيلة التى تدعم العصاة واستخدام المدافع ١٧٥ ملى الامريكية الصنع ، البعيدة المدى ، مع بداية هذا العام تقرر تغيير ظروف القتال ، وتحقيق مبدأ المفاجأة ، ويعتبر هذا المبدأ اصعب الأمور فى

المناطق الجبلية نظرا لعناصر الملاحظة الجيدة التى تعمل فى اطار طبيعة تساعدها على اتقان عملها ، وبالتالى يمكن رصد الحركات العسكرية كلها ، ويتطلب هذا المبدأ بذل جهد كبير فى اخفاء الحركة ،و الاندفاع باقصى سرعة . فى نهاية فبراير ١٩٧٥ بدأ الجيش العراقى تقدمه على كافه المجاور الرئيسية ، كان الخبراء العسكريون الأجانب فى الجانب الآخر يقدرون ان الجيش لن يتحرك قبل بدايات ابريل ، مع ذوبان الثلوج ، ومجيء الربيع الى المنطقة ، وكنتيجة للتحرك المفاجيء الذى قام به الجيش سقطت على هذا المحور أربعة عوارض هامة ، هى جبل زوزاك ، وجبل هندرين وجبل تاتان والجبل المعروف بظهر السمكة ، وهو جبل يشرف على حوض راوندوز . ارتفاعه حوالى ١٥٠٠ متر ، استطالته مقوسة تماما كظهر سمكة من عصر الزواحف الضخمة ، تحجرت فى هذا المكان ، سلكت الدبابات أوعر الطرق التى لا يمكن لأى خبير عسكرى أن يتوقع استخدام الدبابات بها . اعتمد الجيش على خبرته العريضة فى استخدام المدرعات بالمناطق الجبلية ، وعلى عنصر الأقدام الذى لابد منه فى حالة الحرص على تحقيق المفاجأة . وانهارت معنويات العصاة ، تراجعوا بسرعة وفى طريقهم دمروا كل ما يمكن ان يقع عليه بصر الجيش ، القرى ، المنشآت ، الجسور الخشبية القديمة . ووصول الجيش الى أن هذا المحور : الى جبل تاتان : وحسنان ، يكون قد حقق بذلك هدفا أبعد من الهدف العسكرى ، اذ أن هذه المنطقة التى وصلت اليها القوات تفصل بين قسمين رئيسين من أقسام العصاة ، وهم البهدانيون والسورانيون ، فى الشمال الغربى يعيش البهدانيون ، ويتكلمون لهجة كردية تختلف عن لهجة السورانيين الذين يعيشون فى الشمال الشرقى الذى تعتبر السليمانية مركزا له ، والملا مصطفى البرزانى ينتمى الى قبائل بارزان التى تقع فى منطقة البهدانيين ، ولأنه زعيم عشائرى فقد اسند قيادته تشكيلاته العسكرية الى قادة كلهم من البهدانيين ، وفى المعارك الهامة كان يقدم السورانيين فى المعارك ويجعل البهدانيين فى المؤخرة ، وهذا اسوأ شكل للقيادة يمكن أن يصاحب الزعامة العشائرية ، وأدى هذا الى اضعاف الروح المعنوية للمقاتلين ، السورانيين على وجه الخصوص ، هكذا فصل الجيش بوصوله الى حسنان بين المنطقتين ، وأصبح مرابطا على مشارف (كلاله) معقل الملا البرزانى طوال السنوات الماضية ، أصبحت المنطقة التى تفصل الواحدات العسكرية عن (كلاله) والمدينة نفسها مغطاة بنيران المدفعية المتوسطة ونيران الأسلحة الصغيرة ، أشرف الجيش على (كلاله) ، وكان هذا يوم ٧ مارس ١٩٧٥ .

●●●

واستمرت الهليوكبتر تعبر بنا جبل كورك ، ومن اسفل ، بدأ مضيق (كلى على بك) .

الى اليمين واليسار منا ارتفعت الصخور الازلية (كورك) يكشف لنا أبعادا أخرى بعد ان رأينا واجهته من (خليفان) ، تتداخل الالوان ، الصخور الحمراء القاتمة والبيضاء والسوداء ، واللون الأخضر للحشائش الجبلية

التي قاومت الشتاء وبقيت كطلائع للربيع المقبل ، تطير الطائرة والى اليمين كورك ، الى اليسار بيخال ، الجبل يعلو علينا ويميل بجوارنا ، وينسحب تحتنا ، وكثيرا ما يبدو على بعد امتار منا ، في متناول الذراع ، ونشعر اننا نحلق قرب فوهة بئر صخرية في كوكب آخر ، بئر ضـــخمة جدا ، جدرانها من الصخور ، غير مستوية ، فوق هذا الارتفاع الضـخم رأيت دبابات ، وتذكرت الدبابات العراقية فوق مرتفعات حمرين التي تعتبر بمثابة الدرجة الأولى في سلم صخري وعر ينتهي بعد العديد من الدرجات الى كورك ، تاتان ، سر حسن بك ، وتدور مراوح الطائرة وكأنهـا عبثا تحاول الصعود الى فوهة هذا البئر ، الى أسفل ، يتلوى شريط ضيق من الأسفلت داخل الجبل ، هذا مضيق (كلي على بك) تعرفنـا عليه في البداية من الأعالي ، ارتال السيارات تتلوى ، يبدو الطريق محفوفا بالهاوية ، لقدجرت إفي هذا المم اصعب المعارك واشرسها ، كان الواجب العسكري الملقى على وحدات الجيش للاستيلاء على هذا المضيق الرهيب صعبا ودقيقا ، فالمضيق يعتبر هو المفتاح الوحيد الى حوض راوندوز ، وكل جزء فيه كأن الطبيعة أوجدته ليكون حصنا للمدافع وعقبة في وجه المهاجم ، لكن لنؤجل الحديث عنه عندما نعبره سيرا على الأقدام ، ان المنظر من أعلي يشعرك بالرهبة ، ولكورك حضور قوي في المنطقة ، بقممه المتراصة فو بعضها البعض ، وسفوحه لكم يبدو الانسان ضئيلا وعظيما فوقه في نفس الوقت ، ضئيلا بالقياس الى حجمه وعظيما بالنسبة لامكانياته التي تجعله يمتطي ظظهر الجبل ، ليس بقدميه ، انما بدباباته أيضا ، تلك التي يبدو صعودها الى هذه الارتفاعات الشاهقة نوعا من الاعجاز العسكري . عبرنا بالطائرة مضيق (كلي على بك) نطير فوق حوض راوندوز السهل الأخضر الخصب الذي يرقد مستسلما تحت صخور الجبال العظيمة المحيطة به ، كورك ، بيخال ، هندرين زوزاك والقمم الأخرى في الأفق الشرقي التي تعكس بثلوجها البيضاء نهارا براقا صافيا ، له رهبة بقدر جماله ، تدور الطائرة فوق (زوزاك) حيث يختلط اللون الأبيض بالأخضر ، أهي بشائر الربيع أم الخضرة التي لا تموت بقاياها التي تصمد في وجه الشتاء يوحي زوزاك بالخصوبة ، بعكس زمناكو العجوز الأجرد ، أو كورك الذي يبعث الرهبة بصخوره الجيرية (زوزاك) سفوحه تزرع في الربيع والصيف ، وتجلله ثلوج جميلة تختلط بالنبات ، فتقدم لوحة ألوان رائعة تبدو من الطائرة بديعة في بدايتها ، عنيفة في علاقاتها مع الجبال الأخرى في المنطقة ، لا أدري لماذا خيل الى أن (زوزاك) جبل شاب ، ربما كان من الناحية الجيولوجية في نفس عمر البقية أو أقدم ، لكن ما يثيره من انطباع في النفس هو الالفة والرغبـة في الاسراع الى لقائه ، وعندما تذكرت الحرب تذكرت اسطورة النيرفانا والحسناوات اللواتي ينادين الانسان حتى يذهلنه عن طريقه ، ومدينة النحاس والتحذير الذي وجه الى موسى بن نصير ، حذار أن يلتفت الى الخلف مهما سمع من أصوات جميلة تغريه وتناديه ،(زوزاك) ربما تخفي رقته الخطر كله ، والموت كله هنا

يعيد الانسان النظر الى جماله ، ترى ماذا تخفى فى دروبك السرية؟ ومغاراتك العميقة ، وهذه النباتات الكثيفة ، كم من الألغام رصت فى مدقاتك الرخوة ؟
ويبدو البخار معلقا فى الهواء كأنه نبع من صخوره ولم يتكون فى الفراغ ، ويثير المنظر رغم جماله ذكرى سحابات الدخان التى تظل عالقة بعد انفجار دانة الهاون ، البخار ، عالق بطىء الحركة ، الضوء يتخلله ، تبدو الطائرة وكأنها تمشي على مدرج من الخضرة والصخور ، ألمح خيوطا نحيلة من المياه تنساب فوف (زوزاك) ، خيوط رفيعة جدا ، خيطان ،ينزل احدهما من يمين ، وآخر من شمال ، عند نقطة معينة يلتقيان ، نقطة يحددها استواء الأرض ، أو قانون الجاذبية او دوران كوكبنا حول نفسه ، أو قوانين خفية تحكم كوكبنا لا ندرى عنها شيئا . يكونان خيطا أغلظ ، يعبر صخورا ، يملأ حفرا ثم يفيض ويمضى من جديد ، ليلتقى بخط مائى غليظ قادم من اتجاه آخر ، يتحدان ، يصبحا مجرى مائيا نحيلا ، يستمر ، يحفر لنفسه طريقا وسط الصخور ، ويدور حول مرتفع من الأرض ويعبر مدقا ، ويلتقى هنا بمجرى نحيل قادم من اتجاه آخر ، يتكون مجرى أكبر ، تصبح السرعة أشد ، والتدفق أسرع ، تتحدى المجارى ، وهكذا تتكون الانهار الصغيرة ، الزاب ، خسروان ديالى ، ثم تتدفق الانهار الكبيرة ، دجلة . الفرات ، النيل ، وتصب الأنهار فى البحار وتصب البحار فى المحيطات ، نظام رائع وترتيب أروع ، من يرى الأنهار فى بداياتها ، تلك الخيوط المائية النحيلة الناتجة من ذوبان الثلوج والعيون الجوفية ، لا يستطيع أن يتخيل انها نفس المجارى التى تؤدى الى تكوين تلك الأنهار العريضة الهائلة التدفق ، من أعلى تابعت حركة الماء الدءوبة العجيبة ، الصابرة ، لا شىء يوقف المياه عن اتخاذ طريقها ، رعن نحت الجبل وشق الصخور ، اذا صادفها مرتفع فانها تتجمع ، تعلو ، تعلو لتغمره ثم تتخذ طريقا جديدا ، واذا لاقت خضرة فانها تتدفق اليها حتى تفيض ، وتستمر ،اكتشفت أن المياه السائلة اقوى عناصر الطبيعة واكثرها دقة فى تنظيم نفسها واكتساح كل ما تواجهه ، وكما روض الانسان كورك وزمناكو ، وغيرهما من جبال ، فانه يحاول ترويض المياه ، سواء بتلك الحفر المربعة الصغيرة التى تجمع ماء المطر لاستخدامه فى الرى ، وأ انشاء القنوات الصناعية التى تستضيف المياه فى طريق صنعها الانسان ، أو اقامة السدود عند مناطق معينة من الأنهار وحتى فى هذه الحالة تفرض المياه ظروفا جديدة عندما تنشىء تلك البحيرات الصناعية الضخمة ، كبحيرة دوكان على السد المقام على نهر الزاب فى قاطع السليمانية . أن مساحة تلك البحيرة ٥٠ كيلو مترا ، مربعا وتكفى لارواء ٣٥٠٫٠٠٠ هكتار من الأراضى ، الى جانب بحيرة ربندى خان التى طرنا فوقها من قبل ، واذكر بحيرة ناصر الممتدة الى مئات الكيلومترات من الأرض جنوب أسوان ، ولكن مهما بلغت محاولات الانسان تظل المياه قوة هائلة منظمة ، ومن المنابع والأنهار والبحيرات والتدفق المستمر تبرق الأفكار ، والدلائل ، هذه الخطوط الصغيرة تخلق انهارا كبيرة ، وهذا الاصرار العظيم فى التدفق والسيولة المستمرة مهما بلغ ضعف الماء ، هذا الضعف يتحول شيئا فشيئا عند مناطق معينة الى شلالات هادرة شقت طريقا فى الصخر القاسى ،

وتجرف في اندفاعها كل ما تواجه ، فيما بعد رايت دجلة وقد اخترق جبال حمرين في الغرب ، وعندما توسطت النهر رأيت حواف الصخور مفصوصة كأن سكينا هائلة نزلت على الجبل فقطعته ، وتدفقت المياه ، قوية ، هادرة ، لا توقفها قوة ، ولا يعوقها عائق .

تبدأ الطائرة في الهبـوط ، وتقترب الأرض ، هـل يمكن ان نطلق (الأرض) على تلك المنطقة التي تقترب منها ؟ ماذا اذن ؟

هذه التكوينات الغريبة من الصخور والجبال والارض المتربة والثلوج الناصعة البياض ، لقد وصلنا الى منطقة (حسـنان) .

●●●

للوهلة الأولى في (حسـنان) يخيل اليك أن الكرة الأرضية قد مالت قليلا الى الخلف عن وضعها الطبيعي ، لا أرض مستوية ، المكان كله مقعر ، تحفه من الجانبـين مرتفعات جبلية تقوم كجناحـين فردا الى اعلى بميـل خفيف ، الى اليمين جبل تاتان يشهق الى اعلى ، تغطيه ثلوج بيضاء كالرداء الأبيض والى اليسار جبل أقل ارتفعا مغطى بالطين والوحل . والحركة فوقه دؤوبة ، مستمرة طوابير من البغال بنية اللون تصعد الى أعلى . وطوابير أخرى تنزل الى أسفل ، وجنود يحملون الأثقال او الاسـلحة بينما يتطلع آخرون شاهري السلاح الى الجبل والطرقات . دارت معركة كبيرة هنـا منذ ساعات ، والى أعلى جهة اليسار يرتفع جبل (سر حسن بك) . وكأنه الأخ الأكبر والأطول قامة من تاتان ، أنه يصل الى قلب السـماء ، قمته مدببة كسنام الجمل أو قمة هرم ، تغطيه الثلوج تماما ، ترقب ، وتحصى ، وربما آذان تسمع أيضا ، واضح اننا أقتربنا من الشرق ، كلما ازداد ارتفاع القمم ، واقتربنا من السـماء ، أن جبل هنـدرين الذى رايناه في حوض راوندوز وارتفاعه (٥٩٦) مترا ليبدو قزما بالنسبة لسر حسن بك ، الصخور هنا مغطاة باستمرار ، اما تحت الحشـائش التى تنمو في الربيع والصيف ، أو الثلج ، أو الوحل في الشتاء ، وتتوالى العوامل الطبيعية من أمطار ، وجليد ، وبرد ، وحرارة ، وبرودة ، وتبدل الطبيعة ثيابهـا أكثر من مرة خلال العام الواحد ، ولكن تبقى المنطقة كلها وكأنها لازالت في بداية خلق العالم ، يخيل لى أن الانسان الأول كان يرى نفس ما نشاهده : الانسان لم يقترب كثيرا من هذه البقاع ، فـلا أعمدة تلغراف تلوح ، ولا مبـاني من الاسمنت أو سقوف منازل كردية متدرجة ، مكان قاوم الزمن . والتأثيرات المتعاقبة ولم يستو فتبدو الأرض مائلة ، ويقوم على جانبيه تاتان ، وسر حسن بك فكأننا في قاع العـالم مع اننا فوق قمة حسنان ، النقطة التي نقف فوقها لا يقل ارتفاعها عن سطح البحر عن ٢٫٥٠٠ محدثة ضـجيجا يتناقض مع ابدية الصمت في حسنان ، تستمر الضجة ثوان ، ثم تبتعد ، ونشعر أن صـلتنا بالمدن والدنيا قـد انقطعت . تنطبق علينا الجبـال ، عند أقدام (سر حسن بك) الشامخ . (حسن بك) أحد شيوخ القبائل في زمن بعيد ، لمـاذا اطلق اسمه على تلك القمة العاليـة . وماذا تعنى كلمة سر ؟ ربما تحفل الحكاية الكردية بتفاصيل غير ان كل ما عرفته عنه ، انه دبر

مكيدة ليقذف بأحد اعدائه الى الهاوية من فوق احدى هذه القمم . ويبدو من الحكاية أن سبب ذلك اكتشاف عدوه لطريق سري كانت تسلكه قبيلة حسن بك ، أثناء تحركها بين الجبال .

●●●

ان الثلوج فوق قمته الهرمية تضيء ، تعكس أشعة شمس لا تستطيع الوصول الينا ، وبالعين المجردة لا نستطيع أن نرى أى حركة فوقه . ولكن من خلال عيني منظار مقرب نلمح نقطا صغيرة بيضاء تتحرك ، وكأنها أشباح تطير في السحب ، أو آدميون نراهم من بعيد يمشون فوق الغمام والضباب ، انهم بعض جنود الجيش العراقي ، لقد تم تحرير قمة (سر حسن بك ، وطرد العصاة عنها ليلة أمس ، أو بالتحديد في الساعات الأولى من النهار . نفس الوقت الذي جرت فيه المعركة في حسنان ، ان (كلاله) المدينة التي يعتبرها الملا مصطفى البرزاني قلعته ، تقع عند السفح الآخر لسر حسن بك . وتبدو من أعلى ، وفي الليـل قامت طائرات الهليوكبتر بانزال مجموعات من رجال الصاعقة العراقية ، والمغاوير ، دارت معركة قاسية بالسلاح الأبيض فوق هذه القمة الهرمية الشديدة الارتفاع ، معركة تحت سقف السماء مباشرة وفي درجة حرارة تنخفض كثيرا عن الصفر ، كان الجنود العراقيون لا يرتدون الثياب الخاصة بالجليد ، وبعد أن سيطروا على الموقع جاء صوت القائد ، قائد القطاع من مقره المتقدم :

— كيف الحال ؟

— زين سيدي .

— في الصباح ستصلكم الثياب الخاصة بالجليد .

لحظة صمت ، تتداخل فيها أصوات غامضة تعبر ليل الجبل الغامض ثم يجيء صوت أحد المقاتلين .

— سيدي نحن نتدفأ بالثلج . .

أهي روح السخرية لدى المقاتل الذي يتحدى الليل والطبيعة والسماء المظلمة ، وتلك القمم الوحشية ؟ معظمهم جاءوا من البصرة والكوت والحلة وبعضهم رأى الثلج لأول مرة في حياته ، عندما طلعت الشمس عليهم أثر الليل البارد الطويل . معهم اكراد من جنود الجيش . ولكن لنتخيل هذا الجندي الذي جاء من البصرة حيث درجة الحرارة مرتفعة جدا . ليحارب في ليل جليدي ، وفي ظروف تتطلبها الحرب على الجليد ، حيث تصعب الرؤية ، بسبب الضـباب الثقيل القوام كاللبن مما يستدعى استعمال نظارات خاصة ، في الصباح كانت طائرات الهليوكبتر مع خيوط الضياء الأول تنقل التجهيزات اللازمة للقوات ، قضوا الليلة الأولى بملابس عادية ، يكتسب هذا المقاتل العراقي خبرة قتال فريدة ، مما يمكن له أن يسهم بهذه الخبرة فيما بعد في مناطق تكثر فيها الثلوج — وان كانت أقل ارتفاعا — مثل جبل الشيخ بسورية ، أو الأجزاء المرتفعة من الجولان ، وتستمر حركة البغال على الجبل الراقد تحت سر حسن بك ، فوق ظهورها معدات القتال التي تنقـل للرجال في الاعالي ، يجب تزويد جنـدى المشاة بزحافات

ومساكات ، وملابس ثقيلة مجهزة بأساليب تحميه من قسوة الطبيعة الحارقه ، اما المعدات الحربية فترتكز على عمل الزحافات وتلك لها اشكال عديدة . فمنها الزحافات الفرديه التى يستخدمها الافراد فى بسيرهم وتنقلاتهم على الأقدام ومنها الزحافات الخفيفة التى تحمل الرشاشات الآلية وجماعات المشاة المرافقة لها ، يضاف الى ذلك اعداد بعض انواع المدفعية المزودة بمزالق بدلا من العجل ليتسنى فعها للامام الى المواقع المناسبة بواسطة جرارات خاصة ، هذا وتستخدم القوة البشريه نفسها فى سحب أو دفع زحافات : احيانا لاسيما فى المناطق التى يتأثر فيها الثلج بشكل هش غير متماسك ، اما الايواء فيسبب مشكله أخرى نظرا لعدم ثبات الثلج فى مناطق محددة ، ويتطلب ذلك استعمال خيام خاصة مغطاة من جميع الجوانب ، ويسهل تطبيقها ونقلها بمعرفة الأفراد ، كما انها محكمة الغلق بحيث لا توجد عند استعمالها أى ثغرات يمكن ان تنفذ منها حبيبات الثلج ، لقد واجهت القوات العراقية عدة صعوبات فى مهاجمة هذه القمم العالية ، حيث تمتزج صعوبات حرب الجبال ، بظروف الصراع فوق ثلاجات الجليد ، والتعرف على المكان ، ان القتال فوق ثلاجات الجليد الأبدية تلك أمر مخيف بلا شك ، ونعود الى حسنان ، هل للاسم علاقة بحسن بك أيضا؟ كم عمر المنطقة الجولوجية ، ما هى طبيعة تركيبها ، أسئلة كثيرة لا تجد اجابة سريعة ، لأن الواقع مشحون بما هو آهم ، فالقتال لازال دائرا ، والجبل المرتفع الى الايسر ، به مغارات كثيرة ، وكهوف شديدة الغور ، ومن المحتمل وجود بعض القناصة ، ان الخطر لا يكمن فى الجليد ، والوحشية - والصقيع فقط ، ولكن الحرب مندلعة ، نفس الخطر الذى يواجهه الانسان لحظة الاشتباك سواء فى الصحراء ، أو البحر ، أو الجو ، ولكن تفرض الظروف نفسها على الخطر فتلونه وتغيره ، يظل الجوهر واحدا ، لكن الاطار الذى يدور فيه الصراع يفرض شكلا متغيرا ، ثلاثة انفجارات متعاقبة توالت ، ثلاث قذائف هاون ، أن الهاون بغيض ، يعادل فى تأثير الطيران - اذ تجىء القذيفة من أعلى رأسية ، صفيرها ، وتأثيرها النفسي أخطر ، تحمل فى طياتها عنصر المباغتة ، حيث يمكن اطلاقه من خلف مرتفع ، أو تل ، ويبدو الانفجار متصلا بصداه الذى تردد بين الجبال ، وفى الهواء يتجمع الدخان الرمادى كقطن اتسخ واختفت الفروع التى تحمله ، يظل عالقا ، وتعلو العبارة التى تقال عند القصف ، يصيح أحد الضباط :

ممنوع التجمع ..

ويحمل جندى شظية ساخنة ، مدببة مشرشرة الحواف كأسنان حيوان غامض تم انتزاعها ، أو العثور عليها فى حفريات ، ولا يمنح الذهن تصورا . ماذا لو وجدت طريقها الى رقبة أو ذراع .

انفجار آخر ، نحاسى الرنين ، لم نر المصدر ، ولكنه احد المدافع الجبلية للجيش العراقى ، ان صدى الانفجار يأتى بعيدا ، نائيا ، أشد غموضا ، وأقل وضوحا ، فلا ندرى أين سقطت القنبلة ، أو من اصابت ؟ لكل مدفع صوت ، ولكل انفجار لغة ، تتنوع المصادر ، من دبابة الى هاون الى مدفع جبلى ، الى هاونزر الى ٢٥ رطلا و ١٧٥ مللى فى الجانب المقابل ، ولكن تتداخل الطبيعة

وتضفى على هذه الانفجارات رهبة فى وعورة الصخور والتنقل ورسوخ الجبال ، بينما تظل منابع الأنهار نحيلة فى بداياتها تتدفق فوق الجبال خضراء السفوح ، تتلاقى وتتدافع ، وربما ، اثر سقوط القنابل فوق الثلوج فى ذوبان الجليد ، عندئذ يسرع تدفق المياه قليلا فى العروق والشرايين التى تجرى فوق الجبال ، أو المحفورة فيه ، تسرع قليلا لتعود المياه الى ايقاعها الهادىء المتحدى المشحون باصرار ازلى وكأنها الحياة تبدأ لتمضى السنوات الى المصب .

عبر الايام الثلاثة الماضية سقطت فوق جبل تاتان الذى نقف الآن قرب منتصفه حوالى ٥٠٠٠ قنبلة دانه مدفع مما أدى الى ذوبان الجليد فى بعض المواضع ، سكت القصف ، وهدأت الانفجارات ، وعادت الثلوج تتجمع من الجديد ، تتسرب فى ميعادها الازلى المحدد ، تهب الرياح الباردة ، مسنونة الحواف ، وبلا أى مقدمات تتساقط زخات مطر وتستمر حركة الجنود فوق حسنان ، يصعدون وينزلون ، وكلما طفنا بالبصر فوق تاتان نلمح الكتل البيضاء الصغيرة المتحركة ، جنود الجيش العراقى • تتوالى انفجارات بعيدة الى الامام ، ويهتز رسوخ سر حسن بك (ممنوع التجمع) ، وتتوالى تكتكات صفير متقطع ، وصوت معدنى آت من بعيد ، وأنظر الى عربة قيادة مدرعة ترابط عند منحدر شديد من الجبل ، ان جندى اللاسلكى يرد بداخلها ، ويبدو ايريال الجهاز النحيل تائها بلونة الاسود الداكن فوق هذا البياض الشاهق ، ويتقطع الصفير ويتصل ، ويبدو الصوت الانسانى المغلف بالسلك والمعدن ، أن مناطق الجليد تعتبر من انسب المناطق للموجات اللاسلكية • وعلى هذا يتم استخدام الاجهزة اللاسلكية الخفيفة لربط الجماعات البعيدة والمتناثرة ، ورأيت كوابل ميدانية خاصة لا تتأثر لو القيت تحت الثلج ، وهذه الكوابل مكسوة بطبقة من المطاط السميك ، ولان الجبال مشرقة ومهيمنة فان الموجات اللاسلكية تتعرض لما يسمى بالحجاب ، او الحاجز ، نظرا للمنخفضات والمرتفعات المتوالية ، وتستعمل آلات الازدواج الهوائى التى تسمح بوضع هوائى الجهاز اللاسلكى فى مكان مناسب بعيدا عن الجهاز الذى يوضع فى محل مختفيا بين التعاريج الارضية ، وأجهزة لاسلكية حديثة أخرى ، وكثيرا ما يحدث أن تتداخل الموجات اللاسلكية فى بعضها البعض ، ويتم التصنت ، أو يتم شكل آخر من القتال على الهواء ، اذ يبدأ تبادل العبارات العنيفة بين جنود الاشارة فى هذا الجانب ، والجانب الآخر تتوالى الانفجارات وينطلق مدفع وشاش سريع فى تتابع متصل ، بدا فى الصقيع كماكينة خياطة يديرها مخلوق خرافى لايمت الى كوكبنا ، أن الانفجارات تسكن حينا وتتتابع حينا آخر ، وفوقنا يمتد تاتان ، والى اليسار ينظر الينا (سر حسن بك) من أرتفاع قصى ، وربما ينظرنا قناص حى يكمن فى مكان ما من هذه الصخور المغطاة بالطحالب أو الجليد ، عناصر عديدة تتضافر لتجسد الخطر ، والقتال ، ولكن يظل للمكان تأثيرة الاسمى ، بوحشيته ، وجماله ، وكل ما يضمه من ألوان تتداخل ، تتعانق ، تفترق ، ألوان تمت الى الشتاء ، الى الربيع ، الى النبات ، الى الصخور ، الى الجليد ، الى

الصقيع ، المياه ،ومنابع الانهار ، ومكامن الدبابات والقناصة • ورنين الانفجارات . يظل المكان مستوليا عليك ، يشدك الى عصور العالم الأولى، ويبدو القتال عنصرا غامضا يضيف الى الرهبة بعدا ، وحسا ، ومعنى •

● ● ●

فوق حسنان ، قاع العالم ، بئر الدنيا ، تقف الدبابات العراقية ،وفى حركة دائرية لا تهدأ تتحرك المجنزرات من ناقلات الجنود الآلية ، تحفر فوق الوحل آثار الجنزير التى تشبه سلسلة ضخمة تطوق الارض ، تمسك بحركتها ، ولكن الأماكن التى رأينا فيها الدبابات العراقية ، أو المركبات الآلية لابد أن تثير الفضول ، كيف صعدت تلك الدبابات الى الاعالى ؟ . سواء فوق جبال حمرين أو كورك أو حسنان ، وتاتان ، يتجسد أمامنا عنصر الجرأة فى التخطيط والتنفيذ ، وهذا يؤدى الى تحقيق المفاجأة ، أثناء معركة رد العصاة عن مضيق (كلى على بك) ، قرر القائد العراقى استخدام الدبابات فى تطويق الممر ، وذلك بدفعها فوق جبل (كورك) الذى التقينا به عند خليفان وعبرناه بالهيلو كبتر ، ان درجة ميل السفوح المواجهة لخليفان تبلغ حوالى ٤٧ درجة • وتقدمت وحدات الهندسة الميدانية العراقية، وحفرت طريقا فوق الصخور ، وعندما بلغ الطريق قمة الجبل ، بدأت البولدزرات فى شق الطريق المائل والمتجه الى حوض راوندوز ، حيث المدخل الثانى ، أو مخرج المضيق الرهيب ، استمرت البولدزرات فى شق الطريق. كان البولدزر يمكنه أن يتحرك الى الأمام أو الخلف لتوسيع الطريق . فكان الجزء الذى يمهد يأتى بولودوزر آخر ليتمه ، أى أن الآليات كانت تتقدم باستمرار الى الأمام لتمهيد الطريق ، والبولودوزر الذى يتقدم لا يعود ، لأنه من الممكن التحكم فى الاندفاع على الميل ، أما العودة فأمر صعب. وعندما بدأت الدبابات فى التحرك كانت تواجه نفس الموقف ، الوصول الى حوض راوندوز وتطويق المضيق من الناحية الأخرى وهكذا محاصرته،فى نفس الوقت الذى تقوم فيه وحدات القوات الخاصة ، والمغاوير ، بالنزول بالهيلو كبتر فوق قمم كورك المشرفة على المضيق ، كان أمام الدبابات أن تتقدم فقط ولا سبيل الى التراجع ، وفوجىء العصاة بالدبابات من خلفهم ، نفس الأمر حدث هنا فى حسنان نهار أمس الثلاثاء ، ولم يتوقع العصاة وصول الدبابات الى هذه المنطقة ، وبرغم وعورتها فانهم رصوا حقولا كثيفة من الألغام المضادة للأفراد والمدرعات والسيارات ، واحتلوا مواقع حاكمة • غير أن الدبابات واستخدامها الجرىء الذى ينم على العزم والقدرة والابتكار ليست السبب الرئيسى فى تراجع العصاة السريع، وقتئذ كان فى جانبهم أسلحة حديثة مضادة للدروع مثل صواريخ (المولوتكا) السوفيتية ، و (التاو) الأمريكية (١) وهما من أحدث الصواريخ المضادة للدبابات فى العالم ، ولعب (المولوتكا) السوفيتى دورا حاسما فى معارك أكتوبر خاصة على الجبهة المصرية عندما استطاع مقاتل مصرى

( ) لم تزود به أمريكا إلا اسرائيل ضمن حلفائها واستعمل فى الايام الأخيرة من حرب اكتوبر .

بمفرده بتدمير ٢٣ دبابة وعربتين مجنزرتين ، كان من الواضح أن العصاة قد هزموا سياسيا منذ وقت مبكر ، ان آثار المعركة في حسنان تعكس الصورة بوضوح ، فهذه أسلحة أمريكية ، ومعدات من مختلف أنحاء العالم، وعلب كرتونية مكتوب عليها بالفارسيه .

نان جنكى — جيره عملياتى يكنفره .

وزن خالص — ٥٠٠ كرم .

تاتاريخ ٠٠ قابل استفاده است .

وبين الحين والآخر يحضر الجنود عبوات متفجرة لدانات مدافع الميدان التى يستخدمها العصاة ، حيث يوجد بها بقايا بارود ، يضعونه فوق الأرض ، يشعلونه ، عندئذ يشتعل البارود بنيران لها وشيش ، لكنها قصيرة الأجل سرعان ما تنطفىء مخلفة رائحة حادة يطويها الصقيع والمكان. وفوق الأرض رحنا نمشى بمحاذاة الجدار الصخرى ذى الغطاء الأبيض الناصع لتاتان ، بينما ساد صمت مريب اذ كفت الانفجارات ، والصمت يثير قلقا فى مثل هذه الحالات ، لانه ليس الصمت النهائى ، ربما يتفجر فى أى لحظة ، ربما هنا ، ربما هناك ، ربما فوقنا مباشرة ، تجىء دانة كتبت اسماؤنا عليها لحظة اطلاقها كما يقول الجنود عند استشهاد بعض رفاقهم باصابات مباشرة . ولكن يظل لدى الانسان يقين غامض إنه لن يصاب أبدا وانه سيتفادى الانفجار ، وهذا ما يمنحه القدرة والاستمرار على الحياة فى جوف الخطر ، ما لفت نظرى ثياب بعض المقاتلين ، فانله صوف كاكية اللون ، فوق قميص صيفى ، ملابس ميدان عادية لا تتفق مع الصقيع ، هذه الثلاجة الطبيعية التى نقف فيها ، وتذكرت قدرة الانسان اللامحدودة على التحمل ، ان الاندفاع فى لحظات القتال يدفع بعديد من الاشياء الى خط الاهتمام الخلفى بالنسبة له يوما واحدا ، لحظة متصلة ، لا يشعر بتعب الا بعد انتهاء القتال ، قد يضطر الى المشى مئات الكيلو مترات ولا يدرك الارهاق قدمية الا بعد الوصول ، ان قدرة الانسان بلا حدود ، وطاقته لا نهاية لها ، ويبتسم وجه أحد الضباط .

— عندما تكون مشغولا بشىء لاتهم الظروف ، مادمت فى حركة ، فى تتبع لما يجرى لا أشعر بالبرد ، لو لجأت الى الركود سأشعر بالبرد .

لاشك ان الحرب لها قوانينها الخاصة التى تغير بها طبيعة الزمان والمكان .

فى الحرب يصبح للزمن ايقاع خاص ، يمضى النهار بسرعة ، يصبح الانسان مشغولا طوال يومه ، ما هو حجم الانفجارات ؟ أين سقطت الدانة التى انفجرت منذ قليل ، من أصيب ، صديق أو زميل ؟ أما لحظات الاشتباك نفسها عندما يلتحم الانسان بالانسان يتدغم كل شىء ، كل العناصر ، الثوانى والساعات والأيام والسنين والآمال والهموم ، ويبقى (سر حسن بك) مطلا علينا من أعلى كأنه الزمن لا توجد حوض الموقع ، التجهيزات الهندسية أعدت على عجل ، تتناسب مع ظروف الهجوم لا الدفاع حيث تتخذ العمليات العسكرية للجيش العراقى طابعا هجوميا ، لا تزال المدافع الرشاشة تنطلق فى الأمام ، لا أحد يستطيع أن يدلى بمعلومات عما سيصبح عليه الطقس فى هذه المنطقة الجبلية ، نتطلع الى أعلى جبل تاتان ، القمة

تسمى العش الصخرى ، تبرز بعض اطراف الصخور التى لم تكسها الثلوج وكأنها أنوف للجبل يحاول من خلالها استنشاق الفراغ ، أو تبدو كرؤس أسرى تحاول الأفلات لكن عبثا ، القيد الجليدى محكم وشديد ، يهطل المطر ، قطرات غليظة ، مثلجة ، تتوالى الانفجارات ، يتردد صداها الجبلى الوحشى ، كأنها صرخات الانسان فى بداية خلق العالم ، اذ يتهدده خطر او حيف • وتتوالى صفارات أجهزة اللاسلكى غامضة ، مثيرة ، وكأنها صفير القدر ، ونصعد الصخور ، فى تلك المواضع عشرات الضباط والجنود الذين اشتركوا فى القتال على الجبهة السورية عام ١٩٧٣ ، كانوا ضمن تشكيل اللواء المدرع السادس ، نفس التشكيل الذى يحارب فى هذه المنطقة الآن ، فى يوم ٢١ أكتوبر منح اللواء المدرع السادس وسام الرافدين مع اللواء ١٢ ، (لواء خالد بن الوليد) من قبل القائد العام للقوات المسلحة العراقية ورئيس الجمهورية أحمد حسن البكر •

• • •

أكتوبر ١٩٧٣ :

اللواء السادس المدرع مرابط فى منطقة صخرية وعرة بأقصى الشمال العراقى ، منطقة بعيدة جدا عن الحدود السورية العراقية ، يعتبر أبعد التشكيلات العراقية ، بعد وصول أمر التحرك بدا منذ اللحظة الأولى أن اللواء مجابه بمعركتين ، معركة الانتقال الى الجبهة والمعركة الثانية الاشتباك ذاته ، بدأت المعركة الأولى منذ وصول الأمر ، تدفقت الدبابات واحدة أثر الأخرى على طريق طويل محدود ، فوقه أكثر من لواء متناوب ، وصل التشكيل الى منطقة الصمينن فى القطاع الأوسط من الجهة السورية ، أحتلت المدرعات مواقعها ، واجه اللواء السادس صعوبة تعرضت لها جميع التشكيلات العراقية ، وهى عدم التعرف المسبق على الأرض ، قام قائد اللواء وقادة الكتائب باستطلاع سريع للمنطقة ، استوعبوا معالم الأرض التى يحاربون فوقها ، وساهمت عوامل ايجابية أخرى فى تخفيف المصاعب، مثل الروح المعنوية العالية للجنود ، كما أن طريقة التعبئة التى يتبعها الجيش العراقى تتبع العقيدة الغربية ، وهذا جعل المقاتلين أكثر فهما للعقيدة التعبوية للعدو ، ثم مصاحبة قادة الوحدات لرجالهم فترات طويلة بحيث آن كلا منهم كان يستوعب تماما امكانيات وحدته ، وتسليحها ، ويعرف أفرادها امكانياتهم القتالية والشخصية، كانت الأرض التى استطلعها القادة وعرة لكنها ليست أشد وعورة من الأراضى التى يرابط فيها اللواء بالعراق ، وليست أشد وعورة من المناطق التى حارب فيها من قبل ، انضم اللواء الى القوات العراقية المتواجدة فى الجبهة ، وفى يوم ١٦ أكتوبر كان متأهبا لأداء عدد من المهام القتالية •

• • •

١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

شهد هذا اليوم نشاطا حاسما للقوات العراقية ، عكس موقف قادة العدو قلقهم من التغيير الذى أحدثته القوات العراقية على الجبهه السورية ،

بدأت أجهزة الاعلام الصهيونية تشن حربا دعائية اشترك فيها كبار المسئولين الاسرائيليين ، فى هذا اليوم صرح الجنرال حاييم هيرتزوج :

« اليوم هناك فرقة عراقية فى سوريا ، وقد جاءت من بغداد حيث يحكم جناح حزب البعث المختلف مع الجناح الحاكم فى سوريا ، ويجب أن نرى وراء هذا الدعم ليس الدوافع والفكرى الهستيرى فحسب بل أهداف ودوافع سياسية عربية داخلية لذلك فليس من المستغرب أن يكون العراقيون قد وضعوا بعيدا عن دمشق » .

كانت القيادة الاسرائيلية قد ادركت أن وصول القوات العراقية قد انهى تماما آخر أحتمال لاقترابهم من دمشق أو محاولة أحتلالها ،وكانت القوات العراقية قد انتقلت فى هذا اليوم الى مرحلة الهجوم النشط بعد أن خاضت قتالا عنيفا خلال الأيام السابقة تمكنت خلالها من وقف القوات الصهيونية ودحرها الخلف ، وفى منطقة جبعا ، تل الشعار ، تمكنت القوات العراقية العاملة فى هذا القطاع من ارجاع الاسرائيليين عدة كيلو مترات الى الوراء .

من ناحية أخرى بدأت القوات العراقية ومعها تشـــكيلات سورية وقوات عربية من الأردن والسعودية والمغرب هجوما واسعا على شكل نصف دائرة فى اتجاه الطريق العام المؤدى الى القنيطرة ، وذلك بغرض دفــع الاسرائيليين الى الغرب ، واخراجهم من بعض التلال والمواقع فى المنطقة لتهيئه الأوضاع انتظارا للهجوم المضاد الشامل الذى كانت القيادات العربية تعد له ، فى هذا اليوم دارت معارك عنيفة فى منطقة كفر ناسج ، كان العدو قد وزع قواته كالآتى :

• لواء مدرع وكتيبة مظلمة و ٣ كتائب مدفعية على خط تل الشمس ــ أبو يه .
• لواء مدرع وفوج مشاة آلى و٣ كتائب مدفعية على كفر ناسج ــ تل المال .
• ٢ لواء مشاة وبقايا ٢ كتيبة مدرعة على خط وقف اطلاق النار .
• ٤٠ الى ٥٠ دبابة احتياطى فى المؤخرة .

وفى الجانب العربى تحشدت القوات التالية ق

• لواء مدرع عراقى .
• لواء مشاة آلى عراقى .
• لواء قوات خاصة عراقى .
• لواء مدرع أردنى وضع تحت أمر القيادة العراقية .

كان العدو قد حدد أهدافه بالاندفاع نحو طريق دمشق ــ الشيخ مسكين ، وقطعه لعزل سوريا عن الأردن ، وتضمنت الخطة العربية مهاجمة مواقع العدو بلواءين مدرعين ، أحدهما عراقى والآخر أردنى واحتلال تل المال ــ الطيحة ــ مسحرة ، وبقاء لواء مشاة آلى فى الاحتياط ، ويقوم بحماية الجناح الايمن للتشكيلات المهاجمة ، وساندت الهجوم ست كتائب مدفعية سورية ، وثلاث كتائب مدفعية عراقية جديدة اشتركت فورا فى الهجوم، وأدى القصف المدفعى المركز الى وقوع خسائر كبيرة فى العدو ، خاصة فى مدرعاته ، التى تمركزت فى خط يمتد على شكل قوس من بيت جن فى سفح جبل الشيخ الى سعسع ، وكناكر ، وتل مرعى ، ودير العدس ، وتل

المال وقرية أم باطنة ، ونظرا لانسحاب لواء خالد بن الوليد من تل عنتر فقد عدلت أهداف اللواء السادس المدرع العراقى ، وأصبح منها استعادة التل • وضعت قيادة اللواء خطة استعادة التل على أساس مهاجمة التل من الجناحين الأيمن والايسر ، فى تمام الساعه السابعة من صباح ١٦ أكتوبر تقدمت كتيبة الدبابات المعادية ، وخلال الزحف جرح قائد سرية دبابات بتأثير نيران مدفعية العدو الشديدة ، وعند وصول الكتيبة الى أهدافها شن العدو هجوما مضادا مستخدما الدبابات والصواريخ المضادة للدروع . وتمكنت الكتيبة من تدمير ٧ دبابات معادية الا أنها اجبرت على الانسحاب لتفوق القوات المعادية ، وخسرت ٩ دبابات واستشهد ثلاثة ضباط ، وثلاثة عشر ضابط صف وجندى ، وجرح سبعة •

أما الكتيبة المكلفة بمهاجمة الجناح الايسر لتل عنتر فقد شرعت فى الهجوم الساعة ٨ر٤٥ ، وأثناء القتال استخدم قسم منها لتعزيز هجوم الكتيبة المهاجمة على الجناح الأيمن ، وهكذا أصبح واجب الكتيبة هو محاولة التأثير على العدو القائم بمهاجمه تل عنتر ، وانسحبت الكتيبة بعد اخلاء تل عنتر ، بعد أن خسرت ٩ دبابات ، و ٩ شهداء منهم ضابط واحد ، أما اللواء المدرع الأردنى فقد تقدم الى أهدافه فى مسحرة ، وأثناء تقدمه اشتبك بالعدو فى معركة عنيفة تكبد اللواء خلالها ١٣ دبابة ، ولم يتمكن من الوصول الى أهدافه •

احتل لواء المشاة (الثامن) العراقى المكلف بحماية الجناح الأيمن للتشكيلات المهاجمة موضعا فى غباغب ودير العدس لصد اندفاع العدو من هذا الاتجاه ، هاجم العدو بدرعه هذا القطاع وتمكن من ازاحة احدى كتائب اللواء من مواقعها ، الا أن اللواء تمكن بهجوم مضاد قوى من استعادة هذا الموقع (دير العدس) وتحطيم ٧ دبابات معادية . وقام العدو بمعاودة هجومه مرة ثانية ، لكن اللواء تمكن من صده وفى الساعة الخامسة بدا العدو فى الانسحاب من المواقع المواجهة • فى الليل قام أحد أفواج القوات الخاصة بمهاجمة مأوى دبابات للعدو فى الساعة الرابعة من فجر ١٧ أكتوبر ، طوال الاشتباكات لم تتوقف القوات الخاصة العراقية عن القيام بالغارات ضد العدو •

انتهت معركة كفر ناسج ، يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، واستمرت حتى الساعة الخامسة يوم ١٧ أكتوبر ونتج عن القتال الحاق خسائر فادحة بالعدو ، واستنزاف طاقته الهجومية ، واحباط أهدافه التى أراد من خلالها تحقيق الوصول الى طريق دمشق ــ الشيخ مسكين ــ درعا وعزل سوريا كلها عن الأردن ، الى جانب هذا تحققت أهداف أخرى هامة خلال يوم ١٦ أكتوبر منها :

- تبديل القوات العراقية التى اشتبكت بالعدو بصورة متواصلة خلال الأيام الثلاثة المنقضية على وصولها الى الجبهة وبدون توقف •
- ستر تحشد بقية القوات العراقية التى تقاطرت على الجبهة السورية وبدأت التمركز استعدادا للهجوم الواسع الذى كان متوقعا القيام

●●●

١٧ ، ١٨ ، ١٩ أكتوبر :

واصلت القوات العربية استنزاف طاقة الاسرائيليين بشن العديد من الهجمات ، ومع تدفق القوات العراقية المستمر أوقفت القوات الاسرائيلية تحركاتها الهجومية تماما ، أصبحت القوات الاسرائيلية المتمركزة داخل الجيب فى نهاية طريق مسدود ومهددة بالقضاء عليها فى أية لحظة ، فى نفس الوقت تدفقت المساعدات السوفييتية على دمشق مما دفع بأعداد جديدة من الدبابات والمدفعية الى الجبهة ، لم تعد القوات الاسرائيلية قادرة على انجاز الحسم الذى كانت تتوقعه قيادتها فى البداية ، كما لم تعد قادرة على تسديد ضربة قاصمة الى هيكل الجيش السورى ، أو تهديد دمشق ، وهذا ما سعت اليه اسرائيل منذ بداية مرحلة هجومها المضاد على الجبهة الشمالية فى ١٢ أكتوبر ، والذى بدأ مع وصول طلائع القوات العراقية التى تصدت للهجوم الاسرائيلى ، اوقفته ثم ردته ، محيطة بذلك الهدف الاستراتيجى للعدو ، وهو تطويق دمشق أو احتلالها ، ويجب أن نعى هنا أن حماية دمشق من الهجوم الاسرائيلى ورده عنها ، له اثاره العميقة على الحرب كلها ، تتجاوز حدود العمل العسكرى ، فمن المعروف أن العدو الاسرائيلى يركز على الانتصارات والمكاسب التي تحقق دويا اعلاميا بنفس المستوى الذى يحقق منها مكاسب استراتيجية أو تكتيكية • ولا شىء يعادل هذا مثل احتلال المدن ، فى سنة ١٩٦٧ كانت قواته تندفع الى العريش كهدف أساسى بينما وحدات القوات المسلحة المصرية لا تزال تقاتل فى الخطوط الأمامية ، وعند اعلانه احتلال مدينة يحدث هذا آثارا نفسية ومعنوية مدمرة ، لهذا يمكن القول أن حماية دمشق من السقوط ، ودفع الهجوم المضاد الاسرائيلى ، من الخطوط الأساسية التى أثرت فى مسار ونتائج حرب أكتوبر ليس على مستوى الجبهة السورية فقط ، انما على مستوى الحرب كلها ، والوطن العربى كله ، وخلال لقاءات بالمقاتلين العراقيين الذين حاربوا على الجبهة السورية ، كانوا يتحدثوو عن تلك الأيام ويتوقفون كلهم ليصوغو انفعالا متشابها فى كلمات متقاربة •

أحس أن دمشق أمانة فى رقبته وكأنها أمانة تخصه شخصيا •

فى يوم ١٨ أكتوبر ، تبدلت الأوضاع تماما على الجبهة السورية ميزان القوى أصبح فى جانب الجيوش العربية ، والخطوط الدفاعية حول دمشق أصبح من المستحيل اختراقها ، فى هذا اليوم جزت معركة تل عنتر ، وساحة العمليات فى المنطقة متموجة بها عدد من التلال المسيطرة يبعد كل منها عن الآخر مسافة من ٢ ــ ٥ كيلو مترا وتساعد هذه التلال على المراقبة والرصد ، وتتخلل المنطقة وديان عــدية تساعــد على التسلل والمفاجأة لكنها لا تعوق تقدم الدبابات والمنجنزرات ، ويبلغ ارتفاع تل عنتر ٨٥١ قدما ، ويسيطر على المنطقة المحيطة به ، ويشرف على قرية كفر شمس ودير العدس حتى تل غشيم ، وتل غرابة ، كان العدو يحتل منطقة جديدة تقع وراء خط وقف اطلاق النار عام ١٩٦٧ ، وكانت قواته كما يلى :

- لواء مشاة آلى فى منطقة تل شمس •
- لواء مدرع فى منطقة تل عنتر •

• ٢ لواء مشاة على خطوط وقف اطلاق النار ، معززة بكتيبتين دبابات
• احتياطى حوالى ٥٠ دبابه •
وركز العدو دفاعه على الأسلحة المضادة للدبابات بينما احتفظ بمدرعاته فى الخلف ، بينما احتشدت القوات العربية فى المواجهة ، وكانت التشكيلات العراقية عبارة عن :
• لواء مدرع •
• لواء مشاة آلى •
وكان احتياطى القيادة لواء آخر يقوم باعادة التنظيم ، وكانت القيادة
• لواء مشـاة •
السورية قد طلبت من القائد العراقى الشروع فى الهجوم الساعة السادسة من صباح ١٨ أكتوبر ، غير أن القوات العراقية كانت واصلة لتوها ، ومعظم الدبابات لم تتخذ مواقعها ، كما ان قادة الوحدات لم يقوموا بأى نوع من الاستطلاع فى المنطقة ، وطلب تأجيل التوقيت وجعله الساعة الثالثة من فجر ١٩ أكتوبر ، وذلك لاتاحة الفرصة أمام استطلاع جيد فى نهار ١٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، وتم الاتفاق على هذا التوقيت ، وتضمنت الخطة المراحل التالية:
• احتلال تل عنتر بالمشاة ليـلا ، واندفـاع الدبابات لتعزيز الهجـوم ووصولها مع المشاة لتقليل تأثير أسلحة مقاومة الدبابات وتأمين المباغتة بالاستفادة من الظلام • ثث ثعثعثث
• يهجم لواء مدرع على العدو فى تل عنتر الساعة الثالثو من فجر يوم ١٩، ويدمر العدو هناك ، ويستمر فى التقدم حتى تل (خرين) •
• يقوم فوج مشاة آلى بالهجوم على مواضع العدو فى تل عنتر بالجبهةفى الساعة الثالثة يوم ١٩ •
• تقوم كتيبة دبابات بالهجوم على الجانب الايسر للتل فى الساعةالخامسة والنصف من صباح ١٩ أكتوبر •
• تقوم كتيبة دبابات بحماية الجناح الأيمن للكتيبة السابقة وتصد هجمات العدو •
• كتيبة دبابات فى الاحتياط •
فى الساعة الثانية والنصف من يوم ١٨ أكتوبر ، قام اللواء الركن مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى بزيارة الى مقر القيادة العراقية ، وطلب تأجيل الهجوم حتى الساعة التاسعة من صباح ١٩ أكتوبر ، بدلا من الساعة الثانية وذلك لتنسيق هذا الهجوم مع هجوم لواء سورى على الحدود فى قاطع سعسع ، وجرت مناقشة أوضح خلالها القائد العراقى وجهة نظره فى عدم تأجيل الهجوم حتى الساعة التاسعة من صـباح ١٩ أكتوبر ، واقتنع اللواء طلاس بما قاله القائد العراقى ، الا انه أصر على اجراء الهجوم الساعة التاسعة ، وكان هذا يعتبر أمرا نهائيا لانالتشكيلات العراقية العاملة بالجبهة السورية تحت قيادته مباشرة • غير أن قرار تأجيل الهجوم على تل عنتر لم يصل فى وقت مناسب الى اللواء المدرع السادس الذى وقع عليه الواجب الرئيسى للهجوم ، اذ أن قائد الفرقة العراقى تسلم برقية فى تمام الساعة السادسة صباحا من اللواء المدرع تفيد بأنه تمكن

عن احتلال تل عنتر ، وأن العدو يضغط عليه بشدة وهنا عرف القائد ان أمر التأجيل لم يصل الى اللواء في الوقت المناسب • فى الساعة الثانية والثلاث بدأ تقدم فوج المشاة الآلى الى الهدف وبالرغم من كشف الهجوم من قبل عناصر الاستطلاع الاسرائيلية المتمركزة فوق التل ، وتصدى المدفعية المعادية الا أن المهاجمين واصلوا تقدمهم ، وتمكنوا من احتلال أهدافهم فوق التل الساعة الرابعة والنصف ، وطلب قائد الفوج تقدم سرية دبابات، والأسلحة المضادة للدروع للالتحاق به ، الا أن الاتصال اللاسلكى كان مقطوعا ، وهكذا لم تصل هذه المجموعات اليه فى الوقت المطلوب ، بدا العدو بتسليط نار مدفعية شديدة على التل وبدأت دباباته فى الاقتراب من التل ، ولم يكن لدى فوج المشاة العراقى الا أسلحة مقاومة الدبابات تم دفعها الى النقاط المتقدمة للاستفادة من أقصى مدى لها ، الا أن ازدياد ضغط دبابات العدو ، وعدم وصول أسلحة مقاومة الدبابات والمدرعات أجبر المشاة على خوض قتال تراجعى عبر المواقع التى كسبوها فوق التل ، وكانت الخسائر أحد عشر شهيدا منهم ضابط ، وتسعة وعشرين جريحا ، وأربعة وعشرين مفقودا •

اندفعت كتيبة الدبابات المكلفة بحماية الجناح الايسر لفوج المشاة الى أهدافها ، وصلت بالقرب من تل عنتر فى الساعة السادسة ، الا انها ووجهت بنيران شديدة من العدو أجبرتها على ايقاف التقدم ، وخسرت الكتيبة أربعة عشر شهيدا وسبعة وعشرين جريحا ، أما الكتيبة الأخرى المكلفة بحماية الجناح الأيمن للكتيبة السـابقة فقد استمرت فى تأدية مهامها الا أن صعوبة الموقف بالنسبة للتشكيلين الآخرين ، وتعرضهالهجوم مكثف من الطيران المعادى أوقع فيها اصابات جسيمة ، غير انها صمدت فى مواقعها •

وعلى امتداد يوم ١٩ أكتوبر اشتركت جميع التشكيلات العراقية فى شن هجمات محلية ضد القوات الاسرائيلية ، خاصة فى القطاع وذلك بهدف اضعاف قوات الثغرة تمهيدا للقضاء عليها •

●●●

النهار عمره قصير فى حسنان ، والشمس هنا ضعيفة ، يبدو انها تنهك حتى وصولها الى هذا المكان الموحش النائى من عالمنا ، نقف فوق قمة جبل حسنان ، غير أن تاتان و (سر حسن بك) جعلاه أشبه بقاع البئر ، من الغرب تجىء طائرات الهيلوكبتر ، بينما يتحول الهواء الى نقطة رمادية غامقة ، بامكاننا أن نلمح بعض السحب قرب منتصف سر حسن بك ، وكان الجبل ينفث دخانا ، وتبدو السماء البعيدة فوق القمة الهرمية صافية نائية، كأنها وعد غامض بالوصول ، يبدو ان ثمة اخبارا جديدة •

لقد تم توقيع اتفاقية بين العراق وآيران ، أثناء انعقاد مؤتمر القمة لمنظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) فى الجزائر ، أعلن الرئيسالجزائرى

هواری بومدین نبأ اتفاق ایران والعراق على تسوية المشاكل بينهما .

خاصة فيما يتعلق بالحدود ، ربما لو سمعنا الخبر فی بغداد ، أو القاهرة ، لاحدث صدى مختلفا ، لكن هنا فی هذه البقاع الوحشية ، حيث الجبال الأبدية ، والحرب ، يكتسب الخبر أبعادا أخرى ، وأصداء مختلفة ، ما أعلن في الجزائر ينعكس على ما يجرى حولنا ، ما نراه ونسمعه ، للوهلة الأولى ينطبع فیالذهن مدى ما فی الخطوة من براعة سياسية من جانب العراق ، وبسرعة تبرز الأسباب التى تؤدى بايران الى قبول تلك الاتفاقية، بمعنى أدق انهاء تدخلها المسلح الى جانب الملا مصطفى البرزانی . ولاننا فی أقصى المواقع الأمامية ولاننا فی الجبل ، فمن الطبيعى أن يتطرق حديثنا عن الاتفاق الى الناحية العسكرية ، خلال الفترة الأخيرة شهدت منطقةالحدود العراقية ـ الايرانية ، والمناطق التى تجرى فيها معارك تزايدا ملحوظا فی عدد الجثث التى تعبر الحدود الى داخل ايران ، الجنود الايرانيون الذين قتلوا أثناء اشتراكهم فی القتال ضد الجيش العراقی ، من ناحية أخرى ايرانبدأت تشعر بالقلق نتيجة سبب آخر ، كان عدد كبير من اكراد ايران يتم تجنيدهم وارسالهم للقتال فی صفوف الملا ، ولهذا آثاره البعيدة المدى داخل ايران نفسها ، اذ آنه بمثابة زرع العصيان سياسة مزدوجة تجاه الاكراد ، فهی من ناحية تسمح بايواء الاكراد الذين اضطرتهم الظروف الى النزوح من الأراضى العراقية ، ومعظمهم عائلات اما أجبرت على الرحيل الى الأراضى الايرانية ، لا يتم أى اتصال بين الكردى القادم من العراق .والمقيم فی أحد هذه المعسكرات ، بل ان أجهزة الدعاية راحت تبث الشائعات فی المعسكرات وفی مناطق تجمعات الاكراد الايرانيين لبث الكراهية فی كل جانب ضد الآخر ، فی نفس الوقت تقوم السلطات الايرانية بتسليحالاكراد وارسالهم لدعم التمرد الرجعی ، من ناحية أخرى بدأت الاشتباكات التی كان الجيش الايرانی يتدخل خلالها بصورة مباشرة تشكل عبئا على الجيش الايرانی واستنزافا لأرواح جنوده ومعداته .

وكانت أجهزة الدعاية العراقية تشن حملات قوية ضد النظامالايرانی مما سبب متاعب شديدة فی الداخل ، كانت الاذاعة لاتبث الشعارات أو المقالات السياسية المهيجة فحسب ، انما كانت تخصص برامج تشرح خلالها تكتيك العمل السياسی السرى والعلنی ، بالنسبة للطلبة . والعمال، والجنود ، تشرح كيف يمكن للطالب ان يهرب من رقابة البوليس . كيف يمكن أن يطبع منشورا ثم يوزعه ، ثم تأتی أسباب أخرى . منها ارتباط الملايين من ابناء الشعب الايرانی بالمناطق المقدسة فی النجف الاشرف ، الارتباط الذی كان يدفع بكثير من الايرانيين للحج الى هذه المراقد سيرا وكربلاء ، والكاظمية ، وسامراء ، حيث مراقد ومزارات أئمة الشيعة . هذا على الأقدام ، وفی الوقت الذى قطعت فيه العلاقات بين البلدين ، كانالمواطن الايرانی يرسل من ماله الخاص مبلغا كل عام لايداعه فی صناديق النذور فی المساجد العراقية ، عوامل كثيرة تؤدى الى توقيع هذا الاتفاق . المثير بالنسبة لنا هو ان نعلم به أثناء تواجدنا هنا فی حسنان ، هل سنشهد

المراحل الأخيرة لتلك الحرب ؟ ويحل السلام ؟ تتوافر الظروف المناسبة لتطبيق الحكم الذاتي ، ولتنفيذ المشروعات الكثيرة التي اعدتها ثورة العراق، وبعد ذلك يتفرغ الجيش العراقي لواجبه القومي ، تنتهي تلك الحرب التي تستنزفه ، والتي يعي المقاتلون أحد أهدافها ، شغلهم عن اشتراكهم بشكل حاسم في أي معركة أخرى ضد اسرائيل ، ماحدث في أكتوبر ١٩٧٣ درس نعيه الامبريالية والصهيونية جيدا ، تذكرت سطورا من احدى افتتاحيات جريدة الثورة أيام أكتوبر ١٩٧٣ ، في ١٢ أكتوبر تحدثت الثورة عن العلاقات بين ايران والعراق :

« من المعروف ان علاقات ايران بالعراق كانت قد تدهورت منذ عدة سنوات ، وبلغت درجة خطيرة من التفاقم ، ومعروف أيضا أن العراق ، كان مضطرا وبحكم مقتضيات الدفاع عن السيادة الوطنية الى وضع جزء كبير من قواته على طول الحدود الشرقية للعراق التي تمتد مئات الكيلو مترات، وعندما اندرعت نيران المعارك في ٦ تشرين ، كان العراق قادرا على ارسال قدر من قواته البرية الاحتياطية الى ساحة المعركة بصيغة المشاركة الرمزية ، غير ان العراق لم يكن ينظر الى المعركة ، من زاوية التضامن العربي التي تحدد مشاركته نوعا وكما بالقدر الاعتيادي الذى تسمح به الظروف الاعتيادية ، وانما كان ينظر الى أن المعركة الدائرة رحاها ، هي معركة تحرير قومي عليه ان يشترك فيها بكل طاقاته وبصيغ استثنائية ، وان يتخذ لاجلها قرارات استثنائية ، ويقدم في سبيلها تضحيات استثنائية .

لم يكن العراق يحمل في يوم من الأيام نوايا عدائية تجاه ايران ، وكان يرغب دائما في العيش معها بسلام ، واقامة علائق وثيقة من التعاون معها ، الا أن طبيعة علائق ايران مع أمريكا من ناحية وسياستها تجاه العراق ، ومنطقة الخليج العربي من ناحية أخرى . وطيلة السنوات الماضية ، كانت تحول دون ذلك ، وقد فشلت كل المساعي التي بذلها العراق في هذا الاتجاه ، ومنها اللقاء المباشر الذى تم في جنيف ، في نيسان عام ١٩٧٣ ، بين وزيرى خارجية العراق وايران ، ذلك اللقاء الذى مهدت له زيارة مبعوثين ايرانيين الى بغداد في وقت سابق .

ومع اصرار العراق على نهجه السلمي هذا ، ورغبته الاكيدة الآن وفي المستقبل في اقامة علاقات حسن الجوار مع ايران وحل المشكلات معها بروح التعاون ، والعلائق التاريخية العريقة ،وهو ما أكده كبار المسئولين العراقيين للمبعوثين الايرانيين اللذين زارا بغداد في مطلع هذا العام ، فان القرار الأخير الذى اتخذه العراق والذى عبر عنه بيان مجلس قيادة الثورة في ٧ (تشرين) أكتوبر كان الدافع الأساسي والمباشر له ، هو تحرير القدرة

العسكرية العراقية كي تنصرف كليا الى المساهمة الشاملة في المعركة القومية ، برغم ما يحمله هذا الموقف من تضحيات على الصعيد القطرى ٠

ومع تأكيدنا هذه الحقيقة ، فاننا نؤكد أن القرار الذى اتخذه العراق في ٧ تشرين ليس قرارا تكتيكيا ، يمكن أن يتغير بعد تغير الظروف الراهنة ، فما دام هذا القرار قد أتخذ فانه سيبقى ثانيا مهما كانت الظروف ، ان العراق يتعهد بالتزاماته بشرف اذا قابله الآخرون بروح ايجابية ٠

ومن المعروف أن العراق هو القطر الوحيد بين أقطار المواجهة مع العدو الذى يعانى مشكلة أمن داخلى خطيرة بسبب الأوضاع في المنطقة الشمالية من البلاد ، وليس هنا بالطبع مجال الحديث المفصل عن هذه المشكلة ، ولكننا برغم المساعى التى بذلت على طريق الحل السلمى ، والديمقراطى للمسألة الكردية ، وبرغم ثقتنا المطلقة بشعبنا الكردى ، وبقواه الخيرة ، وبرغم ثقتنا الكاملة برسوخ الجبهة الداخلية وتكاتف كل القوى الوطنية من العرب والاكراد والاقليات المتآخية وشعورها الكامل بالمسئولية ، وبخاصة في الظروف الراهنة فاننا ولظروف خارجة عن ارادتنا وعن ادارة القوة الوطنية الخيرة من العرب والاكراد لانستطيع في أى ظرف تجاهل هذه المشكلة ، والاستهانة بما تحمله من اخطار على وحدة العراق الوطنية وعلى استقراره الداخلى ٠

وبرغم النقطتين السابقتين وما تتطلبانه من اجراءات . تدابير ، على ما فيهما من اختلاف في الطبيعة وفى العناصر وفى الوسائل كان القرار الشجاع الثورى بأشتراك القوات العراقية فى المعركة ٠٠ ويدوى انفجار، ثم آخر ، يتوالى الصدى النحاسى حتى يتوه فى ثنايا الجبال ، لم تنته الحرب بعد ، ومع رحيل ضوء الشمس ، يبدأ البرد ، يوخز العظام ، ليل الجبال يبدأ ٠

● ● ●

يذيب الظلام الصخر ، يصبح وجود سر حسن بك وتاتان محسوسا أكثر مما هو مرئى ، تلمع النجوم بشدة وتبدو قريبة جدا من الأرض واعدادها كثيرة جدا ، يبدو أن سماء المدن تخفى النجوم وتزيفها بالأضواء الصناعية الواهنة ، حواف الجبل والقمم النائية تحدد الملامح ، هنا يصعدون الجبل على ضوء النجوم ، يعرفون الطرق والممرات التى تقترب أو تنأى من الهاوية، يبدو كل شىء وكأنه غير حقيقى ، وكأنه انعكاس لما يدور فى عالم آخر ،القمم العالية مرسومة بدقة على خلفية سمائية معتمة الضوء والنجوم أكبر حجما، وأقرب الى متناول اليد ، فجأة يبدو من أعماق الظلام جذع أو فروع الشجرة

بلوط ، أو منظر صخرة اتخذت هيئة آدمية فكأنها شيخ عجوز يجلس القرفصاء ملتحفا بعباءته ، أو أم تحتو على طفلها ، أو وحش غامض على وشك الانقضاض. وتلمع في الظلام بلورات الجليد كالعيون بتأثير انعاكس ضوء النجوم ، في مواضع معينة تهب الرياح فتبدو لغة غامضة ، ربما تتفاهم بها صخور الجبل وممراته ودروته ، ثم ينزل صمت قد يستمر لحظات قصارا ، أو فترة لا يمسع خلالها الا وقع الخطى ، وحفيف الثياب ، وأحيانا قد يصدر صوت غامض من مكان مجهول ، ربما يشبه صرخة ، أو سقوط شيء ، أو انهيار داخل الجبل، أو اصطدام اجنحة طائر بفروع شجرة ، صوف ليلي لا يفصح عن هويته لم تتعوده آذاننا ، صوت ينتمي الى الجبل ، ويردد الصدى من بعيد طلقات نارية متتابعة ولا يتكلم أحد ، لكن التداعيات المصاحبة لاطلاق الرصاص تتوالى ، ربما بعض الجنود فوق رابية قد لمحوا شيئا يتحرك في الظلام ، اطلقوا عليه النار ، ربما حيوان مرق أمامهم ، ربما بعض العصاة يشتبكون مع الجنود ، ربما اصابت احدى هذه الرصاصات انسانا في مقتل ، في الحرب وخلال الليل ، يبدو الكثير من الاصوات ملفعا بالغموض ، مجهول المصدر ، وقد يكتسب الصوت العادي دلالات وأبعادا لم تصحب صدوره ، يضفي الليل غموضا على كل ما يحتوية الكون ، بينما يبقى وجود الجبال قويا ،مسيطرا .

أن الحرب ضد الطبيعة أكسبت الجيش العراقي خبرة قتال فريدة في هذه الاصقاع ، وجبال العراق أعلى جبال الشرق الأوسط ارتفاعا ، المناطق الجبلية في العراق تعتبر اجزاء من جبال (حكاري) ، وجبال زاغروس على الحدود العراقية/ التركية والحدود الايرانية ـ العراقية ، وتتصل جميع جبال الاناضول ، وجبال ايران ، وجبال العراق بعضها ببعض في اقليم آرارات الذي يبلغ ارتفاعه سبعة عشر ألف قدم . وعلى قمته تتلاقى الحدود الايرانية والتركية والروسية ، فهو بمثابة نقطة العقدة بالنسبة لهذه الجبال، ومايهمنا هو تلك الجبال التي نقضي فوقها ايامنا مع الجيش العراقي في الشمال ، أما الجبال المتوسطة فتقع في منطقة الحدود العراقية ـ التركية، سوف نراها في وقت لاحق ،أعلى جبال المنطقة المحيطة بنا جبل حصاروست، وارتفاعه (٣٦٠٧) مترا ، أي أكثر من عشرة آلاف قدم ، وأقلها ارتفاعا جبل حرير ، وارتفاعه (١٤٤١) مترا ، ويقع شرق اربيل ، والمنطقة مليئة بالمياه الغزيرة وينابيع كثيرة تجري في وديان عميقة ومضايق وعرة ، ثم تصب في نهر الزاب الأسفل ، ومعظمها مكسو بالادغال والأشجار والأعشاب والأزهار ، تزدحم تلك الجبال بالعديد من الحيوانات ، أهمها الغزال والذئب الاغبر ، وأبن آوى ، والأرنب ، والخنزير البري ، واذكر انه أثناء مرور الطائرة الهيلوكبتر فوق جبال حمرين أثناء اتجاهنا الى دربندي خان لمحت قطعانا كبيرة من الغزلان بنية اللون ، وكانت تجري في حركة دائرية ، بتأثير صوت الطائرة الذي لم تعتده في هذه الأماكن ، غير أن أشهر الحيوانات في منطقة الجبال المكسوة بالثلج هو (الوعل الجبلي) ، يطلق عليه اسم (شور ويصيده الاكراد بكثرة وذلك لأكل لحمه في الدرجة الأولى ،

ولاستعمال جلوده كغطاء للسرج ، وقد كان الوعل هدفا للكثير من الرحالة الأجانب ، الموظفين الذين عملوا في المنطقة ، ولانني لم أره شخصيافسوف استعير وصف (هاملتون) له ، المهندس البريطاني الذي أشرف على بناء ذلك الطريق العظيم الذي يخترق مضيق (كلي على بك) :

« ربما عد الوعل الذكر العجوز الذي يعيش في الجبال الكردية ، ارشق واسرع حيوان على وجه البسيطة ، بقرونه ذات العقد التي تمتد متقوسة فوق ظهره الأبيض المربد ، وهو يعيش في الجدران الصخرية الشامخة التي تؤلف الأوجه شبه العمودية لجبال زاكروس ، ويكاد يتعذر على المرء أن يظفر بلمحة واحدة من هذا المخلوق المهيب الا عند حلول موسم السفاد ، ويقع في فصل الشتاء ، عندما يزيد الثلج والجليد صعوبات كثيرة الى عملية تسلق الصخور ، وخلافا لهذه الفترة من الزمن تختفي الذكور الضخمة البيضاء طوال الوقت في مواضع مجهولة لا يعرفها أحد • ولانشاهد غير الأناث الرمادية وصغار الذكور منها • الا أن (البالغين) الكبار ، تلوح للرائي في فترة من شهر يناير تقارب العشرة أيام ، فتبدو منتصبة وهي في وقفة الحراسة والتربص ، تلوح بشكل غامض وهي تقود قطعانا كبيرةمن الاناث ، انها أمكر الحيوانات ، واشدها حذرا • ما ان يسمع ذكرها المتقدم السن ، اخفض صوت بشرى ، كحفيف ثوب خلف صخرة أو حركة خفيفة يأتيها صياد على بعد مئات الياردات ، حتى تراه ينفر نفارا ويتوثب فوق السفوح حيث يعرف شقوقا فيها مواطىء قدم ، ويتقن مسارات سرية لايقوى على اللحاق به من خلالها لا الانسان ولا الفهد الثلجي ، ولا النمر ، انهليتوثب كالبرق الخاطف بين الصخور ليندفع نحو أقرب جرف شاهق ، وان أصيب برصاصة صياد محظوظ مع ذلك فانه يظل بعيد المنال في موقعه المنيع ، وبينما يعالج سكرات الموت ، نراه يندفع الى مكان يعتذر الوصول اليه • ويبعد مئات الأقدام عن موضع اصابته • فهناك يسقط ليصبح وجبة طعام الصقور ، أو ليجرف الى الأسفل مع السيول الجبلية » •

وفي الجبال توجد أنواع عديدة من الثعابين ، ويعتقد الاكراد في الجبال انك اذا قتلت حية فان أخرى من عشيرتها سوف تسعى في أثرك مهما بعدت بك المسافة •

في الجبال توجد أنواع خطيرة من العناكب ، ويبلغ طول بعضها ست بوصات ، وبعض الناس يشغلون بصيد العقارب وواحد من هذه العناكب ويضعونها في صحن ليشهدوا العراك الذي ينشأ بين الطرفين ، أما العقارب فكثيرة ويوجد منها أنواع سوداء كبيرة الحجم شديدة الفتك •

في الجبال أنواع كثيرة من الطيور ، الصقر الذي يحلق على أرتفاع شاهق ، والعصافير ، والقنابر وال (فنج الذهبي) و (أبو زريق) وهوطير ملون بالأبيض والأسود ، له ذيل طويل ، ويشاهد الغراب ، والأشجارالتي تحيطنا في حسنان ، أو تبدو فوق الجبال تنتمي الى أنواع (البلوط) والعرموط ، والزعرور وغيره من نجوم الشجر ، وأشجار الجنار ، والدردار ، والحور ، والتوت ، والصفصاف ، أما أنواع الزهور التي تتفتح مع الربيع فلا حصر لها •

فى الجبال تتعرج الممرات ، ولا يمتد الطريق فى خط مستقيم لمسافة طويلة ، وتخفى الصخور ماوراءها ، وفى احشائها يمتد عدد كبير من الكهوف، كهوف يبلغ عمقها عدة أمتار ، وكهوف لم يعرف عمقها بالضبط حتى الآن ، متداخلة ، كل قاعة فيها تؤدى الى أخرى ، تسكنها الوطاوط ، والحيوانات الوحشية ، وترقد فيها هياكل عظيمة لبشر ماتوا منذ فجر الانسانية ، وتستخدم كمخابىء للسلاح والذخيرة ، والاكراد الفيليون يعتبرون الكهوف التى تقع فى نطاق أراضيهم من الأسرار التى يجب الا يعلمها غريب ،ولايكشفون سرها لاحد . وكثيرا ما تأوى الدببه الى هذه الكهوف خاصة عند الارتفاعات العالية ، ومن الكهوف الشهيرة فى المنطقة ، كهوف (كوسيه سيى) . فى مضيق : (به رسرين) ، وعدد آخر من الكهوف التى تتشعب فى بطن الجبل خلال ممرات ودهاليز لمسافة عدة كيلو مترات ، وكثير منها لم يكتشف حتى الآن . لكنها تظل عنصرا من العناصر التى تساعد على المفاجأة ، وتضيف أبعادا الى اخطار الجبل التى لا حصر لها ، والتى يضاف اليها صراع الانسان ضد الانسان ، ومحاولته استغلال ما اختص به الجبل من ظروف وحيوانات وطبيعة لتغليب جانبه فى هذا الصراع .

على مهل يخف سواد الليل ، وكان ثلوجا خفية ذابت فى السماء ، وامتزج الماء الرقراق بالظلام ، النور يتبدل ، أزرق شاحب ، بأسى تتوارى النجوم ، تحنو . سماء صافية معتمة ، وتبدأ الأشياء تتحدد من جديد ، اطراف الصخور ، وقمم الجبال ، وذوائب الأشجار ، ومجارى المياه وفروع النبات والملامح ، الوجوه ، والأصوات ، يصبح اللون الأخضر صريحا ، وتتحدد التفاصيل ، باختصار يولد الكون من جديد ، ومن عل يطل علينا (سر حسن بك) ، يتبدل الليل والنهار ، والطقس ، والفصول ، والانسان، ويبقى رسوخ الجبال ، ومع النهار الجديد يجرى حديث عن المرحلة الجديدة ويرتج النهار الوليد بانفجار .

مع الضياء الأول ، تتطاير الشظايا ، ويشتعل البارود . لايزال القتال مستمرا .

نعود الى) خليفان) .

●●●

مرة أخرى نرى مضيق (كلى على بك) من الجو . السيارات التى تتدفق فوق الطريق النحيل الملتوى داخل المضيق . وأرى الدبابات مرة أخرى فوق (كورك) ، الآن سنعبر (كلى على بك) ، سمعت عنه كثيرا ، وقرأت عنه أكثر وكان جنود الجيش العراقى اذ يتحدثون يذكرون (كلى على بك) كمثال على وحشية الطبيعة ، وقسوة الظروف التى حاربوا فيها ، غير ان الخيال البشرى مهما بلغت حدته لا يمكن ان يتصور (كلى على بك) الا اذا تعرف اليه عن قرب ، ورآه رأى العين ، ويقترب (كورك) منا ، يوشك ان يحاذى الطريق المسفلت الذى نسير فوقه ، الى اليسار جبل أقل ارتفاعا اسمه (نواخين) ، يقترب كورك ونواخين حتى يشكلا مدخلا ضيقا ، ويستمر الطريق المسفلت محاذيا لنهر راوندوز ، أحد روافد

الزاب الأعلى ، رأينا جزءا منه عند (خليفان) وها هو يحاذى الطريق ، قاع النهر ملىء بصخور مختلفة الاحجام ، وأشجار لم تورق بعد ، وعوسج متشابك ، واشواك ، تتدفق المياه بسرعه ، وتثير دوامات صغيرة ، أصبح (كورك) فوقنا الى اليمين ، و (نواخين) فوقنا الى اليسار ، يعلو الطريق بالتدريج ،يبعد مجرى النهر المتدفق السريع عنا ، وتبدو المسافة التى تفصلنا عنه منحدرة ، بلا سور هاوية ٠

لقد دخلنا (كلى على بك)٠

●●●

يبدأالمضيق كلحن ينساب بحزم ولكنه هادىء ، مخادع ، يغرىبالتقدم وبعد انقضاء مسافة ، تتضح الوعورة ، وتتشح الجدران الصخرية بألوانها الحمراء المتدرجة والمختلطة بلون أسود ، ويبدو ما يشبه الدرجاتالطبيعية أما الجبل فكأن قوة هائلة غريبة لاتمت الى عالمنا شطرته الى قسمين فأصبح كورك ونواخين ، يتدفق النهر فى القطاع الذى أصبح بعيدا ، ونتوقف لتمر سيارات نقل عسكرية ضخمة ، طابور طويل يسير فوق شريط الأسفلت النحيل تتوالى السيارات متجهة من خليفان الى حوض راوندوز ٠ كنا نراها من الجو ، والآن نفسح لها الطريق ، ونرى أحد رجال الانضباط العسكرى يشير بيده لسيارات قادمة من الناحية الأخرى ، لابد من تنظيم دقيقللمرور فى المضيق اذ أن الطريق يمر على ارتفاع كبير ، محفوف بهاوية تؤدىالى قاع نهر راوندوز ، والطريق لا يستقيم ، انما يلتوى فجأة وينحدر ، ويعلو، لهذا لابد من الحذر الشديد ، وان كنت الاحظ السرعة العالية التى تمضى بها المركبات ، وبرغم ذلك لا توجد فى المضيق كله سيارة مقلوبة فى القاع أو معطلة ويرجع هذا الى دقة الانضباط العسكرى داخل المضيق ٠ وتقفز الذاكرة الى الطريق الصحراوى المؤدى الى الحدود السورية عندما ازدحم بالمدرعات والناقلات العراقية ندرة حوادث الاصدام ٠

وألتفت الى الخلف ٠

تنتابنى رهبة ، لقد أغلق المضيق علينا ، يختفى الطريق عند منحنى فكأنه لا يمتد بعده مترا واحدا ، كأن الجدار الصخرى العمودى الحاد الارتفاع أقيم فجأة ، والى الامام يختفى الطريق أيضا فكأنه يقول ، لاخطوة بعدى ، اطبقت علينا الصخور من جميع الجهات ، والى أعلى كانت السماء تبدو بعيدة فأننا فى مكان صخرى مغلق يبدأ الكون فيه وينتهى ، وتوقف مرور السيارات فلم يسمع الا خرير المياه فى النهر الذى يجرى بالقاع ، هل شق النهر له طريقا فى المضيق ، أم ان الطريق أوجد بعد حدوث هذا الشق الهائل فى الجبل ، كل شبر فى (الكلى) وكأنه مجهز للاستخدام العسكرى ، مصاطب صخرية ، تعلو بعضها البعض ، كهوف يبدو بعضها صغيرا ، الآخر لا تلمح نهايته ٠ حفر ، أماكن كأنما الطبيعة أعدتها لتصبح مقرات للكمائن ، أضف الى ذلك المنحنيات ، والمستويات المختلفة الارتفاع، فوقنا يرتفع جدار عمودى رهيب ينتهى الى ما يشبه الشرفة الصخرية المطلة على المضيق ٠

قال أحد المقاتلين :
ـ انها قمة كذابة ٠

يعنى التعبير ان تلك القمة التى تبدو آخر الارتفاع الشاهق ليست النهاية ، انما تخفى وراءها قمة أخرى أشد ارتفاعا ، وهكذا ، أى انالمهاجم الذى يظن انه سيتحكم فى هذا الجزء من المضيق لو استطاع الوصول الى تلك القمة ٠ سيفاجأ عند احتلاله اياها انه مطالب بمواصلة القتال الى أعلى مرة أخرى ، سلسلة لا تنتهى صخرة سيزيف ، ان وحشية المكان تلقى ظلالا من الرهبة على الانسان ، ويبدو (كلى على بك) ممتنعاً على الاقتحام خاصة فى وجه الهجوم ، كل تضاريسة رصيد للمدافع عنه ، أن المكان ينبىء عن القتال العنيف الذى دار فيه واستغرق عشرة أيام خلال يوليو من العام الماضى ، يعتبر (كلى على بك) مفتاح منطقة راوندوز ، وأكبر عقبة طبيعية وعسكرية فى المنطقة التى تؤدى بالتالى الى (حسنان) و (سر حسن بك) ٠ و (كلاله) و (حاج عمران) ، ثم الحدود الايرانية العراقية ، لهذا استمات العصاة فى الدفاع عن المضيق ، وكان على قوات الجيش العراقى ان توجد أسلوبا غير مألوف ، غير تقليدى يمكنها منأقتحام هذا المانع الطبيعى الذى يعتبر الوحيد من نوعه فى العالم من حيث تركيبه ومنحنياته وقممه الكاذبة ، وكهوفه ، وانهاره الصعبه ، سريعة (الجريان)، تم انزال القوات الخاصة العراقية فوق نقاط مختلفة من المضيق اعلاه وداخله بواسطة الهيلو كبتر ، وسلوك ممرات خفية عبر كورك ، وعندما انطلقت وحدات القوات الخاصة من كركوك بالطائرات الى (كلى على بك) كان الطريق الى خليفان يتعرض لهجمات عديدة من العصاة ، فوق (كورك) كانت توجد خمس روابى ، وعندما بدأوا هجومهم ضد وحدات الجيش العراقى ، استطاعوا احتلال هذه الروابى التى تتمركز فيها قوات خفيفة من الجيش ، تسلقت وحدات القوات الخاصة التابعة للجيش كورك من خليفان خلال خمس ساعات وعند وصولهم الى القمة اندافعوا الى الرابية الأولى ، ثم تحريرها ، وعند استئناف الهجوم ضد الربايا الأخرى قام العصاة بحمل جثث الجنود الذين قتلوهم بعد اسرهم والقائها من قمم كورك الى قاع المضيق ، وذلك بهدف أحداث تأثيرات نفسية سيئة فى جنود الوحدات الخاصة المهاجمة ، كان عددهم حوالى أربعمائة مسلح ، وكان عدد الجنود حوالى التسعين ، دار القتال من صخرة الى أخرى ، بالمسدسات، بالأسلحة قصة المدى ، بالسونكى ، وفوق ظهر الجبل استمرت المعركة ثمانى ساعات ، ثم خلالها السيطرة على كافة الروابى الخمس ، كان الجنود أن يتم تشويهها ، فى احدى الروابى طلب العصاة من جندى أن يصيح متدقعين أيضا لانقاذ الجرحلا من زملائهم ، وجثث الذين استشهدوا قبل متاديا رجال الوحدات الخاصة يقول لهم أن الرابية محررة ، وعنداقترابهم يفتحون النار لكن الجندى رفض فالقوة حيا ، الى المضيق ، وفى مواقع أخرى قاموا بتلغيم بعض جثث الجنود لتنفجر عند شدها أو أمساكها ، وهو أسلوب لم تتبعه الا القوات الاسرائيلية خلال حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية وبالتجديد فى معركة شدوان سنة ١٩٧٠ ٠ تم أسر عدد من

العصاة بعد السيطرة على كورك ، وهنا يواجه المقاتل جهدا نفسيا كبيرا للتفويق بين حالة القتال التى لا تزال مسيطرة عليه ، وبين دافع الرحمة والامتثال للتعليمات الصريحه ، المحددة ، الواضحه ، ويعلو الجنود على الموقف ، لايمثلون بجثث العصاة كما فعلواهم ، لأيلقون بها من الجبل ، بل تم نقل بعض الجرحى من العصاة الى المنطقة الطبية التابعة للقوة ، عولجوا وبعد السيطرة تماما على الموقف قام الجيش باعادتهم الى قراهم ، نفس الامر تم بالنسبة للاسرى ، ولكن سيطرة القوات الخاصة على ظهر كورك لم تكن تعنى انتهاء معركة المضيق ، لقد دار قتال رهيب فى هذا الجبل الذى يشبه غابة صخريه ، بدروبه ، وممراته ، وكهوفه ، من ناحية أخرى تم دفع الدبابات عبر (كورك) الى خلفية المضيق ، انهارت معنويات العصاة بسرعة وكان هذا هو السبب الأساسى فى احتلال المضيق ، فالمكان يمكن الدفاع عنه بقوات قليلة ومحدودة ضد جيش نظامى كامل ، خاصة أن مجال استخدام الوحدات المقاتلة هنا محدود بل معدوم ، أن القتال وحالته المعنوية ، والمعنويات ليست حالة غامضة ، أو مزاجا نفسيا ، انما داخل المضيق وعند اطرافه لابد ان يعتمد على الامكانيات الشخصيةللمقاتل ، هى مزيج من قناعة بالهدف ، الذى يحارب الانسان من أجله ، وفهم العوامل التى تسهم فى تلك الحالة العقلية المسماة بالمعنويات ، كانت سياسى واضح للظروف التى يتم فيها الصراع ، بالاضافة الى العديد من معنويات العصاة داخل المضيق قد انهارت مع بدء القتال ، لقد وعدت القوى الاستعمارية الملا بعرض قضيته على الأمم المتحدة والعالم اذا صمد فى وجه الجيش العراقى ، وتقديم كل المساعدات له • فى الجانب الآخر كان هناك مقاتلون عرب واكراد يحاربون من أجل تطبيق الحكم الذاتى ، من أجل الثورة التى وجهت الضربة أثر الأخرى للاستعمار والرجعية •

هذه هى الأسباب الرئيسيه التى أدت الى اخضاع (كلى على بك) •

ونمضى داخل المضيق ، انه لا يكشف نفسه لمدى بعيد ، اذ نخرج من الصخور التى اطبقت علينا نجد أنفسنا فى واد مغلق آخر ، جدرانه أشد ارتفاعا ، من الجهات الأربع ، مسافات متباعدة ، بعض أكيس رمل صفت فوق بعضها البعض كمواقع للجنود ، بينما يتسلق أحد المقاتلين الجدار الصخرى • ان الطريق فى هذه المنطقة جسر اقامته هندسة الجيش العراقى ، ان عمق الهوة لا تشعر به الا أثناء النظر من خلال العوارض الحديدية للجسر ، حيث تتدفق مياه النهر على بعد كبير أثناء القتال داخل المضيق ، قام العصاة قبل انسحابهم بنسف جميع الجسور • كان عددها ثمانية عشر جسرا فى المضيق ، وجاء الجنود العراقيون بالواح طويلة من الخشب مدوها فوق الهوة العميقة ، عبر بعضهم فوقها تحت الطلقات المتتابعة من الرصاص وقذائف المدفعية ، أمكن دفع بعض البغال المحملة بالمعدات وجاءت البغال الى الألواح الخشبية الممدودة ، ورفضت عبورها تماما ، كان الموقف عصيبا ، ويتطلب دفع هذه الامدادات بسرعة للمقاتلين فوق الصخور ، وبسرعة قرر المقاتلون أن يتصرفوا ، احضروا عددا من حقن المورفين ، حقنوا بها البغال ، ثم دفعوها عبر الهوة فوق الواح الخشب ، ولو المورفين لماتقدمت

خطوة واحدة ، أثناء مشينا كنا نتوقف كثيرا لنفسح الطريق أمام بعض هذه البغال ، أنها غير مخدرة بالطبع ، طرفا المضيق موصولان الآن بعدة جسور عريضة قوية تتحمل مرور المدرعات المحمولة فوق الناقلات ، ان البغل هو حيوان النقل الرئيسى فى الجبال ، رأيناه فى جميع المرتفعات التى وصلنا اليها وصعدنا فوقه الى (زوزاك) فى حوض راوندوز ، لدى البغل دقة شديدة فى اختيار مواضع أقدامه فى أوعر الطرق وأشدها خطورة ، فوق (زوزاك) كنت انظر الى أقدامه وهى تختار مواطئها ، يبدو لاختيار أداميه تلقائيا صبورا ، مثابر ، وعندما أصبحت الهوة الى يمينى سحيقة وبدآ الوادى بعيدا ، والطريق المسفلت كالخيط الأسود الذى تفصل عن البكرة ، اغمضت عينى واستسلمت تماما لخطوات البغل الهادئه ، الذكية ، وكنت افتح عينى لحظة توقفه ، ماذا يحدث ؟ واراه يستطلع الطريق فيضطر الى التوقف ثوانى لحظة توقفه ، ماذا يحدث ءربء،اغ؟عل‌لعظءعل‌ل‌لـه ممغغ ثوانى ، ثم يتحسس موضع أقدامه من جديد ، البغل اسمه فى شمال العراق (أبو صابر) منه أنواع ، بغال للركوب ، بغال لتحميل المدافع ، بغال للتنقلات وبغال لتحميل صناريق الذخيرة ، والمؤونة ، لاادرى ما الذى يجعل بغلا مخصصا لهذه المهمة بخلاف تلك ، هى العادة ؟ أم النوع ؟ أو التدريب، اعتقد انها الظروف التى يعمل فيها البغل ، هذا الحيوان الذى يتندر به حيوان شديد التحمل ، ولكن أغرب ما عرفته عنه ، أن البغل هذا الحيوان الذى يتندر به الانسان ، والذى يضرب به المثل فى القوة العمياء على التحمل والغباء ، هذا البغل اذا زاد عليه العبء فأنه ينتحر ، كثيرا ما يكلف بمجهودات شاقة ، وفى لحظة معينة يزيد عليه العبء ، لا يطيق ، فيجىء الى أطراف الهاوية وفى تصرف نبيل يلقى بالحمولة أولا ثم يشب على أطرافه الخلفية ويدفع بنفسه الى الأمام ، ليتحطم فوق الصخور السفلية البعيدة، أن انتحار البغل جعلنى اتأمل هذا الحيوان كثيرا ، ارقب اطراقته الابدية، وعينيه الخاليتين من الانفعال ، كائن خلق للعمل ، والعمل فقط ، حتى موزع بين جنس الحمير حيث الأب ، والخيول الأم ، ويسخرون فى الشمال المتع التى اختص بها كل حيوان فى العالم حرم منها ، اذ أنه لا ينجب وأصله موزع بين جنس الحمير حيث الأب ، والخيول حيث الأم ، ويسخرون فى الشمال فيقولون أن البغل يخجل من والده الحمار فيقول متباهيا بأصله (الحصان خالى) ويمر البغل بجوار البغل فلا يتبادلان نهيقا أو صهيلا ، ولا نظرة حتى ، يصرم الى الأرض باستمرار ، وكأن كل بغل عالم قائم بذاته ، فلا بغل قبلة ، ولا بغل بعده ، وكأن وحدته تلك استمرار للطريقة التى يأتى بها الى العالم عندما يهيىء الانسان الظروف المناسبة ليجمع بين الفرس والحمار يبدو البغل أشد الحيوانات شعورا بالوحدة ، والعزلة، والحركة داخل عالم خاص ، لايدرى أحد ما به ، انه حيوان يثير الشفقة بعزلته اللانهائية ، لاينجب فلا ابن له ، ولا مشاعر بنوة أو أمومة التى نجدها عند أبسط أنواع الحيوانات وهو لا ينقسم الى ذكور وأناث شأن جميع مخلوقات الكون من ادقها ــ التى لاترى الاتحت الميكرسكوب ــ حتى

اضخمها جسما ، وبالتالى فهو لا يتزوج ، ولا يضاجع ، ولا يعرف لذة الجنس ، ولا متعة المداعبة والمهارشة التى نراها بين أحقر أنواع الحيوانات أو اذكاها ، وكان يمكن ان نطلق عليه آله من لحم ودم لولا أقدامه فلى الانتحار طائعا مختارا بكامل ارادته ٠ هل يعانى هذا المخلوق الشاذ من أوجاع معنوية هائلة لا ندرى شيئا عنها اذن ؟ ربما فى وحدات الجيش تختلف البغال أيضا من وحدة الى أخرى ، أحسن الانواع تجدها فى القوات الخاصة التى تستخدمه كثيرا بحكم طبيعة مهامها ، واذا غضبوا على بغل معين فانهم ينقلونه الى وحدات المشاة ، أو المدعمية أو أى وحدة أخرى وللبغل عمر محدد للخدمة ، هذا فى الجيش طبعا ، وعند وصوله الى حدمن السن يصبح معه منهكا يتم اعدامه ، ذكرنى هذا بما كان يروى عن بغال البلدية فى القاهرة التى كانت تعدم عند بلوغها سن المعاش ٠ ويبلغ سعر البغل الجيد حوالى مائة دينار ، كنت أسند ظهرى الى المضيق بينما تمضى البغال أمامى فى اطراقهتا الابدية ، وانا اتساءل عما يجرى فى عقل هذا الحيوان ، ما رأية فى العالم ، وفى الانسان ، وعند أى لحظة يفرن فيها الانتحار ٠ طبعا علمت بقصص انتحار البغال بعد صعودى (زوزاك) ممتطيا ظهر واحد منها ، ولو عرفت قبل ذلك لصعدت على قدمى مهما كلفنى ذلك من مشاق ، ربما تعرض الحيوان الذى اركبه لاضطهاد أحد أخوانى من بنى الانسان ، ثم بجىء ركوبى فوقه عظيمة ليتخلص ويخلص الى الأبد وينتقم من أحد أفراد بنى الانسان الذى أتى به الى هذا العالم ، وراح يستغله ، ويركبه ، ينقل فوقه الاحمال . أدوات الحفر والصراع ، ولم يقف لحظة واحدة ليفكر فى مدى ما يعانيه هذا المخلوق الأشد وحدة من روبنسون كروزو ، أو آدمى ألقى به فى كوكب ناء بعيد ، فى الليل كان الجنود قد ربطوا بعض البغال الى ساق شجرة قريبة ، وفى الظلام كنت أصغى بين الحين والحين الى حركة وهمهمة أصوات ناتجه عن الحركة ، وليست صادرة من حنجرته، فالبغل لاصوت له وذ ازادت به المشقة لا يصهل ، ولا ينهق ، انما ينهى وجوده مختارا ، ينحر وتبدو أصوات الحركة فى العتمة الجبلية كأنهاشكوى أشد صمتا من وحدته الاجبارية ، لا ادرى لمن يوجهها ولكنها لاقت صداها قلبى ، غير اننى كلما تذكرت عينيه الواسعتين المليئتين بحزن شفيف ، واسى هائل تأخذنى الشفقة وارثى له ولوحدته التى لافكاك منها ٠

● ● ●

يرتفع الغريق بنا داخل المضيق ، يصبح شبه دائرى ، بينما تزحف الصخور فوقنا فتشكل ما يشبه شرفة طابق يعلونا فى المنطقة تتساقطقطرات ماء غليظة ، من قلب الصخور التى تظل الطريق ، أن استمرارها ،وتساقط قطرات الزيت من العربات المتحركة بأستمرار والتراب يكون وحلاخفيفاء الصخور مغطاة بطحالب خخضراء ، ومن قلب الصخر تنبت زهور صفراء رقيقة للغاية ، أطرافها دوائر صغيرة ، برتقالية اللون ، وتنبثق أوراق الزهور من كأس نباتية صغيرة خضراء كأحلى ما تكون الخضرة ، تنبت الزهور من قلب الصخور القاسية ، ويقطر الماء أيضا ٠ ما مصدره ؟ بالتأكيد،

ذلك العدد الكبير من الينابيع ، والمسارب الصغيرة الدقيقة التي تسري فيها المياه ؛ غير ان ماشدني خيط رفيع في المياه يتدفق من قلب الصخر الذي اكتسب لمعة غامضة بعد مرور السنين عليه • حفرت المياه مجرى نحيلا داخل الصخر ، يشبه الماسورة ، لايدري نسان من اين يبدأ ، من قمة الجبل أم من موضع آخر ، وظالت المياه تنساب حتى انتهت الى حافة الطريق ، ومنه تندفع الى الهاوية حيث مجرى نهر راوندوز في القاع ، يخرج الخيط النحيل متدفقا ، وأداد بقينا انه لا قوة في العالم تستطيع أعتراض مجرى المياه ، ويبدو للماء مذاق حلو ، طاهر في الفم كالحب الحقيقي ، ماء جبلي، بعد مسافة قصيرة ، يلتوي الطريق في عدة منحنيات دائرية ، ينزل الى أسفل فيبدو كل منحنى وكأنه يعلو الآخر ، أو تو.تراد ، طبيعي تتعدد طبقاته ، وبلا أي مقدمات نجد انفسنا أمام شلال المضيق ، تدفق المياه يبلغ الذروة هنا ، جارف ، قوي ، وحاد كالنيران حول فوهة المدفع لحظة خروج القذيفة ، يطول التأمل ، هل ستتوقف المياه فجأة ؟ هل سيحدث أمر غامض ويستمر التدفق ،وتبدو الصخور مستسلمة في بللها الأبدي ، وفي الفراغ يتناثر رذاذ خفيف يغمر الوجوه والمكان ، ان المياه تذيب الألوان في هذا الجزء من المضيق ، الأخضر والاحمر والأصفر وزبد الماء البيضاء في الجبال شلالات أخرى صغيرة بعضها يبدأ في ميعاد معين من السنة ، يستمر أسبوعا، أو شهرا ثم يختفي كما بدأ فجأة ، أن يترك مكانه خيطا نحيلا من المياه وكان يدا خفية أغلقت مصدر المياه عنه ، ويواكب هذا فترة ذوبان الثلوج، ولكن الاكراد في المنطقة يقولون ان الشلالات والينابيع أرواح خفية تحكم الجبال ، وتسري فيها ، وبعد مسافة امتار يختفي الشلال ، وصوت الاندفاع الناقب • ونلحظ أن مجرى النهر أصبح أكثر سرعة • خلفنا التوى الطريق ليقوم جدار من الصخر ، مرة أخرى ينطبق علينا المضيق من الجهات الأربع ، هكذا يسلمك كل جزء مغلق الى الآخر ، غير ان هذا المكان أكثر مناطق المضيق رهبة ، الجدران عمودية تماما ، وفي الجانب الايمن شق هائل ينفذ خلاله مجرى مائي طويل ضيق يختفي بعد حين ، والى اليسار مجرى آخر، هذا قادم من جوف الصخر الى اليمين ، وذلك قادم من اليسار ، في المضيق تلتقي ثلاثة أنهار ، نهر بالميكان ونهر الألنا ، وعند هذه النقطة يصبان في (راوندوز) الذي يجري ليلتقي بالزاب الأعلى ، الذي ينتهي في دجلة ، ان اللقاء داخل المضيق عنيف هادىء ، تنساب المياه في شكل دلتا لتصب في راوندوز وهذا الهدوء له مقدمات كثيرة عنيفة كشلال المضيق ، والتدفق الحاد خلال الصخور ، والانسياب الهادىء أحيانا عندما تصبح الأرض أفقية ، مستوية ، وتتوالى أجزاء المضيق وقبل منطقة الشلال يطبق على زواره تماما ، وقبل ان ينتهي يبدأ فك قبضته شيئا ، ليصبح مدخله من جهة حرص رواندوز سهلا ، بسيطا لا يكشف عن عنف تكويناته ووحشية أحشائه ، وثراء انهاره ، وأشجاره وزهوره وتكويناته البدائية البديعة ، وتقرأ على طول المضيق لافتات بالعربية والانجليزية .

احذر تساقط الصخور ـ لاتستعمل المنبه داخل المضيق •

كثيرا ما نمل احدى هذه الصخور الجبارة رقدتها الابديه فتتحرك منحدرة تجرف كل شيء ، لتستقر فى قاع النهر ، وهذا يمكن حدوثه في أى وقت ، فلا أجهزة تتنبأ به ، ولا عرافون يستطيعون التخمين ، ان سقوط الصخور مفاجىء ومروع تماما كقذائف الهاون التى تطلق فجأة من خلف المرتفع ، (كلي على بك) من المناطق النادرة في عالمنا التى تثير التفكير وتحدث العديد من الانطباعات ، أما ما يعجز الذهن عن تخيله أحيانا فهو ضراوة القتال الذى تخلله ، ما يثير أيضا ذلك الطريق المسفلت الذى يخترق المضيق وتقطعه يوميا مئات المركبات العسكرية من مختلف الأنواع ،طريق يلخص تحدى الانسان وقدرته على أخضاع الطبيعة الجموحة ، الوعرة ، انه جزء من الطريق الطويل الذى يبدأ من (اربيل) ويمر بصلاح الدين ، وشقلاوه ، عبر جبال (حرير) ، و (سفين) ، وخليفان وينتهى بهضبة ايران ، فى سنة (١٨٢٨) بدأ فى رصف الطريق داخل (كلى على بك) واستغرق العمل فيه عامين كاملين ، اشترك فيه أكثر من ألف عامل ، ومن قبل فى قديم الزمان قام (على بك) شيخ احدى القبائل الكردية فى المنطقة بتمهيد بدائى لتعبره القوافل ، من هنا نسب اليه هذا الشق العظيم ، ولكن استخدام هذا المدق كان فى حد ذاته مغامرة ، يبدو هذا واضحا من الوصف الذى سجله الكولونيل دبليو • آر • هى ، حاكم اربيل السياسى فى فترة الاحتلال البريطانى من ١٩١٨ — ١٩٢٠ وسجله فى كتابه « سنتان فى كردستان » ، ومن وصف المهندس الانكليزى هاملتون ، للمضيق قبل ان يشرع فى رصفه ، وعندما بدأت معركة (الكلى) فى يوليو الماضى لم يتم استخدام الطريق المسفلت بالطبع ، بل قام المقاتلون العراقيون من رجال الوحدات الخاصة بتسلق الصخور ، واستخدام أوعر المسارات فى المضيق ، كانوا يعبرون ممرات العنز الجبلى التى يكاد يستحيل السير فيها ،يتشبثون بما تعثر عليه أيديهم من أغصان نافرة نامية من شقوق الصخر حيث يبزغ ماء رقراق يجعل الصخور زلقة ، والممرات القصيرة يغطيها الطين ، كان على بعضهم أن يسير بضعة ياردات ورؤوسهم منحنية بسبب قطع من الصخر معلقة فوق رءوسهم ، ثم يزحفون على أيديهم وركبهم أولا ، وتجىء لحظة يزحفون فيها على بطونهم ، عندما يصبحون فى ممر ضيق أشبه بالنفق فى المنجم ، وفى كثير من الأحيان اضطروا الى المشى على قدم واحدة بينما تبقى الأخرى معلقة فى الهواء نظرا لانحدار الحافة بشكل عمودى فى اتجاه النهر المتدفق ، ان صخرة كبيرة رافدة قد يغرى منظرها وهدوءها بالتعلق بها أو بالاستناد عليها ، عندئذ تنهار وكأنها فخاخ القدر • وفى احدى اللحظات أثناء معركة المضيق وجد أحد الجنود نفسه مشتبكا مع فهد جبلى من الفهود التى تسكن الممرات الضيقة والكهوف السرية الوعرة • وفى مواضع معينة لا يسمح الصخر الجيرى الأملس بأى موطىء لقدم • وهنا يجب ان يكون الجندى مزودا بمعدات خاصة تمكنه من الحركة ، ولكنه فى معظم الأحيان يتم الاعتماد على الامكانيات الشخصية ، يذكر بعض رجال القوات الخاصة انهم فوجئوا بهياكل عظيمة ملقاة فى أماكن بعيدة من تعرجات

المضيق ، هياكل عظيمة لحيوانات وأخرى لبشر ماتوا منذ آلاف السنين فى محارتهم الخروج من هذه المتاهة الصخرية الجبارة ٠

●●●

لكل جندى من القوات الخاصة العراقية رصيد من الذكريات الرهيبة عن القتال فى (كلى على بك) ، ورصيد أيضا من الخبرة النادرة فى القتال المسلحة فى الجيوش الوطنية ٠ ربما لأن شكل القتال الذى تخوضه يمثل هذا الأسلوب العصرى لقتال الفرسان ، فمقاتل الوحدات الخاصة يقوم بتنفيذ مهام عسكرية ذات طبيعة فدائية ، غالبا ما تتم خلف خطوط العدو، ومن هنا فانه يعرف مقدما انه سقاتل معزولا ، لفترة عن رفاق سلاحه من الوحدات الأخرى ويعتمد المقاتل بشكل أساسى على امكانياته البدنية ، والنفسية والعقلية وخلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ لعب رجال الصاعقة المصريون دورا هاما فى ارباك ومهاجمة العدو فى كافة أنحاء سيناء وبعد وقف اطلاق النار استمر بعضهم يحارب خلف الخطوط لمدة أربعة شهور وخمسة ، عادوا بعدها الى وحداتهم ، جوهر المقاتل العربى واحد ، وعندما تتاح له الفرصة الصحيحة فى اطار قرار كبير فانه يحقق أعمالا ترقى الى مستوى رفيع ونادر ، ويجسد البطولة الحقيقية ، هنا فى شمال العراق قام رجال الوحدات الخاصة بأعمال قتالية صعبة ، ذات طبيعة خاصة بسبب ظروف الأرض ، والحرب ، ولاحظت ان معظمهم لايطرق كثيرا الى الحديث عما قاموا به خلال العمليات العسكرية فى الشمال ضد العصاة ، للحرب هنا ظروف معقدة ، فهم يحاربون ضد الحرب لكى يسود الاستقرار والسلام ، فى نفس الوقت يعون جيدا ان العدو الحقيقى بالنسبة لهم هنا هو الاستعمار، والقوى الرجعية ، وبالطبع هذا ما يعيه سائر جنود الجيش ، غير انه كانت لى رغبة قوية للقاء رجال الوحدات الخاصة ، لقد لعبوا دورا هاما فى حرب أكتوبر ، خاصة خلال الأيام التى تلت وقف الهجوم الاسرائيلى المضاد ، والتى قام خلالها المقاتلون العراقيون والسوريون بشن حرب انهاك ضد وحدات العدو فى الجولان ٠

بعد خروجنا من (كلى على بك) ، الى اتساع حوض راوندوز المحفوف بالجبال ، ركبنا سيارة الجيب متجهين للقاء الرجال الذين قهروا الكلى ، وألحقوا افدح الخسائر بالعدو الاسرائيلى فى أكتوبر ١٩٧٣ ٠

●●●

فوق جبل (زوزاك) ، وعلى ارتفاع (٦٦٠٠) قدم من سطح البحر، رحت أستعيد مع أحد ضباط القوات الخاصة العراقية أحداث تلك الأيام من تشرين وأكتوبر ١٩٧٣ ، كان ضمن أول فوج من القوات الخاصة التى تحركت الى الجبهة خلال يومى ٧ و ٨ أكتوبر ٠ كلفوا بواجبات معينة تتعلق بحماية بعض القواعد الجوية القريبة من الحدود السورية والتى ستستخدم كمحطات فى الطريق الى الجبهة ، يوم الاثنين طاروا الى الجبهة، كان الجنود فى الطائرة يصحيون ، ويهتفون بشعارات حماسية عديدة :

— كان اليوم يومهم كما يقولون ٠٠

عسكرت القوة فى منطقة · حرجلة ، وبالرغم من حرص القيادة على توفير وقت لراحة الجنود ، الا انهم لم يستريحوا ، وبقوا فى انتظار الأوامر بانتقالهم الى الجبهة ، لم يطل ، انتظارهم كثيرا ، فقد كلفوا بمهمة قتالية بعد ليلة من وصولهم ، ضرب مرابض الدبابات الاسرائيلية فى منطقة تل عنتر ، وتقدمت مجموعتان من القوات الخاصة ، هاجمتا المربض القريب ، كان هذا أول أحتكاك للرجال بالعدو ، لاحظوا ضجة وصراخ أفراده أثناء الهجوم ، منذ هذه الليلة بدأ الاسرائيليون يضعون احتياطيات اضافة ، أقلقهم وصول القوات العراقية ، بـدأوا يكثرون من اطـلاق القذائف المضيئة بفواصل زمنية قصيرة ، ومن جهة أخرى وضعهم رجال القوات الخاصة تحت مراقبة دقيقة ورصدوا لحظات معينة تقل عندها حدة المراقبة، وصلت معلومات عن طريق القيادة العراقية فى المنطقة بوجود مجموعة قتال اسرائيلية متوازنة ، أى سرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكية ، كانت القوة بالتحديد ، ٨ دبابات و ٨ عربات مدرعة ، قام قائد الوحدة باستطلاع نهارى ، وفوق ديرالعدس بدأ قصف معاد شديد ، ومن بعيد بدت دبابات متحركة ، انسحبت دورية الاستطلاع بعد ان قدرت الموقف ، عادت الى « حرجلة » وبدأ تجهيز القوة وتقدير القوات التى ستشترك فى الهجوم · تسابق قادة السرايا للخروج فى المهمة ، كان كل منهم يلح ويضغط ، واضطر القائد الى اجراء قرعة لاختيار الرجال الذين سيـــنفذون المهـام المطلوبة ، وفى الساعة السادسة مساء تحركت القوة مستقلة عربات مدرعة حتى مفرق الطريق المؤدى الى (دير العدس) ، كانت المسافة المتبقيةحوالى سبعة كيلو مترات قطعتها القوة مشيا ، أثناء تقدم الرجال كانوا يمرون بأعداد كبيرة من الدبابات المعادية التى همدت حركتها ، بعضها مدمر تماما ، وبعضها مصاب ، وبعضها يبدو سليما ، وقام بعض الرجال بتفتيش تلك الدبابات ولم يكن داخلها الا حيث محترقة تماما لم يتمكن العدو من سحبها · وفى الظلام كانت بعض تكوينات الصخور فى المنطقة تبدو كالدبابات من بعيد ، كان الليل عميقا ، هدوء غير عادى يسود الجبهة وكانه يهيىء لما سيحدث ·

وصل الرجال الى منطقة قريبة جدا من المواقع الاسرائيلية · ثم تقسم الرجال بسرعة الى مجموعتين ، مجموعة اقتحام ، ومجموعة اسناد ، كان العدو قريبا لدرجة أن أصوات أفراده ، بدت مسموعة ، وكان أحد أفراد العدو ينادى بالحاح شخصا ما ، تمزق الليل بطلقات الرشاشات العراقية، والقذائف المضادة للدبابات ، التحم رجال مجموعة الاقتحام بجنود العدو، كانت السناكى القصيرة الحادة تبرق ، تومض فى الظلام ، وتعلو صرخات ذعر ، لقد حقق الرجال المفاجأة تماما ، وتوهج الليل بتأثير الحرائق التى أشتعلت فى أربع دبابات وعدد من العربات الآلية ·

عاد الرجال ·ورفع قائد العملية التليفون ليبلغ القيادية السورية ·

— تم تنفيذ المهمة ··

— · · · · · · · ·

– لم تقع خسائر فى جانبنا .

● ● ●

أحد رجال الوحدات الخاصة ، يوم ٩ أكتوبر تحرك من كركوك مع زملائه . لم يكن لديه وقت ليحضر حاجاته الشخصية من البيت من كركوك الى قاعدة هـ – ٣ رأسا ، كان الراديو يحمل اليه أخبار القتال أولا بأول، وكان الحديث يدور مع زملائه عما ينتظرهم ، عن دورهم فى القتال ، بعد يوم كامل فى القاعدة تحركوا الى منطقة قريبه من دمشق كانت حركة الوحدات الخاصة ذات طبيعة تختلف عن حركة الدبابات ، والمدرعات ، لقد ركبوا الطائرات الى هـ – ٣ ، ثم انتقلوا بالسيارات الى دمشق . ثم الجبهة .

يذكر المقاتل من أيام الحرب ، ١٧ تشرين ، أكتوبر بالتحديد :

فى ذلك اليوم تلقى قائد الوحدة أمرا بالهجوم على مرابض الدبابات الاسرائيلية فى تل عنتر ثم انتقال القوة بالسيارات الى منطقة تقوع جنوب (كفر شمس) . تقدموا راجلين ، داروا حول القرية من جهة الشرق ، ثم غيروا اتجاههم الى الغرب ، بعد حوالى خمسة كيلو مترات وصلوا الى مربض دبابات مهجور ، كانت الحفر كالافواه الخربة ، المفتوحة فى بطن الأرض ، فى تلك الليلة تألق ضوء القمر لفترة طويلة ، وخلت السماء من الغيوم الثقال ، استمروا فى التقدم حتى مسافة تبعد ثلاثمائة متر عن الهدف ، ويبدو أن العدو لمحهم ، رصد اقترابهم ، شتت الظلام طلقات انذار ، وسمع الرجال أصوات الدبابات عندما بدأت تتحرك ، بدأ واضحا ان حالة من الارتباك لدى العدو ، وكان من الضرورى استغلالها بأقصى سرعة ، تمركزت مجموعة الاسناد الى يسار الهدف ، انطلق مقاتلو مجموعة الاقتحام ، اصطدموا بخندق مشاة حصين يبعد ٣٠ – ٤٠ مترا عن الدبابات ، خندق مواز لتل صخرى طويل ، وكان مهجورا به أحد من الجنود العدو ، وأستغل الرجال الخندق ، استتروا به ، ومنه انطلقت القذائف المضادة للدبابات ، واشتعلت الدبابات ، وتوالت الانفجارات ، ان انفجار دبابة شىء مخيف ، فى البداية يهتز الجسم المعدنى الضخم ، يصدر أصواتا غامضة كوحش يحتصر ، ثم تتوالى الانفجارات ، يشتعل البنزين ، وتنفجر الذخيرة ، ذخيرة المدفع الرئيسى ، وذخيرة شديدة الانفجار ، وذخيرة الرشاشات ، ان الجندى الذى يمشى على قدمية ويواجه الدبابة بسلاحة الخفيف ، يجب ان يكون ذا نوعية خاصة وفريدة ، وأعصاب قوية للغاية ، وفى تاريخ الحرب الحديثة سجل المقاتل العربى فى حرب تشرين أكتوبر حوادث القتال بطولة ، قتال الانسان ضد الدروع .

بقى لدى كل مجموعة من الرجال قذيفة واحدة .

فتح العدو نيرانه بغزارة .

وبدأت مجموعة الأسناد تقدم الدعم النارى وتحته تم انسحاب مجموعة الاقتحام التى تمركزت فى الخندق ، بدأ موقع معاد آخر قريب يقدم المعاونة للموقع الذى هوجم ، قام الرجال بتغيير اتجاههم الى

اليسار بسرعة ، ان القدرة على اتخاذ القرار السريع الحاسم فى اللحظة المناسبة من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها مقاتل الوحدات الخاصة الذى يكون بوجوده الفردى معرضا لعنصر المباغته ، على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر بدأ تمجع الرجال ، عندما تكاملت القوة اكتشفوا ان بينهم أربعة جرحى ، وكان هناك أربعة غائبين فيما بعد اتضح أن احدهم جرح فى الخندق وآثر القتال حتى نفدت ذخيرته ، وقع أسيرا ، أما الثلاثة الباقون فيرقدون الآن تحت تراب الأرض العربية فى سوريا ، استشهدوا •

● ● ●

قبل ان تتحرك الوحدة التى يحارب فى صفوفها المقاتل الشمرى من كركوك الى قاعدة هـ ـ ٣ ، اصطف الرجال وبدأ يأخذ « التمام » ، اكتشف تغيب جنديين كانا معروفين بتعدد الأيام التى يتغيبون فيها ، وكثيراما نالوا جزاءات بسبب ذلك ، طارت الوحدة فى نفس اليوم الى قاعدة التحشد على الحدود السورية ، كلفت بواجبات معينة الغرض منها حماية القاعدة ، وضعت القيادة العراقية فى حساباتها احتمال قيام العدو بعمل هجومى مبكر ضد منشآت القاعدة ، والطرق المؤدية الى الحدود ، وذلك لتعويق وحدات الجيش عن الوصول الى الجبهة ،فى نفس يوم الوصول ، وقبل نزول الليل فوجىء المقاتل الشمرى بالجنديين المتغيبين ، لقد وصلا مع فوج تال • بمجرد استماعهما الى نبأ الحرب فسارعا للالتحاق بوحدتهما ، وخاضا ظروفا عديدة معقدة حتى لحقا بها عند قاعدة التحشد على الحدود العراقية السورية •

يوم ١٦ تشرين (أكتوبر) تحركت الوحدة الى الجبهة السورية كان المواطنون يقابلون الوحدات العراقية بأهازيج وشعارات وترحيب ، وتقديم المشروبات الساخنة ، وأحيانا وجبات طعام ، وصلت الوحدة الى (الحرجلة) فى نفس الليلة التى خرج فيها المقاتل طه مع رجاله لمهاجمة مرابض الدبابات فى « تل عنتر » •

بدأ الرجال يلتقون بزملائهم ، يصغون منهم الى ما جرى ، يتعرفون الى الموقف ، الى الجبهة ، عرفوا أن هناك اختراقا اسرائيليا فى سعسع .سمعوا الكثير عن المواقف التى قاتل فيها الجندى العربى ضد الصهيونى ، وفى يوم ١٨ أكتوبر جاءت اللحظة التى يشارك خلالها الرجال فى المعركة ، كلفوا بالاغارة على وحدة للعدو فى كفر ناسج ، لكن الموقف تغير بمنطقة تل عنتر يوم ١٨ . كان العدو قد حقق تقدما فى القطاع ، وبالتالى تغيرت المهمة ، وتغيرت الخطط ، كلفوا بمهاجمة العدو فى تل عنتر ، وقامت مجموعة الشمرى بتشكيل قوة صد ضد أى قوة معادية تحاول تغيير الموقف ، بينما تقدمت مجموعة أخرى بقيادة المقاتل عبد المهدى ، وتمت المهمة بنجاح ، وعندما عادت القوة الى مكان تمركزها كانت تحمل معها جريحا واحدا •

●●●

•• كان أفراد هذه المجموعة من القوات الخاصة يسابقون الزمن للوصول الى جبهة القتال السورية •

يوم ١٠ أكتوبر أقلعوا بالطائرات حتى قاعدة هـ ٤ ٣ . ثم انتقالهم الى العربات التى كانت تتدفق على الجبهة ، عرف كل منهم . أن ثمة متاعب على الجبهة السورية ، وأن العدو قام باختراق الجبهة فى قرية سعسع ، كان الضباط والجنود يتناوبون قيادة السيارات ليصلوا فى أسرع وقت ممكن ، وحتى لا يضيعوا دقيقه واحدة فى التوقف أو الابطاء لحظة وصولهم الى دمشق ٠٠ كانت هناك غارة جوية معادية ، انتشروا فى مدخل المدينة، كانت الطائرات الاسرائيلية تحاول الاغارة على صهاريج النفط فى دمشق ، بعد انتهاء الغارة استأنفوا السير حتى (حرجلة) ، انه معسكر متقدم فى الجبهة وأثناء التحرك نحوه كان الرجال يتبادلون التحية مع أفراد الجيش الشعبى السورى الذين انتشروا على الطريق يحفرون الخنادق الدفاعية فى ضواحي دمشق ، فى (حرجلة) ٠٠ شاهدوا تساقط الطائرات الاسرائيلية ، وصواريخ سام أثناء تعاملها معها ، وهوت أسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأت الاذهان بعد يونيو ١٩٦٧ . كان هذا أول انطباع يتبدد عن العدو لدى كل الجنود بعد وصولهم بقليل ٠

يوم ١٤ تشرين أكتوبر ، طلب من الرجال القيام بثلاث غارات على معسكرات الدبابات الاسرائيلية فى كل من تل عنتر وكفر شمس ، وتل المال ، وكان هدفهم يقع فى تل المال ، وكانت معلومات الاستطلاع تفيد بوجود عدد يقدر من ٢٠ الى ٢٥ دبابة اسرائيلية وناقلة جنود مدرعة ، طلب من قائد المجموعة الذهاب الى تل الحارة حيث مقر قيادة احدى الفرق السورية للحصول على المعلومات وتنسيق الخطة معهم . وصل حوالى الساعة الثانية عشرة ليلا الى مقر قيادة الفرقة ، التقى بالقائد السورى الذى أوضح له الموقف من خرائط المعركة والمعلومات المتاحة عند رئيس الاستطلاع ، كانت القوة الاسرائيلية فى تل المال ضعف مجموعة القتال العراقية ، طلب الضابط العراقى من القائد السورى عزل الجناح الايسر للعدو فوق تل المال بواسطة المدفعية أثناء الغارة ، بعد ذلك انطلق على رأس رجاله ، ساروا مدة ساعتين ، أثناء تقدمهم كان العدو يقذف قنابل الاضاءة ، واتخذ الرجال احتياطاتهم التى تكفل لهم التستر ، وصلوا قريبا من الهدف ، استطلع قائد المجموعة الهدف بنفسه ، كان أحد الأفراد من جنود العدو يقف بالقرب من دبابات وناقلات مدرعة كلها مغطاة بشباك التمويه ، ومعظمها فى ملاجىء أرضية ، اكتشف عددا من الآليات موجودة أمامهم مباشرة ،أمر رجاله بالانتشار ، قرر قائد المجموعة مهاجمة دروع العدو فى القسم الأيمن ومهاجمة دبابات القسم الايسر ، عند تحركها بواسطة مجموعة الاسناد رجع الى رجاله ، أوجز لهم الخطة ، والمعلومات الفرعية ، بدأوا يزحفون حتى وصلوا على بعد عشرين مترا من الدبابات ، كان الظلام شديدا ، فى تلك اللحظات لم يكتشف العدو اقترابهم ، أطلق القائد طلقة أضاءة ، ثم فتحت النيران ٠ أكثر من خمسة عشرقاذفا ضد الدبابات، وستة رشاشاتمتوسطة، بالاضافة الى الهاونات ، تم تعيين الأهداف لكل قناص دبابتين يقوم برميهما، وكانت مسئولية الرشاشات حصد أفراد العدو الذين يحاولون الفرار ، أو

يخرجون من مكانهم ، انهمرت النيران لمدة أربع دقائق متصلة . بعدها مباشرة بدأ الانسحاب ، رأوا نتاج عملهم ، اندفع أحد المقاتلين ليتأكد من أصابة الهدف فرأى اندلاع النيران من الأهداف ، فى نفس الوقت كانت وحدات المدفعية السورية تقدم غطاء ناريا جيدا ، انسحب الرجال وفقا للخطة الموضوعة الى تقريه ، ثم الى تل الحارة ومنه الى المعسكر الخلفى ، فى هذه الليلة انطلقت وحدات من اللواء المدرع السادس العراقى باتجاه المنطقة لاستثمار الضربة التى وجهها رجال الوحدات الخاصة ضد العدو ، كانوا يشكلون خطرا داهما على العدو ، خاصة فى المرحلة التى شنت فيها القوات العربية حرب انهاك ضد العدو ، وكان كل مقاتل منهم يمثل النموذج المتقدم للمقاتل العربى ، حيث تتجسد فيه أنقى خصائصه ،وتتشابك العوامل النفسية والحضاريه لتصل به الى أرقى مستوى قتالى ، كان جنود الوحدات الخاصة يقتربون الى أقصى حد من العدو ، وينتشرون بين مرابضه وملاجئه حتى قيل فى الجبهة السورية ، لو قام أحد أفراد العدو بحفر الأرض فان التراب الذى سيلقيه بجواره سيقط فوق جندى عراقى من الوحدات الخاصة متربص للانقضاض عليه ، كانوا يتابعون العدو أيضا، لقد دأب على تغيير أوضاع قواته ، واقامة المعسكرات الهيكلية البديلة ، وذلك بغرض التضليل ، من هنا كانت أهمية الاستطلاع الجيد الذى قام به قادة المجموعات والوحدات بأنفسهم فى جميع الظروف .

ويوم ٢٢ أكتوبر ، كانت وحدات القوات الخاصة العراقية علىالجبهة السورية مكلفة بواجب الهجوم على مرابض العدو ودباباته فى المناطق المتقدمة ، وذلك كتمهيد للهجوم الواسع ، الذى كان من المقرر ان تقوم به القوات العربية لطرد الاسرائيليين نهائيا من الجولان ، والذى لم يتم بسبب وقف أطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر .

من ناحية أخرى كان العراق قد دفع الى الجبهة السورية بنوعية أخرى من قواته المعدة اعدادا خاصا للقتال . فى الجبال وصل لواء جبلى مدرب تدريبا جيدا يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان مخصصا للاشتراك فى المعارك التى ستنشب بمنطقة جبل الشيخ بالقطاع الشمالى من الجبهة السورية ، هنا قامت القوات السورية باحتلال المرصد الاسرائيلى يوم ١٦ أكتوبر ، والذى كان مزودا بأجهزة الكترونية حديثة ووسائل استطلاع تستخدم فى رصد حركة القوات العربية داخل الأراضى السورية ، وكانت القوات الخاصة السورية قد أحتلت هذا المرصد أثر معركة عنيفة وبطولية يوم السبت أول أيام الحرب ، قرارت القيادة السورية وضع القوات الجبلية العراقية بمنطقة دمشق وفى صباح ٢١ تشرين ، أكتوبر ١٩٧٣ ، كلفت قيادة منطقة دمشق احدى كتائب اللواء الجبلى العراقى باحتلال موضع دفاعى فى قاطع الحدود السورية ــ اللبنانية ، وفى الساعة السبعة مساء يوم ٢١ أكتوبر أستدعى قائد اللواء الجبلى العراقى الى القيادة وصدر له الأمر بتخصيص كتيبة أخرى لتعزيز القوات السورية وتدمير قوة العدو فى منطقة

العقبات على جبل الشيخ • فى يوم ٢١ أكتوبر بدأ العدو بتركيز هجومه على جبل الشيخ وذلك بهدف استرداد المرصد الذى حررته القوات السورية فى بداية الحرب ، قام العدو بانزال وحدات من جنوده بواسطة الهيلوكبتر، فى نفس الوقت الذى تقدم فيه رتل أرضى بمنطقة العقبات ، دفعت القوات السورية بمجموعات من رجال القوات الخاصة الى جبل الشيخ ، وأشتعل قتال وحشى ، وكان العدو يدفع بالمزيد من وحداته فى هجوم يصحبه اصرار عنيف على استرداد المرصد بأى ثمن ، قامت القوات الجبلية العراقية باحتلال منطقه عرفة ـ ربما ، بقصد التقدم نحو العقبت والاشتراك فى عملية ازاحة قوات العدو التى وصلت اليها بالتعاون مع القوات السورية• وفى الساعة الرابعة والنصف من صباح ٢٣ أكتوبر أتمت القوات العراقية الجبلية انتشارها فى المنطقة استعدادا للهجوم ، بدأ فيه هجوما معاديا على المواقع التى تحتلها القوات العراقيه ، غير أن الرجال صمدوا للقصف، وصدوا الهجوم ، كان القتال مشتعلا فى هذا القطاع بينما كان وقف اطلاق النار ساريا فى باقى القطاعات •وكان العدو يدفع بأعداد كبيرة من قواته التى سحبها من المواقع الأخرى وذلك لاسترداد المرصد ، لكنه لم يستطع ان يحقق أى نجاح فى منطقة عرفة ـ ربما ، حيث رابطت القوات الجبلية العراقية •

●●●

•• ويبدو النزول من فوق (زوزاك) أصعب ، فالأرض المهتزة ، والسفح المائل ماثل أمامنا باستمرار ، والهاوية تصبح عمودية فى بعض الأماكن ، و (أبو صابر) يتحسس مواقع أقدامه بدقة ، بدأب ، بذكاء عجيب وكأنه يحفظ المواضع التى تتحمل وطء خطوة المتمهل وحمله الآدمى، وبمجرد أن نلامس الأرض المستوية لسهل راوندوز نمشى قليلا لنركب السيارة فى اتجاه قرية ديانا ، فى حوض راوندوز تصبح الطبقة أفقية ، الأرض متمهلة فى امتدادها تحفها الجبال من جميع الجهات ، جبل (هندرين) و (زوزاك) ومرتفع صخرى مستطيل ،له تكوين غريب اسمه ظهر السمكة (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر) ، انه الجبل الوحيد الذى يخلو من الثلج ونرى ، (كروك ، ومن خلف (زوزاك) يسد الأفق ذلك الجبل الغامض ، الشيخ الوقور بعباءته الثلجية الناصعة ، الجبل الذى عشنا تحت سفحه أما ، انه (سر حسن بك) يتابعك اينما توجهت ، فى حوض راوندوز يصبح لحن الجبال أرق ، والسماء أكثر انبساطا ، تشرق الجبال على المكان فى هيبة وابدية ، لكن جمالها الوحشى ينأى الى الخلفية ، تنبسط الحشائش، وأنواع نادرة من الزهور أحصيت حوالى مائة نوع كل منها يختلف عن الآخر ولا ادرى هل أطلق عليها علماء النباتات اسماء ، أم ان قاموسهم يضيق عن استيعابها ، تتوثب العصافير ويسود صمت تبدو فيه أصواتها كالأغصان الصغيرة التى يهزها الريح فتحدث حفيفا فى لحظة غروب يوشك الانسان أن ينسى الحرب والانفجارات والكمائن الجبلية ، والاخطار ، وفى الاعالى تظهر طائرات الهيلوكبتر قادمة من خلف مضيق (كلى على بك) متجهة الى

(حسنان) و (سر حسن بك) ، تلعب الهيلو كبتر دورا كبيرا فى القتال الذى يدور هنا ، فى الجبال الوعرة تصبح وسيلة الانتقال الوحيدة ، السريعة تقوم بعدة مهام ، نقل القوات ، ثم نقل الامدادات بمختلف أنواعها، نقل الجرحى • وتبدو الهيلو كبتر بطيئة الحركة غير انها تشترك أحيانا فى القتال ، وفى فترات (السبات) تصبح الهيلو كبتر وسيلة الاتصال الوحيدة التى تربط المواقع المنعزلة فوق القمم بالقواعد البعيدة ، المشكلة الرئيسية التى تواجه القتال فى مناطق الجليد هى الناحية الادارية خاصة الامداد بالذخيرة فالقتال هنا يتطلب أساليب جديدة تخرج عن الطرق التقليدية المتبعة فى الشئون الادارية والخاصة باعاشة القوات الجوية وعدد الطائرات المتاح استخدامها ، وفى الشمال العراقى لم تكن قمم الجبال والتيارات الهوائية الشديدة هى الخطر الوحيد فى وجه الهيلو كبتر • كان العصاة المزودون بأحدث الأسلحة يحاولون التصدى للطائرات أثناء عملها ، فى أحد أيام الشتاء الماضى قام أحد المقاتلين بمرافقة طائرة كانت تحمل سبعة عشر جوالا من الطحين ، الى موقعة فو، أحد الربايا بمنطقة قريبة من الحدود الايرانية ـ العراقية وعندما اقتربت الطائرة من الموقع فوجيء الطيار ببعض طلقات المدفعية تتفجر حوله ، كان العصاة يحاولون أصابة الطائرة . وارتفع الطيار ، ثم حاول النزول من جديد ، ونظر المقاتل الى أكياس الطحين كانوا فى نظره كسبعة عشر طفلا ، انه خبز الرجال ولاحظ أن الطيار يعاود الارتفاع من جديد ، كانت الطلقات لا تزال مستمرة ، وحام الطيار حول الجبل ثم اقترب من جديد ، وكان صوت الطائرة يخفى انفجارات قذائف المدفعية وطلقات الدوشكا فى الخارج • ولم يكن عسيرا على المقاتل أن يستنتج ان الطائرة تتعرض لهجوم مصدره الأرض ، اذ ارتفت مرة أخرى وأمر الطيار ، وتكرر ارتفاع الطائرة ومعداتها سبع مرات ، وفى المرة الثامنة تجح فى الهبوط • وعندما فحص الطائرة مع الرجال وجد أن أرضيتها اصابتها بعض الشظايا التى نفذت من الجسم المعدنى ، غير ان أكياس الطحين امتصتها ، وهكذا دفعت عنه خطر الموت ، تستخدم الوحدات الخاصة العراقية طائرات الهيلو كبتر بمهارة كبيرة ، وذلك من حيث القفز منها أثناء اقتراب الطائرة الى ارتفاع معين من الأرض ، أو استخدامها فىواجبات قتالية حيث تهاجم بعض الأهداف المتقوقعة فى شعاب الجبل ، وأثناء جلوسك مع بعض الرجال تسمع احاديثهم عن (الهيلو كبتر ، والفرق بين أنواعها المختلفة ، (مى ٦) و (مى ١٢) ، وهذه من الأنواع السوفيتية أو (الإيلويت) الفرنسية ، السريعة ، فلها مهام أخرى مكملة لمهام الطائرات السوفيتية التى تبدو كعربات نقل طائرة لا تكف عن ذرع السماء جيئة وذهابا •

وقرب قرية (ديانا) راحت بعض الخيول ترعى العشب ، انها تابعة للقوات الخاصة أيضا ، فالخيول لها استخدامها هنا أيضا ، والخيول الرائعة فى الشمال كلها من أصل عربى ، فى التلال نرى الجياد أصغر حجما الخشن ، تكيفت مع الطرق الوعرة التى يجب أن نقطعها صعودا وهبوطا ، وأحيانا تتوزع ملكية الحصان بين ثلاثة أو أربعة أشخاص ، وفى حالة انجاب الفرس يحصل كل شخص مساهم فى ملكيتها على مهر ، ويكون ذلك على

التتابع . هذه القاعدة طبعا بين الأهالى ، أما الخيول التى تخدم وحدات القوات الخاصة فلها معاملة خاصة ، انها أحسن حظا بالطبع فالعناية أفضل والطعام أوفر ، خيول أميرية ، فى حكم الموظفين ، وتطوف بقرية (ديانا)، أن رجال القوات الخاصة يعايشون قرى (الشمال) يعرفون الأهالى ، وكثير من الرجال هنا اصلهم كردى واسرهم تعيش فى قرى بالمنطقة ، وبعضهم له أقارب محتجزون بأيران غصبا ، الجنود هنا تحفل ذكرياتهم بالعديد من القصص التى يبرز فيها الجانب الفردى ، ويرجع هذا الى طبيعة عمل القوات الخاصة ، كما انهم أكثر وحدات الجيش العراقى معايشة للشمال ، حدث أن قامت مجموعةمن الرجالبتحرير قرية كرديةمن العصاة فوجئوا آن القرية بها حالة مجاعة شديدة ، كان الأطفال والشيخ والنساء فى حالة بالغة السوء ، كان العصاة يفرضون ضريبة تجبى من الاهالى ويدخلون البيوت ، يطلبون منهم الطعام ، ومع أن الكميات محدودة جدا نظرا لظروف المنطقة ، الا انهم كانوا يحصلون على مايريدون ، وكان كثيرون منهم يعاملونهم بفظاظة وجفاء ، وهذه التصرفات التى حدثت فى كافة القرى التى هددها العصاة تعكس جانبا من طبيعة الحركة الرجعية التى قادها الملا ، حيث نجد أسلوب التعامل مع الشعب الكردى الذى ادعوا تمثيلة يعتمد على الارهاب والقسوة ، والخطف ، انه العداء للشعب بحكم طبيعة الحركة . قام قائد المجموعات بالاتصال بقائد المنطقة وجاءت قافلة تموين من القوات المسلحة ، وبدأوا يوزعون وجبات طعام على الاهالى بنفس الكميات والأنواع التى يأكل منها الجنود .

وخلال شهر سبتمبر من العام الماضى قامت وحدة من القوات الخاصة باعداد كمين لقافلة من العصاة كانت تتحرك بالقرب من منطقة السليمانية ولحظة اقتراب القافلة اكتشف الرجال انها تضم أطفالا ونساء ، كان العصاة قد ضموهم ليشكلوا نوعا من العائق فى وجه أى هجوم تقوم به وحدات الجيش ، وهذا يدل على انهم رصدو الأساليب الانسانية للجيش فى معاملة الاهالى . وحاولوا استطلالها فى لحظة معينة نجانبهم . واجه قائد الكمين موقفا مسحونا بالتناقض ، هل ينفذ الكمين ويؤدى الأطفال والنساء ، وهذا أمر يخجل منه كمقاتل فى الجيش العراقى الذى يخوض حربا ذات طابع انسانى ، هل يترك القافلة تمر ، ماذا يفعل اذن ؟ وبعد لحظات اتخذ قراره ، تابع الكمين مع رجاله ، درس تكوين القافلة جيدا . وبناء على هذه المعاينة السريعة اصدر أوامره الى رجاله باتجاهات الهجوم ، ضد الأفراد المسلحين ، وشدد على عدم الاقتراب من الأطفال والنساء الذين كانوا موزعين على القافلة ، وبدأ الجنود تنفيذ مهمتهم الصعبة ، وفعلا لم تجرح امرأة ، ولم يؤذ طفل ، لكن المجموعة دفعت ثمنا لحرصها الشديد قدره ثلاثة جرحى، وقام القائد الشاب بترحيل النساء والأطفال واعادتهم فى نفس اليوم الى قراهم ..

وفى شقلاوة جاء ربيع عام ١٩٧٤ والاهالى فى ذعر ، هذا ما وجدته سرية القوات الخاصة التى وصلت الى المنطقة . لقد بث العصاة الرعب فى

المنطقة قالوا أن الجيش عندما سيصل سيغتصب ، ويقتل ، ويذبح ويعدم الاطفال وفي البداية كان الجو النفسي سيئا في (شقلاوة) . وألقى هذا عبئا على الرجال الذين راحوا يتصلون بالاهالى ، وخاصة أصحاب المخابز الذين أغلقوا محلاتهم تماما ، واقتنع أحد أصحاب المخابز ، ففتح مخبزه ، وتسابق الجنود يشترون منه بضعف الثمن وفي اللحظة نفسها انتقل الخبر ، « الجيش يدفع » .. « الجيش لا يؤذى أحدا » وخرج الخائفون ، وشهدت طرقات شقلاوة جنود القوات الخاصة وهم يتبادلون الحديث مع الاهالى ، علت الأصوات شيئا بالطمأنينة ، بالضحكات بالسلام ، في يوم الجمعة أم أحد الجنود المصلين في المسجد .

منذ سنوات في عهد الحكومات الرجعية كانت وحدات الجيش تدفع لاتيان أعمال بعيدة تماما عن التصرفات الانسانية ، كاحراق القرى ، أو الانتقام من الابرياء ، كانت الأوامر في تلك الحالة لاتعنى اقتناع الجندى بما يقوم به ، بالعكس ، كان هذا يؤدى الى رجحان كفة الملا سياسيا الآن اختلف الوضع . المقاتل العراقى لايقوم بواجب فقط ، وانما يعمل عملا سياسيا . أما بشكل مباشر ويتمثل هذا في ضباط التوجيه السياسي الذين لعبوا دورا كبيرا في تطبيق الأسلوب الأنسانى خلال القتال ، أو بالتصرفات اليومية العادية التى تتمثل في سلوك جميع ضباط الجيش وجنوده .

في قرية ، (ديانا) التقيت بمقاتل عراقى اسمه محمد أمين من الوحدات الخاصة ، أصله كردى ، منذ فترة طويلة ، وهو يقاتل العصاة في الشمال

يقول ببساطة :

ـ لو أن العصاة كانوا يعملون لمصلحة الوطن لالتحقنا بهم .

انه يقاتل في الصفوف الامامية مع اخوانه المقاتلين الذين يمتون الى مختلف انحاء العراق ، من البصرة حتى زاخو والسليمانية ، محمد أشترك في الهجوم على (كلى على بك) يذكر ان ضباط كرديا من الوحدات الخاصه أيضا استشهد فوق (كورك) ، أسمة توفيق الزيادى ، وأثناء القتال جرح محمد ، ارتمى فوق الصخر ، وكانت طبيعة المكان وصعوبة الموقف، تقطع كل بارقة أمل يمكن أن تلوح له ، غير أن ياسين ولى الضابط العراقى الشاب ، ابن البصرة ، لمح الجندى محمد أمين ابن اربيل ، الكردى الاصل ، تقدم منه ، حمله فوق ظهره ، نقله الى النقطة الطبية الميدانية المصاحبة للوحدة .

ويقترب منا المقاتل مصطفى ، انه أحد أفراد الوحدات الخاصة ، من راوندوز ، قريته تبعد عنا كيلو مترات قليلة ، قرية (بالسيكان) ففى الشمال منذ ١٩٥٨ ، أى منذ خمسة عشر عاما ، اسرته كلها أجبرت على مصاحبة العصاة ، أشقاؤه كلهم في ايران ، انهم اربعة :

ـ أين يقيمون .. هل تعلم مكانهم ؟

ـ في ايران .

ـ الا تصلك اخبارهم ؟

ـ ما عندى أى خبر عنهم ٠

المقاتل مصطفى لايدرى شيئا عن أسرته ، يصمت قليلا ، ثم يقول أن هذه المأساة سببها الملا وزمرته ، وهم الذين جعلوا الاخ يرفع السلاح فى وجه أخيه ، سببوا هذا التمزق فى الشعب الكردى ٠ ٠ لمصلحة من تسيل كل هذه الدماء ؟

● ● ●

ـ استشهد أحد الرجال ، فى العش الصخرى ، فوق تاتان ٠

ـ متى ؟

ـ قبل بداية النهار ٠

لم يخف صوت المقاتل اهتزازة تأثر ، ونبرة ألم ، وقف بعض الرجال يحملون صندوقا خشبيا مفتوحا ، به بقايا الشهيد ، استعدت الموقع النائى القريب من السماء ، نظرت الى آثار انسان ، ولكم تثير الأشياء الصغيرة المتعلقة بأنسن رحل عن عالمنا الى أبد ٠

● الشهيد على حسين العمارى ٠

● صورةشخصية، الوجه فى العشرينيات ، أسمر ٠ واسع العينين ، أنفه مستطيل قليلا ، ٠ من البصرة ، خلف الصورة ختم مستدير (ستوديو الرضا) بغداد ـ مدينة الثورة ٠

● صورة للشهيد مع أحد أصدقائه ٠ كتب على ظهر الصورة (ذكريات عبرت أفق خـايلى) ، التقطت فى ٢٨ ينـاير سنة ١٩٧٢ ، عيد الأضحى المبارك ، فى ستوديو الأمة مقابل سينما غرناطة ، رسم قلب بداخله ، ناصر على ٠

● صورة مهداة الى الشهيد من شخص أسمه طالب ٠

● صورة للشهيد مع أحد أصدقائه فى مقهى بغداد ، فى جلستهما بعض الشجن ، ربما يذكران قصة غرام فاشلة أو يقصان بعض الأحداث المتعلقة بالغير ، أممنا علبة سجاير ، فى الخلفية شخص ما يحاول أن يظهر فى الصورة (وقت التقاط هذه الصورة ، هل كان رأى الشمال ؟ هل أشترك فى القتال ؟ ربما لم يكن يعرف أن هناك مكـانا فى العـالم أسمه العش الصخرى فوق جبل أسمه تاتان) ٠

● ● ●

كراسة سوداء ، تضم قصائد شعر أختـارها الشهيد من بين عدة دواوين قرأها ، فى الصفحة الأولى اهداء ٠

و ٠ ٠ هادئا كمرافىء المدن الراحلة ٠
هو الليل الذى تسكنينه
عنى
وعنك
وعن القادمين من ينابيع الصباح
كتبت قصائدى

(من هم القادمون من ينابيع الصبـاح ؟ نقلب صفحات الكراسة

برهبة وكأنما نقلب حياة الشهيد ذاتها) ·

عاود طير المهاجر على الديره
بجنح مكسور
عاود من بعد سنين
ياريحة جناحه بخور

كان الدفتر يصحبه فى تلك الاعالى الجبلية ، فى العش الصخرى ، وعندما تقدم مع زملائه لتطهير قمة الجبل ، أشتبك بالسلاح الأبيض مع بعض العصاة ، برقت طعنة فى بطن الليل وضعت حدا لمرحلة الشباب ، وللانفعال بقصائد الشعراء ، وأحلام السنين ·

●●●

الجمعة ١٤ مارس ١٩٧٥ :

حوالى السادسة صباحا ، فوق قمة (كورك) شهدنا خيط الضياء الأول ، ولادة الكون من جديد ، للشروق هنا طابع وتأثير مختلفان تماما عن الشروق فى حسنان ، هناك يفرض المكان رهبة ، شروق يكشف قمة سر حسن بك ولا يوضح طرفا من غموضه ، هناك فوق كورك الشروق صريح ، الجليد أقل كثافة ، ضيق كلى على بك لانراه لكن نشعر بامتداده الى أسفل ، تراكمت الصخور الجرانيتية فوق بعضها البعض بتأثير من بداية النهار الرمادية ، بدأ جسم الجبل كما لو انه تعرض لبلل خفيف ، أذكر ملامح بعض الأشجار فى حوض رواندوز ، فى الحرب تعانى الاشجار أيضا ، تموت ، تصاب ، فى جبهة السويس ، أمام القنطرة غرب بعض أشجار الكافور الضخمة على حافة القناة مباشرة ، بعد يونيو ١٩٦٧ ، بعد تهجير المواطنين وبدء حرب الاستنزاف وتبادل أطلاق المدفعية عبر القناة ، بدأ الذبول يتسرب الى هذه الأشجار · قيل وقتئذ أن الأشجار (تتخض) أى تفزع ، تماما كالانسان ، من يدرى ؟ ربما يتضمن حفيفها أصواتا تعبر عن أوجاع لاندركها نحن البشر ، أمس الخميس كنا فى أحد المواقع الأمامية عندما جاءت برقية من مجلس قيادة الثورة تفيد بوقف أطلاق النار بناء على طلب قدم من الحكومة الايرانية ، حتى تتاح الظروف التى تمكن من تنفيذ الاتفاق الذى وقع فى الجزائر ، التقطت أجهزة أســـــتماع الجيش العراقى برقية لاسلكية صادرة من قيادة الملا مصطفى البرزانى الى الوحدات التابعة لها بضرورة الالتزام بوقف أطلاق النار ، يوضح هذا درجة الارتباط بين قيادة الملا وايران ، ان الذى يطلب وقف أطلاق النار هو شاه ايران ، ثم يلتزم به الملا ·

فى وجه النهار الجديد يدوى انفجار بعيد ، لصدى الصوت أيقاع مختلف فوق القمم يعكس تردده فى الوديان ·

ــ ربما بعضهم لم يصله قرار وقف أطلاق النار ، ربما قذيفة فى أتجاه تحرك غامض ·

تصبح اللحظة محملة بالأحتمالات ، طلبت ايران وقــف أطـلاق النار لسحب وحدات مدفعيتها المشتركة فى القتال ضد الجيش داخل الأراضى

العراقية ، فى نفس اليوم أصدرت أوامر محددة الى الطيارين العراقيين وبطاريات المدفعية الثقيلة بعدم تدمير الجسور التى تقع فى المناطق الخلفية المتاخمة للحدود الأيرانية ، وذلك لاتاحة الفرصة أمام الوحدات الأيرانية للأنسحاب ، فى نفس الوقت صدر عفو عام عن الأكراد الذين أشتركوا فى العصيان ، وأذيع العفو بالكردية مرارا ، بالتليفزيون ،وألقت الطائرات ملايين المنشورات ٠

نداء الى كافة المواطنين الأكراد :

أخى المواطن الكردى ، أستفد من بيـان العفو الصـادر من مجلس قيادة الثورة لتسليم نفسك وسلاحك وكافة المستمسكات التى لديك ، وستلقى كافة التسهيلات اللازمة من أخوانك العسكرية والمدنيين ، فلا تدع الفرصة تفوتك ٠

((التوجيه السياسى))

ويمضى النهار ، ويبدو مذاق جديد للأيام ، أنها الأيام التى تشهد الأحداث الفاصلة فى الأمور الكبيرة ٠

المحور الرابع

أربيل ـ الجولان

أربيل مدينة مشرقة بقدر ما هي عجوز ، وجهها خال من التجاعيد ، ربما لتلك الحيوية المتدفقة عبر تاريخها الطويل ، لم تصبح هيكلا عظيما كبابل ، أو تحجرت مثل نينوى واختفت ، ولانها تقع في سهل فسيح فالضوء يغمر طرقاتها ، وطول النهار يداخلك أحساس ان الوقت ظهر ، حيث يبلغ الضوء درجة من الصفاء والشفافية حتى لتكاد تلمح ما وراء السماء الزجاجية الحادة في الآثار المسمارية ، البابلية ، الآشورية عرفت المدينة باسم (أربا أيلو) أي مدينة الأربع آلهة ، جاء ذكرها في الاسانيد التاريخية الآشورية منذ المائة التاسعة قبل المسيح . كانت مدينة مقدسة لوجود معبد الآلهة (عشتار) حيث يصلي فيه الملوك ويدعون الآلهة (عشتار) كي تنصرهم وكان المنتصرون يعمدون الى سلخ جلود اسراهم أمام محراب عشتار • أربيل ملتقى طريق القوافل القديمة ، والطرق الحديثة ، لهذا حفظت اسمها بحالته الى يومنا هذا • الا انها كانت على ألسنة التجار والرحالين ، تبعد عن شمالي كروك ٩٩ كيلو مترا ، وعن جنوب شرقي الموصل ٧٨ كيلو مترا فهي همزة الوصل بين هاتين المدينتين الكبيرتين ، وفيها يمر الطريق الى (رايات) الواقعة على الحدود الايرانية ، ولانها في موقع هام • فقد شهدت حروبا عديدة جرت بين مختلف الأمم ، بين الايرانيين واليونانيين ، بين ميدية ولودية ، بين الامويين والعباسيين ، ولكن أشهر الحروب التي جرت هنا تلك التي نشبت بين الاسكندر الأكبر ودارا ملك الفرس عام ٣٣١ ق • م ، في سهل (كوكا ميلا) . فر ملك الفرس هاربا بعد ان دفن كنوزه في القلعة ، ربما تكون مدفونة حتى الآن في بطن هذا التل •

جاء ياقوت الحموي الى أربيل ووصفها بانها (قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض ، وبقلعتها خندق عميق • وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة) •

كانت القلعة مسورة في العصر الاسلامي الوسيط ، وخلال هجمات المغول المتكررة على بغداد لم يظفروا بها ، انما دخلها التتر عام ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) فنهبوا بيوتها وخربوها وقتلوا عددا كبيرا من أهلها عندئذ تصدى لهم الأمير مظفر الدين كو كبوري فوجدهم رحلوا عنها ، جدد عمارتها واقام بها الأسواق والمرافق ، ومن آثاره الهامة بالمدينة منارة أربيل أو المنارة المظفرة ، تقع في الجبهة الغربية الجنوبية من المدينة ، يبلغ ارتفاع القسم الباقي منها ٢٧ مترا . وكانت تعلو مسجدا في الأصل ، لفتت نظر الكثيرين من الرحالة ، ذكرها نيبور في رحلته سنة ١٧٦٦ « وليس في أربيل آثار شاخصة ماخلا بقايا جامع كبير يقع بعيدا عن القلعة وسط الحقول وهو من آثار السلطان المظفر ، والمنارة القائمة بجوار الجامع قوية البناء وهي مبينة من الآجر والكلس » في سنة ١٨٢٠ زارها المستر ويج ووصف الجامع بأنه (متهدم وخرب) ، شاهد صامت على مرحلة كاملة من تاريخ أربيل ، ويقول الآثريون أن التل الذي تقوم فوقه القلعة يخفي بين طياته آثارا كثيرة تمت الى عصور تاريخية مختلفة ، لم يكشف عنها بعد الآن • التل تعلوه منازل • ويوجد فوقه عدد من المباني التي

تستخدمها المصالح الحكومية ، أن جدران التل تنمو عليها الطحالب الخضراء وهذا يكسبه طابعا خاصا اذ يتزواج اللون الأصفر للصخور ، مع لون الخضرة، عبر التاريخ الطويل نما التل نموا ذاتيا ، مدينة فوق مدينة تتقوض واحدة ـرتفع فوقها أخرى ، وهكذا يعلوا خلال عصور لا يعرف مداها ، لاينسب الى ملك ، أو حاكم معين ، تل صنعه الدهر ، فى اربيل يسيطر علينا أحساس عجيب بحيوية التاريخ وتدفقه ، ويتجول الاهالى ،الأكراد بزيهم التقليدى ، قميص ذو أكمام طويلة يشبه من المقدمة الجزء العلوى من الجلباب البلدى فى مصر ، ثم حزام (اسمه بالكردية البشتين) عادة ما يكون طوله عدة ياردات ومبروم برما كالحبل ثم يشد حول الخصر . ويحفظ هذا الحزام بالجسم مشدودا خاصة أثناء تسلق الجبال ، ويدفىء البطن فى الشتاء ، أما السروال (الده ربى) فيضيق حول الساق ، ان الزى يعيد إلى الذهن بشكل ما صورة المماليك والجنود العثمانيين ، انه زى موحد ، جميع الاكراد يرتدونه ، الفارق فى نوع القماش حيث يبلغ سعر الثوب الذى يرتديه أثرياء الاكراد حوالى ثلاثين دينارا وهذا يكون مصنوعا من شعر الماعز ، وينسج محليا ، أما الفقراء فيرتدون أنواع القماش الرخيصة ، ولكنه نفس التصميم . وفى فترة ما كان غطاء الرأس يدل بلونه على العشيرة التى ينتمى اليها الكردى . أيضا طريقة لف الغطاء انه يتكون من طاقية يلف حولها لفا هينا مرتين أو ثلاثا من حرير أو قطان ، وفى التلال المحيطة باربيل يصبح غطاء الرأس من اللباد مخروطى الشكل ويلف حوله ما يشبه الشال الذى نراه فى صعيد مصر ، حاليا يلف بعض الشباب حول اغطية الرأس لفائف براقة الألوان ، فى المدينة رأينا رجالا يرتدون جلبابا اشبه بالجلباب البلدى المصرى، قرب نهايته من أسفل مشقوق على أحد الجانبين، وبدلا من حزام الخصر التقليدى نجد حزاماً نحيلا من الجلد ، وفوق الجلباب جاكتته أفرنجية ، وغطاء الرأس مقارب للغطاء الكردى ، هؤلاء اكراد أيضا ولكنهم السكان الأصليون لاربيل . أى المنحدرون من أسر عاشت فى المدينة منذ تلك الأحقاب البعيدة ، أمام الفندق ذى الغرف الفسيحة طالعتنا لافتات ترحب بذكرى اعلان بيان مارس (آذار) ،مرت منذ أيام أثناء تواجدنا فى الجبال،لافتات بالكردية والعربية .. ابتسم لنا أيضا طفل فى حوالى الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة . يلف وجهه ورأسه بما يشبه الايشارب ، انه يجلس أمام صندوق لمسح الأحذية ، كانت ابتسامته عريضة كسهل أربيل ، ووجهه ينم عن جدية لا يعرفها عادة هذا العمر المبكر ، عندما خرجنا مرة أخرى والليل يقترب ، وثمة أضواء عديدة بدات تلمع فى المدينة ، رأيت مكان الصبى خاليا ، ربما ذهب الى أسرته بحصيلة يومه ! فى أربيل المقرات الرئيسية لمؤسسات الحكم الذاتى وعلى رأسها المجلس التشريعى ، هذه المؤسسات ستقود مختلف جوانب الحياة فى شمال العراق وهى التى ستقوم بتطوير الواقع الكردى المتخلف ، وقيامها بدورها الصحيح وتدعيمها يقطع الطريق على أى قيادة عشائرية متخلفة فى المنطقة ، كان الملا مصطفى البرزانى وعناصر القيادة العميلة يحاربون

مؤسسات الحكم الذاتى لوعيهم بمدى ما تمثله من خطورة على مراكزهم ، ومصالحهم . لكن يظل ثمه سؤال ،ما هى الظروف التاريخية التى أدت الى تزعم الملا مصطفى الحركة الكردية ؟ ما هو موقفه من الاتجاهات التقدمية والرجعية ، فى العراق ؟ ان هذا يقتضى العودة الى عام ١٩٥٨ عندما قامت ثورة تموز (يوليو) التى اطاحت بالنظام الملكى ، ورحبت بها الجماهير الكردية . أعلنت الثورة عفوا عاما عن الاكراد الذين صدرت ضدهم أحكام فى العهد الملكى بما فيهم الملا مصطفى البرزانى الذى لجأ الى الاتحاد السوفيتى منذ ثمانية عشر عاما ، هيأله عبد الكريم قاسم استقبالا ضخما، ويبدو أنه كان يريد كسب الملا مصطفى الى جانبه كقوة تدعم نظامه الدكتاتورى الذى بدأ ينحرف عن ثورة تموز (يوليو) ، أعلن الملا انه جندى مخلص لعبد الكريم قاسم لكن الوفاق لم يدم طويلا ونتيجة لتطور الظروف دب الخلاف من جديد عندما أتخذ قاسم اجراءات داخلية لم ترص الملا مصطفى فبدأ قاسم فى سبتمبر (أيلول) ١٩٦١ بشن هجوم عسكرى وبدأ يضرب تجمعات الاكراد . فى هذه المرحلة كان تسليح الاكراد خفيفا ومحدودا ، فى الجانب المقابل لم يكن الجيش مؤمنا بأهداف القتال ، كانت القوى الوطنية والتقدمية تتحد لتقاوم الحكم الدكتاتورى ، كان من الممكن تجنب القتال وخاصة أن مطالب الاكراد وقتئذ مشروعة ومتواضعة ،انصب معظمها على الغاء الاجراءات التى اتخذها قاسم ، كالغاء التدريس بالكردية أو أبعاد الموظفين الاكراد الى الجنوب .

فى فبراير ١٩٦٣ قامت الثورة ضد الحكم الفردى بقيادة حزب البعث وتضمن البيان الأول الصادر عن المجلس الوطنى لقيادة الثورة :

« تحقيق وحدة الشعب الوطنية بما يتطلب لها من تعزيز الأخوة العربية ، الكردية ، بما يضمن مصالحها القومية ويقوى نضالها المشترك ضد الاستعمار واحترام حقوق الاقليات وتمكينها من المساهمة فى الحياة الوطنية » .

وبعد أقل من شهر واحد على قيام الثورة صدر عن المجلس الوطنى لقيادة الثورة فى ١ مارس ١٩٦٣ بيان عن القضية الكردية جاء فيه :

« أن الثورة عازمة عزما أكيدا على تصفية أثار الحكم القاسمى البغيض وازالتها بالعمل على تطبيق مشاركة جميع المواطنين فى الوطن الواحد . وضمان حقوق أخواننا الاكراد » .

وبعد تسعة أيام ، فى ٩ مارس صدر اعلان من المجلس الوطنى يقضى باقرار الحقوق القومية للاكراد على أساس اللامركزية ، ورفض الملا شروط الادارة اللامركزية ، فى هذه الفترة بالذات بدأت العناصر الواعية فى الحركة الكردية تشعر بالقلق ، لقد ظهرت أسلحة جديدة غربية المصدر ، وجاء بعض المستشارين العسكريين الأجانب الى مقر قيادة الملا مصطفى البرزانى ، وشيئا فشيئا تدفقت المساعدات الأجنبية على الملا ، بدأت تظهر معارضة لقيادة الملا وصلت الى حد الصدام المسلح مع بعض الجماعات الكردية ، بدأت تطرح أسئلة ، لمصلحة من تنزف الدماء ؟ هل تنزف من أجل

مصلحة الشعب الكردى ؟ أم من أجل مصلحة الملا شخصيا ، أن ارتباطاته التاريخية بالانجليز معروفة ، وهو فردى فى قيادته ، ارهابى ، انه خبير فى تحطيم نفوس من يحيطون به ، أمام الجميع يسب سكرتيره الخاص بعبارات شديدة البذاءة ، ويزحف السكرتير على قدمية أمامه ، كثيرا مايلجأ الى أساليب المراوغة ، يبتعد عن الوضوح ، يرتدى لكل مجلس لباسه ، ويصبح صعبا التعرف على شخصيته الحقيقية ، أحيانا يتصرف بشكل مسرحى فيضرب صدره بقبضته ، أو يفتعل الانفعال ، وأحيانا يلوذ بالمظاهر الدينية ، لم يكن يبوح لاحد من المحيطين به عن مصادر تمويله كيف تصله النقود ، الأسلحة ، الطرق التى يستخدمها أعوانه فى الوصول بهذه الامدادات بدأت تتضح للعناصر الكردية المسلحة فهو فى نظر العالم جنرال وزعيم ، هكذا بدأ الصحفيون الغربيون بصورونه للعالم ، ولكن اذا حلت المشاكل فسوف يتضاءل حجمه ، واذا تطور الواقع الكردى فان الأساس العشائرى وقيم التخلف التى يستند اليها استنادا كبيرا فى تثبيت زعامته لدى الاكراد سوف تنهار ، أيضا فأن أى تغيير حقيقى فى المنطقة سوف يلحق الاضرار بالاقطاعيين ، والنظام العشائرى ، وهو مرتبط ارتباطا عضويا بكليهما ٠٠ كانت القاعدة الكردية المرتبطة بالملا فقيرة ، رعوية ، ارتباطها به عشائرى ، دينى ، فهو رئيس عشيرة البرزانيين وسلطته لها جانب دينى ، كان أيضا يحرص على تصعيد عناصر الى قيادة الحركة الكردية يمكن له حفر بها فى أى وقت ، كانت هناك عناصر نقيته فى القاعدة تقدكلما اقتربت من الملا ، يحاول بذكاء أن يربطهم به ، ارتباط له جانب مادى واضح ، على سبيل المثال كان عدد من القياديين المقربين منه يعملون ويشرفون على عمليات التهريب الواسعة التى يتم خلالها أغراق السوق العراقية خاصة فى الشمال ٠ بالبضائع المهربة عبر ايران ٠ وأصبح هناك مصطلح يطلق على تلك البضاعة (القشغ) وبضاعة القشغ كانت معروضة علنا حتى بداية التمرد المسلح الرجعى سنة ١٩٧٤ ٠ أتخذت السلطات الثورية العراقية عدة اجراءات تم بواسطتها منع (القشغ) ، من ناحية أخرى ظهر ثراء عريض على بعض القيادات التابعة له ، على سبيل المثال هناك شخص اسمه عزيز الاترونشى وهو أصلا معاون شرطة ، لم يكن يملك شيئا قبل انضمامه الى الملا ، بمجرد صعوده الى مجموعة القيادة أصبح له رصيد فى بنوك ايران يقدر بمائة أو مائة وعشرين ألف دينار ، أما الأعضاء ، الذين لا يستطيع الملا تصفينهم فكريا فكان يصفيهم جسديا ، بواسطة الاغتيال ، أو اختطافهم ، ثم احتجازهم فى سجونه الخاصة برايات وكلالة ، والسجون الفرعية الأخرى المنتشرة فى كل مكان ، من ناحية أخرى استمرت المحاولات من العناصر التقدمية لتخليص الحركة من المنزلق الذى بدأت تتجه اليه على يد الملا مصطفى وعندما صدر بيان آذار (مارس) ١٩٧٠ ، لاقى ترحيبا من جانب هذه العناصر ، وتطبيقا للنضج الثورة الذى تعامل به ثورة العراق المشكلة الكردية ، أفسحت المجال أمام الملا مصطفى للانضمام الى صفوف الوحدة الوطنية العراقية ، أبرق الملا الى الرئيس البكر معلنا التزامه بالبيان نصا وروحا ٠

اذن .. كيف جرت الامور فيما بعد ؟

عند صدور البيان لم يكن الملا بقادر على اعلان المعارضة الصريحة للبيان ، فى نفس الوقت راح يخطط لهدف أبعد . وهو الانفصال عن العراق وذلك بمعونة الدول الاستعمارية الكبرى ، الغالبيه العظمى من الاكراد أدركت هذا الهدف ، وعارضت الملا ، لان حل المشكلة الكردية سلميا عبر تطبيق الحكم الذاتى انما هو اجرء ديموقراطى يتجاوب مع مصالحها ، ويتيح لها فرص النمو والانتعاش وازدياد دورها فى النشاط الاقتصادى، وفى حركة السوق المحلية التى ستنتعش في ظروف السلم ، واعلان الحكم الذاتى يعنى ربط حل المسألة القومية الكردية بعملية التنمية الاقليمية ضمن خطة التنمية الشاملة ، سوف يؤدى هذا الى تصفية الاقطاع ، وأشكال الاستثمار البالية ، والنهوض بأوضاع المنطقة فى جميع المجالات . انخطة التنمية العراقية تنشط بمعدلات سريعة حركة التجارة والمقاولات والتصنيع وقطاع الخدمات ، وتطوير الزراعة فى الريف وهذا ما يتفق مع مصالح وأهداف الكثيرين من الاكراد . ان الانفصال عن العراق يعنى الوقوع فى فلك التبعية الأجنبية . أما الطبقات الكردية الكادحة فيعنى الانفصال بالنسبه لها مزيدا من الاستغلال وقطع أى أمل فى تحسين ظروفها .

من ناحية أخرى فان تطبيق الحكم الذاتى لا يعنى مجرد ربط عدة محافظات بوحدة ادارية . أو حتى اقرار اللغة الكردية كلغة رسمية . ان الحكم الذاتى يعنى ثورة فى المنطقه ، ثورة مضمونها استمالة الجماهير الكادحة والتفافها حول هذه التجربة بوصفها تجربة ديموقراطية ثورية ، لايمكن أن تنجح بدون مشاركة الجماهير وبدون كسب الجماهير الى جانبها، وحتى يتم هذا فان القوى الاقطاعية والرجعية لابد أن تتصدى لها حتى لايتحقق هذا الواقع الثورى . لم تنتظر تلك القوى تنفيذ الاجراءات بل شنت حركة مسلحة رجعية ضد الحكم الذاتى والثورة .. ولان التغييرات التى تجرى عميقه ، فان الثورة العراقية تعى تماما ان الاجراءات العسكرية لا تكفى ، انما لابد من عمل سياسي مكثف لتعبئة الجماهير الكردية ضد القيادة اليمينية ، وكان الجيش العراقى أحد الأعمدة الرئيسية ، الاساسية فى ممارسة هذا العمل .

●●●

لم يعارض الملا مصطفى البرزانى الحكم الذاتى علانية . انما اتبع خطا مراوغا يهدف الى تعطيل المشروع ، فى نفس الوقت يحاول الظهور أمام الاكراد بأنه حريص على مصالحهم ، وتركزت العراقيل حول عدة نقط :

- فى حين رأت الثورة ان يطبق الحكم الذاتى فى ثلاث محافظات تعيش فيها الأغلبية الكردية ، هى دهوك ، السليمانية ، أربيل ، وأن تكون مدينة أربيل مركز الحكم الذاتى ، رأت القيادة العميلة ادخال مناطق أخرى مثل (خانقين) على الحدود الايرانية ، وكركوك ، وجبال سنجار على الحدود السورية ، وجبال حمرين قرب بغداد وغيرها من المناطق المتخلفة والتى لا تشكل فيها الاكراد أغلبية .

- يقرر قانون الحكم الذاتى انشاء وحدات ادارية فى الشمال واعتبار كردستان وحدة ادارية لها شخصية معنوية تتمتع بالحكم الذاتى فى اطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للعراق ، فى مواجهة هذا طالبت القيادة اليمينية بنظام أقرب الى الوزارات المستقلة ، وباستقلال يؤدى فى النهاية الى اقامة كيان كردى منفصل تماما عن العراق ، ويلاحظ ان هذا الانفصال السياسى يلتقى مع الهدف الذى لم يعلن عنه البرزانى فى ذلك الوقت وهو الانفصال ، والذى جسدته خطته العسكرية ٠

ثم قدمت القيادة اليمينية عدة مطالب تعجيزية ، منها ضرورة صدور كل قوانين الحكومة المركزية من المجلس الوطنى . وضرورة ان تكون الشرطة خاضعة لسلطات الحكم الذاتى ، وبأن تكون هناك هيئة رقابة متبادلة على دستورية القوانين ، وطالب بالغاء مجلس قيادة الثورة فى العراق ٠ واستمرارا لنفس الثورة الطويل ، الصبور فى محاولة حل المشاكل بالطريق السلمى، عرض حزب البعث ان تكون كركوك منطقة مختلفة ، لكنهم أصروا على ضمها الى كردستان ، وبرغم المواقف السلبية والمعادية التى أتخذها الحزب الديمقراطى الكردستانى برئاسة البرزانى ، بالنسبة للجبهة الوطنية التقدمية ، ورفضه الاشتراك فيها ، رغم حملته الدموية على قواعد الحزب الشيوعى فى كردستان وعلى الرغم من مهاجمته لاتفاقية الصداقة والتعاون المعقودة بين العراق والاتحاد السوفييتى ، الموقف المعادى للاصلاح الزراعى ٠

على الرغم من هذا كله فقد تم الاتفاق على اجراء مفاوضات ثلاثية بين ممثلى الأحزاب الثلاثة ، اشتركت فيها شخصيات مستقلة عربية وكردية فى نهاية ١٩٧٢ لحل المشاكل المتعلقة بالحركة الكردية ٠

واستمرارا للرغبة فى حل المشكلة حلا سليما ، تم ابلاغ ممثلى الحزب الكردستانى بأن مشروع الحكم الذاتى ليس مجرد وجهة نظر لحزب البعث أو الحزب الشيوعى وانما هو صيغة للوصول الى اتفاق مشترك ممكن بين مختلف الاطراف ، وأوضح الرفاق فى الحزبين : البعث والشيوعى ، أن المرجو من الحزب الكردستانى أن يساهم للوصول الى صيغة ثلاثية يتم الاتفاق عليها ، وأوضح لهم الرفيق صدام حسين أن البعث متفتح ، ومستعد لتغيير موقفه اذا وصل إلى قناعات جديدة ، وأشار الى أن الموقف الحالى لم يكن موقفنا من قبل ، وأنه من خلال العلاقات مع الشيوعيين أمكن الوصول الى قناعه جديدة ، ولكن ممثلى البرزانى اصروا على موقفهم ومطالبهم الخاصة بكركوك وغيرها ، وأعلن محمد محمود رئيس الوفد الكردى فى ختام المناقشات أن هناك كل المبررات لاقامة علاقات بين ايران والحركة الكردية ٠

هكذا أصبح من الواضح أن البرزانى يضع العراقيل فى سبيل أى تفاهم أو حل سلمى جذرى للموضوع ، وبدأت ارتباطاته تتكشف أكثر ونواياه الانفصالية التى تتعارض مع الحركة الكردية ، ومنذ ١٩٦٣ وحتى ١٩٧٣ كانت القوى الواعية والتقدمية فى الحركة الكردية تنفصل عن الملا وما يمثله وعندما بدأ الملا تنفيذ مخططه العسكرى سنة ١٩٧٤ كان قد وصل

الى أقصى درجات العزلة ، كانت الثورة العراقية قد عزلته تماما ، والى صفوفها انضمت القوى التقدمية فى الحركة الكردية · حملت السلاح لتقاتل التمرد اليمينى الرجعى ، وعندما بدأت العمليات العسكرية كانت هناك قوى كردية تحمل السلاح الى جانب الجيش ·

وفى القرى المنتشرة بسهل أربيل الخصب ، مركز الاقطاع الكردى ، التقينا بعديد من الفلاحين الاكراد المستفيدين من قانون الاصلاح الزراعى ، كان بعضهم مؤيدا للملا يوما ، ولكن بعد ضرب الاقطاع واستلامهم الأرض حملوا السلاح واستماتوا فى الدفاع عنها ضد عصابات الملا التى يقودها كبار الاقطاعيين في كردستان ، وتطبيق قانون الاصلاح تطبيقا جذريا يمثل أحد عناصر التحول الاجتماعي الهامه فى كردستان ، اذ انه ينسف الأضية التى تستند اليها القوى الاقطاعية والرجعية المناهضة للثورة ، لقد عارض الملا قانون الاصلاح الزراعى ، وأشار أثناء المناقشات التى جرت بداية اعلان الجبهة الوطنية التقدمية الى أن ميثاق الجبهة له محتوى طبقى ، لانه نص على تصفية الاقطاع فى كردستان ، وتساءل لماذا نص الميثاق على كردستان فحسب وليس على العراق كله متناسيا أن مناطق العراق الأخرى لا يوجد بها مثل تلك الأوضاع الاقطاعية ، حيث كان الاقطاع قد تمت تصفيته على عكس المناطق الشمالية ، حيث تصل ملكية بعض الأفراد الى ما يتراوح بين ٢٠ ــ ٣٠ فدانا ·

ونمر ببعض القرى ، ان القرى الكردية مبعثرة بعيدة عن بعضها البعض · واعتبارات كثيرة تتدخل فى اختيار موقعها ، فى الماضى كان البعد عن الطرق المطروقة أمرا يدخل فى عوامل الاختيار موقعها ، وذلك لاختفائها عن عيون رجال القبائل المغيرة ، أو قطاع الطرق ، أيضا فان وجود نبع مياه قريب أمر له تأثير كبير ، وكثيرا ما ترى فى كردستان قرى مهجورة ثم تجد بعد مسافة قليلة لا تزيد عن كيلو متر ، قرية أخرى عامرة بالسكان ، انها نفس القرية المهجورة ولكن سكانها انتقلوا من الموضع الأول ·· لاعتبارات عديدة لها علاقة بظروف المكان أو مصدر نبع المياه ·· ان مكان القرية هنا ليس ثابتا ، القرية فى مصر مثلا تقبع فى مكانها منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة ، حتى الأجداد القدامى عندما اختاروا مواقع القرى فى وادى النيل اختاروها فوق مرتفعات للبعد عن اخطار الفيضان ، بل ان مكان البيت الواحد محسوب منذ الأترل بالشبر والمتر ، نفس مكانه ، قد يتهدم البناء ويقوم غيره ، لكن رقعة الأرض ثابتة يتوارثها الأبن عن الأب عن الجد ، هنا فى شمال العرا، لا تستقر قرية فى موقعها ، وربما يرجع هذا الى طبيعة المجتمع الرعوية ، قبائل عديدة من الاكراد تترك قراها فى الصيف وتصعد الى أعالى الجبال ، اذكر اننى رأيت من الطائرة أثناء مرورنا فوق المرتفعات المحيطة بدربندى خان ، عددا من الابينة المهجورة ، بدت غارقة فى الوحدة ، وحدة مصدرها الشتاء البارد الجليدى وهجرة الانسان لها ، عرفت الآن انها القرى الصيفية التى ترحل اليها العشائر فترة الصيف ، يصعد الجميع بعائلاتهم ونسائهم وأطفالهم ، من هنا فان الكردى لا يتردد كثيرا

عند اختيار موقعه ، سواء السياسى ، أو المعاشى المتعلق بتكسبه للرزق ، فى مصر ونتيجة للاستقرار الزراعى الطويل ، والتوازن فى الطبيعة المصرية، حيث الوادى منبسط ، والسماء فسيحة ، ولا جبال شاهقة ، يصبح اتخاذ قرار يتعلق بتغيير مسار حياة انسان أمرا صعبا ، ولهذا لم تعرف الحياةالمصرية هجرات جماعية واسعة ، الانسان يعنى الأرض ، هنا يمكن للكردى ان يغير موقعه بسهولة ، فقط اذا اتخذ القرار ، واقتنع ، يترك وظيفته اذا كان موظفا ، أو أرضه اذا كان فلاحا ، أو متجره اذا كان تاجرا ، قبل وصولنا (أربيل) بيومين ، عادت الى العراق ألف ومائة عائلة كردية كان قد تم تهجيرها الى ايران تحت أرهاب الملا ، قطعوا ثلاثة آلاف كيلو متر عبر الحدود التركية ليعودوا الى الوطن بدون مساءلة ، أو مناقشة ، فى بعض المواقع التى دارت فيها المعارك وقع اكراد عصاة فى الأسر ، وتعبير الأسر هنا لا يعبر بالدقة عن ظروفهم الجديدة ان الجيش لا يرسلهم الى السجن ، انما يرحل المخدوعين والبسطاء الى قراهم فورا بسيارات الجيش ، بعض هؤلاء من أفراد البيشمركة أو المثقفين يتم ابقاؤهم لأيام قليلة ، خلالها يتم معهم عدة لقاءات ومناقشات ، فى أحد المعسكرات بمنطقة أربيل قام مسئول تنظيم حزب البعث باجراء حوار طويل مع العائدين المحتجزين ، قام بعضهم أثناء المناقشة ، طلبوا سيارات وكاشفات الغام ·

ـ لانني زرعت بعض الألغام فى المنطقة الفلانية ··

شخص آخر ، قال انه يعرف طريقا سريا للامدادات التى تصل من الخارج ، لم يطلب أحد منهم معلومات ، ولم يجر أى تحقيق ولكن بالمناقشة، والاقناع الهادىء ، الانسانى ، تتضح كل الأمور ·

من أهم المشروعات التى ستتم فى منطقة الحكم الذاتى بالعراق مجمعات القرى ، وهى مناطق خصصت لبناء عدد كبير من المساكن ، أى ما يشبه قرى كبيرة أو مدنا صغيرة ، مزودة بجميع احتياجاتها ، من المرافق ، والخدمات الحديثة ، سوف يتم تسكين عدة قرى فى كل مجمع واحد ، بدىء فعلا فى المشروع وتقوم ، شركة ايطالية بتنفيذه ، وهذا المشروع سيحدث آثارا ايجابية عميقة على المجتمع الكردى والأنسان الكردى ، بعض الشركات الأجنبية بدأت بالفعل تنفيذ عدة طرق رئيسية ، ومع امتداد الحضارة تسقط السلبيات ، والأهم هو توفير المناخ النفسى للمواطن ، ووضع حد لهذه الدراما المؤلمة ، فى المجلس التشريعى التقينا بأحد الزعماء الأكراد الذين يقاتلون الى جانب الحكم الذاتى ونعلم أن والده سجن عند الملا ، أختطفه بعد أن أنضم الى الثورة ، ونودع عددا من المسئولين عن الحكم الذاتى وتمتلىء عينا أحدهم بتعبير يطغى عليه الحزن ·

ـ عشت أياما فى مصر ··

للأكراد مشاعر قوية تجاه مصر ، فى سوق أربيل يتعرفون الى اللهجة المصرية بسرعة ، والعلاقات بين مصر والأكراد قديمة وموغلة ، صلاح الدين الأيوبى ، الكردى الأصل ، كانت مصر مقره ، ومنها هزم الصليبيين ، وفى شوارع الأزهر والغورية أصحاب متاجر أصلهم كردي ،

وفى سنة ١٨٩٨ صدرت أول جريدة كردية فى مصر ، حتى صدور هذه الجريدة كانت اللغة الكردية لغة تحدث وشعر وليست لغة كتابة باستثناء كتابين صدرا فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهما « مولود نامه » للشيخ حسين القاضى . و « العادات والتقاليد الكردية » للملا محمود البايزيدى . لهذا أكتسب صدور جريدة (كردستان) أهمية خاصة فى تاريخ اللغة الكردية وجميع أعداد هذه الجريدة محفوظة الآن فى المكتبة الحكومية بمدينة (ماربورك) بألمانيا الغربية .

● ● ●

فى سوق اربيل القديم .

كنت أتجول فى دروبه التى تبدو وكأنها لا تسرى فى مكان ، أنما فى قلب التاريخ ، بمجرد دخوله يتراجع الزمن بالأنسان مئات السنين ، وكأن آلة زمن خفية رحلت بك بعيدا عن سنيننا العصرية ، الطـرقات مسقوفة ، والدكاكين مفتوحة بدون حاجز (بنك) ، انما أرضية الدكان تمتد حتى مقدمه ، مرتفعة قليلا عن الأرض بما يشبه المصطبة ، وعند مقدمتها يجلس صاحب الدكان بزيه الكردى التقليدى ، أو التركمانى ، أو العربى ، بينما تصطف البضائع حول جدران المتجر ، كل جزء من السوق يحتوى على نوعية معينة من المعروضات ، هذا للقماش ، هذا للجلود ، للابسطة ، للحبال ، تبدو الطرقات وكأنها صيغت من سنوات قديمة ، كل منها يؤدى الى الآخر ، متشابكة متداخلة ، متصلة كالزمن ، أحجام الدكاكين تحددت بعناية ، لم يحدث اتفاق على أن تصبح كلها محدودة بحواف نظيفة رائعة ، ولكن جاءت هذه العفوية فى البناء فأضفت على المكان رونقا ، كأن تتابع الدكاكين وتواليها كتقاسيم حلوة ، هادئة من آلة القانون ، تحرك حنيننا وشجنا خفيا موصولات بالأيام البعيدة . فى قلب السوق بناء يشبه (الوكالة) (١) مسقوف ، وبالسقف فتحات تؤدى الى زرقة السماء ، غير أن الضوء يصل هنا خاليا من عكارة الأيام ، وهموم الانسان ، فكأن ماء الورد جرى فى العروق بدلا من الدماء ، حول فناء الوكالة دكك حجمها يغرى بالجلوس اليها ، واغماض العينين ، أو التطلع الى الجدران الرمادية ، والبوح اليها بما يضنى ، وبما يفعل الانسان للانسان ، وحرب الأخ ضد أخيه ،وحول الفناء رصيف يحف الجدران ، أما لون الأرض الرمادى الحنون فيوحى وكأنه يرش بانتظام من أيد خفية تخدم المكان ، بين الحين والآخر يمر عبر الطريق الضيق رجل منحن حتى يكاد يلامس رأسه الأرض ، وكأنه لم يظهر من دروب السوق ، أنما من احدى ليالى ألف ليلة وليلة ، صورة حية لحمال بغداد الشهير ، وترى رجلا عجوزا ينوء بأثقل الأحمال التى يعجز عنها شاب فى مقتبل العمر . لكنها الخبرة والجهد البشرى الذى يتغلب على كل شيء ، يقطع فناء الوكالة شاب تركمانى خرج من دكان يستخدم كمقهى لا يجلس أحد بداخله ، طبيعة المكان لاتسمح

---

١ — الوكالة تسمى فى العراق « القلوة » .

بلعب النرد أو الطاولة ، أو الورق . صيغ المقهى البسيط للتأمل ، أما الصينية المستديرة التي يحملها الشاب ، والتي يستقر فوقها عدد كبير من الأكواب الصغيرة نحيلة الخصر والتي يسمون الواحدة منها في العراق (استكان) فتبدو بمشروب الشاى الأحمر الذى تحويه وكأنه مشروب رائق ، ينهى زحف الزمان الذى توقف على مدخل السوق ، من أحد الطرقات المسقوفة يتفرع طريق ضيق ، سقف نصف دائرى على جانبيه متاجر للسجاد ، والابسطة . على نهاية الطريق فتحة مستديرة تؤدى الى الخارج . وبدا الضوء متوهجا ، وكأنه نيران تملا فوهة فرن ، لا يغرى بالخروج من السوق ، لرائحة الفراغ ايقاع خاص ، وكأنه بهو أنيق أغلق على ما فيه من تحف أنت من كافة انحاء الدنيا ، وحشايا وثيرة ، واستمر مغلقا مئات الاعوام ، ثم فتح فاذا بالنافورة التى تتوسطه لا تزال ترسل ذوائب الماء ، رائحة كأنها تنتشر فى مقام ولى ، بها رهبة ، وتجبر على تأمل عميق ، وقع الايام والسنين لم يدركا سو اربيل القديم ، السوق المتسامح الرقيق ، وكان كل فراغه كتب عليه بحروف خفية ، « والتين والزيتون وطور سنين ، وهذا البلد الأمين » مشيت فى هذا الديكور الحى لالف ليلة وليلة ، أيام ابن اياس والجبرتى ، وما شاهده بن جبير ، وابن بطوطة ، نظر الى صاحب متجر كل شعيرات راسه بيضاء ، أيام تجمدت ، أمام متجر قماش تطلع الى رجل على أبواب الخمسين ، وبدت جلسته المتقوقعة وكأنه يحتمى بالسوق والدكان من مجىء الزمان ، يبدو انه أصغى الى حوارى مع زميل الرحلة .

ـ هل انت مصرى ؟

ـ نعم ..

وابتسمت بينما المكان يلفنى باطار من القدم ، قال على مهل :

ـ وتساءلت عيناى ، أجاب بسرعة :

ـ الى مصر .. سأحضر فى سبتمبر القادم .. وأزور القاهرة .. والاهـرامات .

صمت لحظة ، خيل لى ان جلسته ازدادت تقوقعا ، ذكرنى بالرجال الذين ينحنون على مخارطهم اليدوية فى خان الخليلى ، يصوغون الحلى والقلائد من العاج ، والمرمر ، والبلاستيك .

مددت يدى محييا ومصافحا ، وعندما مد يده ، ظل فى جلسته التقوقعة لم يقم ، واكتشفت انه قعيد ، فى هذا المكان النائى يحلم بالسفر ، والرحيل الى مصر ، وجاءت اللحظة التى غادرنا فيها السوق ، هجرنا البلد الأمين ، والزمن الرائق ، الى الضجيج والسيارات ، والأيدى المسكة بالسلاح ، والصراع .

فى المساء تبدو أربيل عصرية تماما . تسطع الأضواء ، وتتوهج آلاف المصابيح ، وفى الطرقات الفسيحة الممتدة فى ضواحى المدينة تنطلق السيارات بأنواعها المختلفة ، وعلى الجانبين تقوم البيوت الحديثة ، كل منها تحيطه حديقة ، وسور يتوسطه باب مغلق ، ومن خلال النوافذ المطلة على الطريق والمغطاة بستائر مسدلة تتوهج أضواء الاستقرار الأسرى ، هذه

المصابيح التى تضىء فوق أفراد اسرة تجمعت لتتناول عشاء أو أصحاب يتسامرون ، وتنطلق بنا السيارة الى خارج اربيل ، ويبدو الليل فسيحا ، ظلامه لا تخفى الفراغ المنطلق فى السهل ، نمضى للقاء أحد الضباط الذين شاركوا فى حرب اكتوبر ، بقدر ما تنكشف أبعاد القضية الكردية كلما مضى بنا الرحيل عبر الشمال ، كلما بدأ يتكامل دور الجيش العراقى فى حرب أكتوبر فالرجال الذين حاربوا على الجبهة السورية ،هم الذين يحاربون ضد القيادة الكردية العملية ، وفى هذه المناطق النائية التى قد تبدو بعيدة عن الجولان يواجه المقاتلون العراقيون ، ضباطا اسرائيليين يعملون مع الملا ، اما لتدريب العصاة على الأسلحة التى زودتهم بها اسرائيل ، أو للقيام ببعض النشاطات التخريبية الخاصة ، وتلك يشرف عليها ضباط مخابرات اسرائيليون يقيمون فى (كلاله) معقل الملا ، وهكذا تمثل الحرب التى خاضها الجيش العراقى فى الشمال صورة أخرى من حرب أكتوبر ، ومع الليل ، وبتأثير الجو التاريخى الذى يشع فى اربيل حتى فى احيائها الحديثة ، استعرض بمخيلتى عشرات الضباط الذين التقيت بهم حتى الآن ، ومئات الجنود الذين يشكلون قوام الجيش الوطنى العراقى . أن الخلفية التاريخية للجيش تدخل فى التكوين النفسى ولحضارى للمقاتلين واذ يتطرق الذهن الى تاريخ الجيش العراقى يجب أن يفصل بين حالتين : الحالة الأولى ، وتتناول المواطن العراقى كمقاتل ، والحالة الثانية وتختص بالمواطن العراقى كمقاتل فى الجيش النظامى ، الحالة الأولى تحتمل العديد من الدارسات النفسية والاجتماعية والحضارية والتركيب القبلى للعراق ، والطوائف ، والأقليات والصراعات السياسية التى كانت تتخللها الحروب دائما ، والحروب التى دارت فوق أرض العراق ضد الغزاة الخارجيين عبر العصور المختلفة والحروب الداخلية ، والثورات المسلحة ضد الحكومات الأجنبية والرجعية ، أما الجيش العراقى فنستطيع أن نعود مع تاريخه الى البداية بالتحديد فى سنة ١٩٢١ ، لقد جاء ميلاد الجيش بعد ثورة العشرين التى اشتعلت ضد الانجليز والتى فشلت بسبب قوة الاستعمار البريطانى وقتئذ ، وتحالف القوى الرجعية معه لكن هذا الفشل لم يكن يعنى أن آثار الثورة قد ؟ حتثت تماما . لقد تشكلت حكومة الاستقلال وكان عليها أن تنفذ عدة مطالب شعبية فى مطلعها تشكيل جيش نظامى يكون دعامة من دعائم الاستقلال ، وهذا الشعار منبثق من ثورة العشرين ، وبالفعل تأسست وزارة الدفاع ، وعين الفريق جعفر العسكرى أول وزير لها . تولى مهام منصبه فى ٦ يناير (كانون أول)١٩٢١ ، وبعد استكمال تشكيل دوائر المقر العام بالاستعانة بقسم كبير من الضباط العراقيين الذين خدموا فى الجيش العثمانى ثم صدر نظام التطوع اعتبارا من ١ يونيه (حزيران) ١٩٢١ ، ونص على انه يجوز لكل عراقى يتراوح عمره بين ١٨ ، ٤٠ سنة التطوع فى الجيش ، وتشكلت فى نفس الشهور دوائر التجنيد ، واقبل عدد كبير من المجاهدين العراقيين وأدى هذا الى تحديد مبدئى لطبيعة تكوين الجيش .

وعلى المستوى العربى والعالمى ، جاء ميلاد الجيش فى ظروف الثورات الوطنية التى اجتاحت العالم العربى ضد الاستعمار بعد انتهاء الحرب العالمية

سنة ١٩٢١ تم فى ثكنة الخيالة (التى سميت فيما بعد بالثكنة الشمالية) اكتمال ٢٣٤ جنديا متطوعا ثم جاء عـدد آخر من المتطوعين حتى اصبح بالامكان تشكيل الفوج الاول فى بغداد خلال يوليو ١٩٢١ . وعندما ازدحمت ثكنة الخيالة بالمتطوعين وضاقت عن استيعابهم استؤجر (خان الكابولى فى الكاظمية . نقل الفوج اليه فى ١٧ اغسطس (آب) ١٩٢١ ؛ بدأ الجيش يتوسع ويتزايد عدده ونتيجة لهذا بدأت الدولة تتحمل تكاليف باهظة ، من هنا صدر قانون التجنيد الالزامى فى ١٢ يونية (حزيران) ١٩٢٥ ، بعده أعيد تنظيم الجيش على هيئة فرق ، تم تشكيل الفرقتين الأولى والثانية بتاريخ ١٥ ابريل (نيسان) ١٩٣٦ الأولى فى بغداد ، والثانية فى كركوك ، وفى اول أكتوبر (تشرين أول) ١٩٣٨ تشكلت الفرقة الثالثة (اشتركت الفرقة بأكملها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣) ، وفى يناير ١٩٤٠ تشكلت الفرقة الرابعة فى الديوانية ، وفى سنة ١٩٤١ تشكلت أول كتيبة مدرعات وكانت مزودة بسيارات شيفروليت وتسليحها رشاشان متوسطان وفى سنة ١٩٣٣ تأسس سلاح المهندسين وفى عام ١٩٦٤ انشىء سلاح الحرب الكيماوية ، أما المظليون فيرجع تاريخ انشاء وحداتهم الى منتصف عام ١٩٥٦ والصاعقة فى أبريل ١٩٦٤ أما سلاح الطيران العراقى فقد تكون فى سنة ١٩٢٧ عندما أوفدت أول بعثة طيارين عراقيين ، وفى أكتوبر ١٩٣٧ وصلت الى العراق سفينتان حربيتان كانتا النواة للقوة البحرية العراقيـة .

فى سنة ١٩٤١ قامت حركة وطنية استهدفت الحكم الملكى والوجود الانجليزى ، وعد الانجليز بالاستجابة لمطالب الجيش لكنهم نقضوا وعدهم وانقضوا عليها ، واعـدموا قادة الثورة فى مايو (مايى) ١٩٤١ وطاردوا الباقين وكان تغلب الانجليز يرجع الى تفوقهم فى السلاح والمعدات وعدد الأفراد . وفى سنة ١٩٤٨ دخل الجيش العراقى حرب فلسطين ولعبت وحدات الجيش دورا كبيرا فى الحرب ، وعلى المستوى الفردى ، والوحدات القاتلة اظهرت بطولات فذة ولكن حجم الهزيمة كان شاملا بالنسبة للجيوش العربية كلها ، وفى سنة ١٩٥٢ حدثت انتفاضة شعبية وفى ١٩٥٤ ثار الشعب ضد حلف بغداد ورفض الجيش اطلاق النار على المتظاهرين - تنفيذا للاوامر الصادرة اليهم من القصر الملكى . وفى السنوات التالية . بدأ تنظيم الضباط الاحرار الذى سار جنبا الى جنب مع الجبهة الوطنية ، حتى تفجرت ثورة يوليو تموز ١٩٥٨ ، وأطاحت هذه الثورة بالحكم الملكى ، والاحتلال الانجليزى ، وفى فبراير (شباط) ١٩٦٣ التحم الجيش بالشعب بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى فاسقط حكم عبد الكريم قاسم الديكتاتورى . وفى ١٧ يوليو ١٩٦٨ اشترك الجيش فى الثورة ضد الحكم الرجعى الفردى مرة أخرى وبقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى ، ومنذ هذا التاريخ وهناك خطة موضوعة لتطوير الجيش العراقى فى اطار شامل بحيث يصبح جيشا مقاتلا على أحدث الاساليب القتالية العصرية ، شمل هذا التسليح الذى اعتمد على مصادر متعددة وأساليب التدريب والتوسع فى القاعدة العددية حيث انشئت عدة فرق جديدة وتشكيلات حديثة

مختلفة ، أصبح الجيش العراقي يعتبر الثاني في الترتيب من حيث تعداد الجنود والضباط بعد الجيش المصرى فى المنطقة .من ناحية اخرى بذلت الثورة جهدا كبيرا الجيش ، وفى هذا يقول التقرير السياسى الصادر عن المؤتمر القطرى الثامن لحزب البعث :

« وقد واجه الحزب والثورة منذ اليوم الاول للثورة وبصورة ملحة جدا مهمتين اساسيتين .

الأولى : تعزيز قيادة الحزب للجيش جنبا الى جنب مع تطهيره من العناصر المشبوهة والمتآمرة والمغامرة . ونشر مبادىء الحزب والثقافة القومية والاشتراكية العامة بين منتسبيه . ووضع الأسس والضوابط المبدئية والعسكرية التى تمكنه من تأدية واجباته على أكمل وجه وتحصينة ضد الانحرافات والمنزلقات التى ارتكبت باسمه . فى العهدين القاسمى والعارفى « زمر » الارستقراطية العسكرية » .

« وضمان التحامه الكامل بالحركة الشعبية التي يقودها الجزب واسهامه الفعال والصحيح فى البناء الثورى » وفى تأدية المهمات الوطنية والقومية .

والثانية : هى القضاء على أوضاع التخلف والفوضى التى نشأت فى الجيش خلال العهود الماضية ، وتنظيمه على اسس علمية حديثة وتطوير أساليب تدريبه وتعبئة قدراته النضالية والفنية ، وزيادة تشكيلاته وامداده بأسلحة ومعدات قوية وحديثة .. كى يتمكن — وعلى أفضل وجه — من تأدية واجباته المقدسة فيالحفاظعلي وحدة البلاد ودرء العدوان الخارجى. والاسهام الفعال في المعركة القومية ضد العدو الامبريالى الصهيونى .

وكما سبق أن تحدثنا فى الفصول الماضية فان الظروف الموضوعية البالغة التعقيد والخطورة التى رافقت مسيرة الثورة وبخاصة فى مراحلها الأولى منهما عبر مسيرة طويلة ومعقدة جدا ، تم خلالها موازنة الكثير من الاعتبارات الدقيقة واعتماد شتى الصيغ حتى تمكن الحزب من انجاز القسم الأكبر منها بنسب عالية من النجاح » .

ان اتباع هذا الأسلوب فىتنقية الجيش من العناصر المتآمرة والمشبوهة وبنائه على أسس ثورية كان مسألة حتمتها ، فى الظروف الموضوعية الخاصة بالثورة وبالقطر العراقى وبالمنطقة . كما حتمتها ، فى الوقت نفسه ، ظروف العصر الراهن ومتطلباته .. لذلك فان الحديث عن « حل الجيش القديم » وبناء جيش ثورى جديد أو التسرع فى اجراء تغييرات واسعة النطاق فى الجيش يبتعد كثيرا عن التقديرات العلمية والموضوعية ، لا يعبر عن موقف ثورى جاد كما ينطوى على مجانبة كبيرة لمستلزمات تحقيق الغرض المنشود .

فعندما قامت الثورة كانت حالة « شبه الحرب الأهلية » قائمة فى البلاد بسبب الأوضاع فى المنطقة الشمالية ، وكان جزء من الجيش العراقى يعسكر فى الجبهة الشرقية فى الأردن . وكانت الظروف العربية تلح الحاحا شديدا على زيادة عدده هناك ، حتى بلغ تعداده أكثر من خمسين ألفا .

وقبل أن تجتاز الثورة السنة الأولى ألغت الحكومة الايرانية معاهدة عام ١٩٣٧ ، وخلقت حالة تهديد عسكرى جديد وخطير على حدودنا الشرقية .

وبالاضافة الى هذه الظروف التي تستوجب تصرفا خاصا والاستعانة باكبر قدر ممكن من كوادر الجيش رغم عدم تطابق مواصفات البعض منها وهويتها مع تصورات الثورة ، فان طبيعة الجيوش العصرية وطبيعة اسلحتها واساليبها تختلف اختلافا شاسعا عن طبيعة الجيوش فى المرحلة الأولى من هذا القرن ، ابان اندلاع الثورة الروسية واستمرار الثورة الصينية على سبيل المثال ، فبينما كان السلاح الرئيسى لتلك الجيوش هو البندقية التى لا يتطلب التدريب عليها سوى بضعة ايام أصبحت أسلحة الجيوش المعاصرة متنوعة كالطائرات والصنف المدرع والمدافع وأجهزة الرادار وغيرها من الأسلحة والمعدات المعقدة وذات المستوى التقنينى العالى ، لذلك فانها تتطلب سنوات عديدة كي يحسن الضباط والجنود استعمالها .

ويجب أن ناخذ بالاعتبار ـ اضافة الى ما ذكرنا ـ حقيقة مهمة وأساسية اخرى فى هذا الصدد هى صغر رقعة العراق الجغرافية قياسا الى رقعة كالاتحاد السوفيتي أو الصين .. وتحتل هذه المسألة أهمية استثنائية فى ظل العصر الراهن ، بما يتميز به من اسلحة متطورة بعيدة المدى ومن وسائل مواصلات سريعة جداً .. كما تشكل خطورة كبيرة على أمن البلاد اذا ما بقى جيشها ضعيفا فترة طويلة من الزمن .

الطريق الواقعي

لذلك كان اعتماد اسلوب المراحل والنفس الطويل فى اعادة بناء الجيش بناء قويا متينا هو الطريق الواقعي الوحيد أمام الحزب وقد حتمته الحقائق والمستلزمات التى أشرنا اليها ، كما ان طبيعة التحالفات التى كانت قائمة فى المرحلة الأولى من الثورة والتى سبق الحديث عنها كانت من التى اخرت عملية تطهير الجيش فى الأشهر الأولى لقيام الثورة بينما كانت مؤامرات الجيوب المشبوهة والزمر المغامرة فى داخل القوات المسلحة من العوامل التى أسرعت في هذه العملية . أن هذا الطريق الواقعى والثورى معا الذى اختاره حزب البعث العربى الاشتراكى حقق نجاحا منقطع النظير ، لم تبلغه من قبل تجربة ثورية عربية .. أو اية تجربة مماثلة فى العالم الثالث .

ان الاسلوب الذى اتبعه الحزب خلال السنوات الماضية فى تنقية الجيش من العناصر المشبوهة والمتآمرة والمغامرة ، وبناء تنظيم حزبى طليعي واسع وفعال بين صفوفه قد حقق نجاحا اشراف قيادة الحزب منظمة الحزب المختصة بالعمل داخل الجيش تحت اشراف قيادة الحزب دورا طليعيا فى انجاز هذه المهمة ، وعبر رفاقنا العسكريون عن اعمق وأوفى ممارسات الانضباط الحزبي والولاء للحزب ، وأشاعوا فى الجيش تقاليد الطاعة لقيادة الحزب والثورة ، وبذلوا نشاطا فكريا وتنظيميا واسعا لدعم منظماتهم الحزبية فى داخل الجيش ونشرها فيه على أوسع نطاق ..

فأصبح للحزب اليوم منظمة حزبية طليعية ونشيطة تشغل بالتضافر مع ضباط الجيش وجنوده الوطنيين ذراع الثورة الضاربة وعينها الساهرة على أرض الوطن ومكتسبات الشعب .

وفي الجانب الآخر .. قطع الحزب والثورة اشواطا بعيدة على طريق تنظيم الجيش على اسس علمية حديثة ، وتطورت فيه خلال السنوات الماضية اساليب التدريب كما ارتفعت قدراته القتالية وتطورت وسائله الفنية ، ويمتلك جيشنا ـ الآن ـ أسلحة تعد من أقوى الأسلحة العسكرية وأحدثها ، وفي جميع الصنوف . كما اتسعت تشكيلاته عن ذى قبل اتساعا كبيرا ، ان نسبة التطور في هذا الميدان كانت خلال المرحلة الماضية عالية ، وان الجهود الحثيثة تبذل باستمرار لاحراز المزيد من التقدم .. ويمكننا اليوم أن نفخر بأن لنا جيشا وطنيا قويا قادرا على تادية مهماته .

وفي سنة ١٩٧٣ ، شارك الجيش العراقي في حرب اكتوبر ، وظهر بوضوح مدى ما يمثله من ثقل عسكري وقتالي ، عندما توجهت وحداته الحديثة الى الجبهة الشمالية وبالتأكيد فان الأساليب التي اتبعت في تنمية الجيش وتطوير تسليحه ، ومستواه القتالي ، قد أتاحت له الفرصة للاشتراك في حرب أكتوبر بهذا الحجم وتأديته لذلك الدور الذي مكنه من خوض معركة الانتقال من بغداد الى دمشق ، ثم الاشتباك فور وصوله بالوحدات الاسرائيلية وصد هجومها ، وايقافه ، ثم دفعها الى الخلف .

خارج مدينة اربيل بعدة كيلومترات ، وصلنا لاالى مقر احدى الوحدات العسكرية . هنا احد الضباط الذين عاشوا الحرب ضد التمرد الرجعي في الشمال وشاركوا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

أكتوبر ١٩٧٣ :

اشتدت عليه آلام النقرس ، الوخز يؤلم ساقيه ، منحه الطبيب اجازة مرضية يوم ٢ أكتوبر ، وهكذا توجه الضابط وهو برتبة عقيد الى منزله ، عندما اصغى الى نبأ الحرب من الراديو ، ارتدى ثيابه العسكرية ، ابدت زوجته قلقا عليه ، لكن كان من المستحيل ان يبقى في الفراش والحرب قد بدأت ، تلك هي نفس اللحظات التي ينتظرها المقاتل ، يتحقق خلالها وجوده وذاته ، ويذكر الضابط أنه منذ أن ارتدى الملابس العسكرية ، بدا ذهنه يتوجه تماما الى المعركة ، توارت الام النقرس الى خلفية المشاعر التي تؤثر فيه ، وبين الحين والحين ينتبه الى الوخز في مفاصله غير انه سرعان ما يتشاغل عنه ، ودع زوجته واطفاله ، ومنذ تلك اللحظة لم يروه الا بعد عودة القطعات العسكرية من الجبهة ، علم من نقطة السيطرة عند مدخل بغداد ان قائد الفرقة التي يعمل بها توجه الى سوريا مع بعض ضباط الاستطلاع ، ولحظة وصوله الى مقر الفرقة كانت الحركة في قمتها ، ان حركة فرقة مدرعة أمر يبعث على الرهبة ، عندما تهدر مئات الدبابات والعربات المجنزرة . فاذا اضفنا الى هذا الصخب الآلي المروع صياح الآلف الجنود وتلويح أيديهم ، فسنجد انفسنا امام مشهد مهيب ، يحمل أولى سمات القتال ، بمعنى الاشتباك ، علم الضابط (....) ان اللواء ١٢

(لواء خالد بن الوليد) قد اقترب فعلا من الحدود السورية ، وعلى الطريق رأى الفرقة الثالثة يقودها رئيس أركانها متحركة باتجاه الأراضي السورية . عندما علمت القيادة بقطع الضابط (....) لاجازته واصراره على دخوله المعركة قررت اسناد قيادة احدى الفرق المدرعة اليه ، دخلت الفرقة بغداد يوم ٩ اكتوبر ، حيث التقى بها الرئيس أحمد حسن البكر والقيادة السياسية ، وكان الاهالى فى الطريق ينتظرون ، بعضهم وقف ساعات ليودع ويلوح للجنود الماضين الى القتال .

كانت الأولوية المدرعة ، والميكانيكية تجىء من مختلف أنحاء العراق لتصب كلها فى هذا الطريق الصحراوى الوعر ، حركة تذكرنا بمنابع الانهار وسريانها خلال المجارى النحلية التى تتدفق ، تتجمع ، حتى تصب فى المجرى الرئيسى.على الطريق الرئيسى توقفت الفرقة قليلا يوم ١٠ أكتوبر . تمت خلال هذه الوقفة القصيرة اعادة التنظيم ، ثم استؤنف الاندفاع بالدبابات التى تسير على الجنزير ، تجرى على الرمال يمين ويسار الطرق ، وفوق الأسفلت تقدمت عربات النقل المحملة بالذخيرة ، والأغذية والمؤن ، والناقلات المحملة بالدبابات ، والى السماء تصاعد الغبار الناتج عن حركة الرمال تحت الجنازير ، الرؤية معدومة ، والكل يصغى الى الترانزستور ، كل قائد لواء له الحرية التامة فى اصدار الأوامر التى تؤدى الى تقدم اللواء بأقصى سرعة ، ان السرعة فى الحركة لا تقاس فقط بالمسافات المقطوعة ولكن بزج أكبر عدد ممن من الوحدات فى أقصر وقتممكن ،وعبر التاريخ كانت جيوش بأكبر عدد ممكن ، كأقدر القوى العسكرية التى حققت أعلى معدل للحركة بأكبر عدد ممكن ، طبعا بوسائل عصره ، وعلى الطريق ايضا كانت تمرق سيارات مدنية عديدة تحمل ضباطا قطعوا اجازاتهم واسرعوا بسياراتهم الخاصة ليلتحقوا بوحداتهم التى أصبحت على مسافة كبيرة فى اتجاه الجبهة السورية ، وقرب الحدود كان بعض الضباط والجنود يغيرون ثيابهم المدنية التى جاءوا يرتدونها عندما تحركوا بسرعة قاطعين أجازاتهم ــ بملابسهم العسكرية ، عند وصول الضابط (....) على رأس الفرقة المدرعة الى الرطبة ،علمأن اللواء ١٢(خالد ابن الوليد) دخل المعركة فعلا لحظة وصوله ، فى الرطبة ، فوجىء أيضا بأحد الضباط زملائه ،عندما علم فى بغداد بمرضه ، جاء مسرعا ليلحق به ، وحتى يتولى القيادة بدلا عنه ، أو يعاونه ، كان متطوعا اذ أن موقع عمله فى بغداد بوزارة الدفاع ، غير ان العقيد (....) أصر على أن يواصل تقدمه ، آلام المرض اختفت تماما . قرب الحدود نبه على ضرورة اتخاذ وسائل الحماية ضد التهديد الجوى المعادى ، غير أن سقوط الطائرات الاسرائيلية اصبح مثار تسلية الجنود بعد وصولهم الى الجبهة السورية ، وذلك بفضل صواريخ سام .

اصبحت الفرقة تشكل جزءا من الاحتياطى العام للجبهة السورية وحدد لها واجب ضمن الهجوم العام الذى كان مقررا القيام به ، بعد عودة العقيد (....) الى بغداد مع تشكيلات الجيش العراقى عاودته آلام

النقرس ، استئناف اجازته المرضية ، وبعد أن تماثل للشفاء جاء الى الشمال ، لقد عاصر الحرب خلال مراحل مختلفة بدءا من سنة ١٩٦٢ ، طبيعة الحرب هنا تختلف بالنسبة له عن حرب أكتوبر ، الحرب فى الشمال طويلة بسبب ظروف المنطقة ، وفى مراحلها السابقة كانت تشبه حرب العصابات ، التسليح خفيف ، والملتحمون بهم قليلون ، ومع الأسلوب الارتجالى تطورت الحركة أكثر حتى ثورة رمضان ١٩٦٣ ، فى تلك السنة التقى الضابط (....) بالملا مصطفى البرزانى ، أثناء المفاوضات كان الملا يدعى أنه لا يريد أكثر من حقوق المواطن العادى ، عندما اتضح له وجه الثورة الانسانى والتقدمى بدأ يضع العراقيل ، وعندما وقع انقلاب نوفمبر (تشرين ثانى) سنة ١٩٦٣ بقيادة عبد السلام عارف كان معظم الجيش يقاتل وقتئذ فى اقصى المناطق الشمالية وأعلن عبد السلام عارف وقف القتال ، وهادن الملا ، وبعد ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨ ، كان هناك خطان متعارضان فى الواقع : خط الثورة الرامى الى تصفية المشكلة الكردية على أساس انسانى وتقدمى وجذرى . والخط الثانى اتبعه الملا ويهدف الى استغلال المشكلة لضرب الخطوات التقدمية لثورة العراق ، والانفصال ، يستطيع الضابط (...) ان يؤكد أن النسبة العظمى من الشعب الكردى تؤثر السلام ، يودون الاستقرار ، واستثمار أراضيهم ، والتخلص من عنف البرزانى وارهابه ، فى المنطقة التى يسيطر عليها التشكيل الذى يقوده الضابط (...) تم تعمير عدة قرى خرجت من قبل واستقبال عدد كبير جدا من العائدين وتسكينهم ، وتقديم التعويضات اليهم ، ومناقشة البعض منهم ، ان التشكيل مسئول ايضا عن تأمين مدينة أربيل ، وخلال السنة الأخيرة يمكن القول أنه لم تقع حوادث اغتيال فى المدينة ، وذلك لوعى المواطنين الاكراد ، وتصديهم للتمرد ، وللاجراءات الصحيحة التى اتبعها الجيش فى تأمين المدينة ، والتى روعى عند تطبيقها الجانب السياسى قبل الجانب الامنى .

حادث واحد استطاع العصاة تنفيذه والقيام به ، فى بداية سنة ١٩٧٥ عندما تسللت مجموعة منهم الى ضواحى أربيل ، وفى الليل قصفوا المدينة الآمنة المستسلمة للرقاد بستة عشر قذيفة هاون وتساقطت هذه القذائف فوق عائلة تسكن غرفة واحدة ، مات جميع أفرادها سوى طفل واحد بترت ساقه . تبنته الثورة ، وأرسلته للعلاج فى لندن كما دمر تاكسى يمتلكه أحد الأهالى واشتعلت النيران فى أربعة بيوت . ترك هذا الحادث أثراً سيئا للغاية فى نفوس الناس ، بازدياد عزلتهم كانوا يلجأون الى المزيد من حوادث العنف الموجهة ضد الشعب الكردى نفسه .

فى الليل خرجنا من مقر قيادة لتشكيل ، ورأينا أضواء أربيل المتناثرة عند حافة الليل وكأنها دموع صامتة ذرفت أسفا على تلك الدراما الانسانية الحزينة والتى تقترب الآن من نهايتها .

● ● ●

ونستعد لمغادرة « اربيل » فى الوقت الذى جاءت فيه اخبار

عودة مئات الاكراد المسلحين الى الصف الوطني ، وفي التليفزيون الذي يبث ارساله من كركوك بالكردية ، راح المذيع يكرر بيان العفو الصادر من مجلس قيادة الثورة عن الذين اشتركوا في اعمال مسلحة ضد الجيش والثورة ، في الصباح كان النهار يسطع بضوء صاف ، وبدت السماء زجاجية شفافة ، وفي احد الاماكن الفسيحة تجمع عدد كبير من الاكراد المسلحين ، انهم أفراد حرس الحدود ، وهم تشكيلات مسلحة كردية تقاتل في صفوف الثورة ، وكان عدد من التلاميذ يتجهون الى مدارسهم : بعضهم يرتدي زيا أفرنجيا ، والبعض يرتدي الزي الكردي ، التقليدي ، وفي أحد شوارع المدينة رأيت عجوزا انحنى ظهره يعلق الى رقبته صندوقا صغيرا فيه علب سجائر ، يبيع السجائر اما فرادى أو علبا مغلقة : وكان ايراده الضئيل متناثرا فوق أرضية الصندوق ، قطع نقدية صغيرة مستديرة . وفكرت ان أمد يدي بقطعة نقدية ، ان مرأى الشيخوخة في بحثها الدءوب عن لقمة العيش يؤلم النفس ، ولكن صديقا كرديا حذرني ، لن يقبل العجوز الكردي صدقة ، سيعتبرها اهانة له ربما ردها بسرعة الى موجهها ، ربما كان هذا العجوز قد انجب ابناء بعضهم يحتل وظائف مرموقة ، أو يعيش في يسر من المال ولكنه يأبى الهجوع الى الراحة ، يواصل عمله كجزء من احترامة لنفسه ، أن الاكراد يحترمون الشيخوخة وكثيرا ما يلجأ بعض التجار الى اعطاء رجل عجوز مبلغا ليحمله معه عبر الجبال ، فقطاع الطرق ، واللصوص لا يمكن أن يهاجموا رجلا عجوزا يسير بمفرده ،أمام الفندق رأيت الكردي الصغير ماسح الأحذية ، ابتسم لنا صافحته وسألته عن المدرسة التي يذهب اليها ليلا ، والأهل المقيمين على البعد ، عندما ابتعدت السيارة التفت الى الخلف ، كان يلوح لنا بيده اليمنى بينما راحت اليسرى تحكم الكوفية التي لف بها رأسه ووجهه لتقيه الهواء البارد الذي تخلل تلك الأيام الربيعية ، عند المنحنى اختفى بناء الفندق ، والصبي ، وكنت أعرف أنه بعد دقائق ستختفي اربيل وسيصبح كل ما رأيناه في حسنان وتاتان وحوض راوندوز وكلي على بك والصراع مدرجا في طابور الذكريات ، طابور أبرز ما فيه وجه الصبي الكادح .

المحـــور الخامس

السليمانيـــة

.. بدت « السليمانية » عند اقترابنا منها كعذراء جميلة تطوقهـا الجبال ، وضباب شفاف ، وعند مدخل المدينة من ناحيـة الطريق الذى تصلها بكركوك ، توقفنا أمام الفندق الذى سنقيم فيه ، يرتفع لمسافة أربعة طوابق ، يعتبر من الابنية العالية فى مدينة معظم بيوتها من طابق واحـد أو طابقين ، أمام مدخل الفندق الزجاجى استقرت عربة مردعة ضولها بعض جنود الجيش العراقى ، ومقاتلون أكراد مسلحون . لاحظت أن المدفع الرئيسى فى برج العربة بدون غطاء القماش الذى يكمم به عادة فى فترات الراحة ، أو استبعاد احتمال الخطر ، دخلنا البهو ، بدا خاليا ، تلفتنا حولنا ، لم نجد موظف الاستعلامات أو أحدا من الخدم ، وبجانب مكتب الاستعلامات رأينا باب المصـعد ، وكانت دائرة الضوء الحمراء الصـغيرة تشير الى أنه يقف فى الدور الثالث والى الجدار علقت المفاتيح الى تابلوه من الخشب قسم الى مربعات صغيرة ، كل المفاتيح موجودة ، عدا ثلاثة مربعات صغيرة خالية ، قطعنا البهو الى صالة الطعام . فى الجهة اليسرى من البناء ، اصطفت الموائد ، حول كل مائدة اربعة مقاعد ، عدا منضدة مستطيلة فى المواجهة حولها ثمانية مقاعد ، وناحية الطريق استقر عدد من المقاعد الوثيرة ، صف بعضها فى مواجهة التليفزيون الذى لم يظهر لأن غطاء الدولاب الخشبى كان مسدلا ، على طول الجدران انتشر عدد كبير من أوانى الزهور الخشبية . واباجورات خشبية ملونة . وللسليمانية شهرة خاصة فى صنع هذه التحف الخشبية الدقيقة ذات الطابع الخاص ، فى الجدار الممتد بعرض الصالة لوحة كبيرة مغطاة بقماش صـناعى خفيف شبيه بالنايلون ، يكشف المنظر المصنوع من الخشب ، ويمثل فتاة كردية جميلة ترتدى ثوبا طويلا ، وتجلس الى مقعد قصير بدون مسند ، وبين يديها مغزل يدوى تتدلى منه خيوط الصوف ، والى جوارها وقف شاب فى الثياب الكردية منحنيا عليها بحنان ، وخلفية المشهد جبال عالية يتخللها شلال مياه يتدفق صامتا . وعندما نتلفت حولنا لم نجد أحدا .

صفقنا بأيدينا ، وعدنا الى البهو ، ورن جرس التليفون طويلا لم نرفع السماعة ، ولاحظت أن الرقم الصغير الموضح فى الدائرة الحمراء المضيئة على باب المصعد قد تبدل ، ٣ ـ ٢ ـ ١ ، خرج رجل قصـير ، يرتدى ملابس افرنجية ، هز رأسه مبتسما ابتسامة ضيقة وقال انه يشرف على تنظيف بعض الحجرات ، وأنه لابد ان يتابع بعض الأمور بنفسه ، ودار ليقف خلف مكتب الاستعلامات وبدأ يقوم بهذه الاجراءات التقليدية المعتادة التى تتم فى كل فنادق العـالم ، تدوين الاسماء بالاطـلاع على البطاقات الشخصية ، او جوازات السفر ، ثم تناول المفاتيح من الحائط وتسليمها الى النزلاء ، صعدنا بحقائبنا الى الطابق الأخير وبعد أن تأملنا الغرف ، قررنا ان ننام فى غرفة واحدة ، كان من الواضح أن الفندق يعيش ظروفا غير عادية ، وبرغم ارهاق الرحلة الطويلة التى قطعناها بالسيارة الى اربيل مرورا بكركوك الى السـليمانية ، الا أن لحظات اللقاء الأول بمدينة جديدة لا أحب ان اقضيها فى فندق ، أو بين جدران غرفة التماسـا للراحة ،

الانطباع الأول عن المدن يترك أثره في النفس مدى العمر ، ثم متى سأعود ؟ ربما ينقضي العمر ولا ارى البيوت والملامح مرة أخرى ، اذن يجب ان أعيش كل لحظة اقضيها هنا ، النوم أقل وقت ممكن والحركة في أوسع مكان ، ولقاء أكبر عدد من الناس . راح موظف الفندق يعتذر عن عدم وجوده ، وقال لنا ان الفندق ينزل فيه عدد من الاساتذة المصريين الذين يدرسون بجامعة السليمانية منذ انشائها وانهم يقضون النهار كله في الجامعة ، وحوالي الساعة السابعة يجيئون ويسهرون في البهو ، أو في حجراتهم ، أسندنا الحقائب في الحجرة ، وعدنا الى المصعد ، لنخرج الى «السليمانية» . طوال الطريق من كركوك الى السليمانية ، حيث تكشف الطبيعة عن لوحات رائعة متكاملة من الجمال الحي الأخاذ كنت افكر فيما سمعناه عن السليمانية ، ان أكثر نسبة من الاغتيالات وحوادث الخطف وقعت في هذه المدينة التي ترقد بين الجبال ، وتذكرت وصف الميجرسون البريطاني الذي عاش بها متخفيا في بداية القرن ، عند مغادرته لها :

وأرسلت نظرتي الأخيرة الى السليمانية فشهدت أكـداً سامن سقوف مسطحة في هبطة من الأرض لا سبيل الى رؤيتها من مسافة ميل تقريبا ، ولقد أخفى الباشوات المقدامي بلدتهم جيدا كيلا تقع عليها عيون الترك أو الكرد على حد سواء » (١) .

بيوت السليمانية أكثر ارتفاعا اليوم مما كانت عليه وقت ان وصفها ميجرسون ، لكنها حتى الآن لا تفصح عن نفسها للمقترب منها الا على مسافة كيلو مترين أو أقل ، فجاة تبدو ملفوفة بالجبال في المنخفض ، تظللها الجبال ، سمعنا عن حوادث اطلاق النار المفاجئة في السوق ، وتسلل بعض المتمردين الى الشوارع الرئيسية والقائهم القنابل ، وبالطبع علمتني التجربة ان ما يروى في مثل هذه الظروف يكون مبالغا فيه الى حد كبير ، لكن بالتأكيد هناك أساس لهذه الاقاويل والحكايات ، وكان لمنظر المدرعة الرابضة أمام الفندق ، ثم البهو الخالي وذلك الجو الغريب الذي ضاعف الشتاء الجبلي من رهبته تأثيره بالطبع » ن السليمانية تقع في حضن الجبال ، والتسلل اليها عبر الدروب والممرات أمر سهل ، ثم ان النسبة العظمى من سكانها أكراد ، ولأن العصاة الذين طلعوا الجبل ينتمون بصلات القربى والدم الى أهالي المدينة ، لا يخلو الأمر من أم تأوى ابنها ليلة ، أو اب تخفي القربى يومين ، وخلال هذه الليلة ، أو الفترة التي يقضيها الأبن النازل من الجبل أما خلالها مهمة تتعلق باغتيال شخصية ، أو القيام بعمل يستهدف الازعاج ، والجيران عادة لا يخبرون عن الأبن القادم من الجبال ليقضي يوما أو يومين ، أما بدافع انساني ، أو لأن احد اقاربهم سيأتي في ليلة ما ، ومما شجع بعض العصاة على القدوم أحيانا الى المدينة ان الجيش لم يتعرض كثيرا للاكراد عند نقاط التفتيش ، عندما تأتي سيارة تستقلها عائلة كردية فان الجنود يتركونها

١ ــ رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ميجرسون.

فورا ، لا يتعرضون لها ، وكما قال أحد الضباط ، جئنا لا لنهين البشر ، وبالطبع استغل العصاة هذه التصرفات ذات الطابع الانسـانى من الجيش لتهريب المعلومات ، أو الأشخاص ، ولكن الاصرار على السلوك الانسانى كان يحدث جانبه العميق عادية ، خاصة اذا ما تذكرنا تلك الحوادث التى تقع فى المدن الكبرى بانحاء مختلفة من العالم ، السليمانية تحتل موقعا خاصا بالنسبة للاكراد ، وكان المتمردون يعلقون على الاحتفاظ بها آمالا كبيرة ، وحرصوا على تحقيق هذا بغرض هدفين :الأول لما تتمتع به المدينة من موقع في تاريخ النضال الكردى ولأنها تعتبر مركز الاشعاع الفكرى الكردى ، ولأن معظم الحركات السياسية بدأت منها ، كما أن معظم المثقفين الاكراد الكبار من ابناء السليمانية ، بالاضافة الى ما يحدثه التمسك بالمدن من دوى اعلامى على المستوى العالمى . أما الهدف الثانى فعسكرى اذ أن الاحتفاظ بها يمكنهم من السيطرة على المحافظة كلها ، وعندما بدأوا تنفيذ الخطة العسكرية فى ابريل ١٩٧٤ والتى تستهدف تحقيق الانفصال بكردستان نهائيا عن العراق بادروا الى احتـلال قمم الجبال المحيطة بالمدينة ، واهمها جبل أزمر (كويجه داغ) ويبلغ ارتفاعه (٧٠٢ مترا) . ويرتفع الى الشمال الشرقى من مدينة السـليمانية ، ويخترقه طريق السليمانية ـ جوارته ، وجبل سريند (١٤٦٥ مترا) ثم سلسلة جبال بازيان ، التى تبدأ زرده (٧٧١) مترا ، ثم تمتد فى حافة ضيقة مكونة جبال (قره داغ) (٧٠٦) مترا ويخترق جبل بارزيان دربندى خان بارزيان (مضيق بارزيان) ويمر به طريق السليمانية ـ كركوك ، وهذا الممر يحفه الجبل من الناحيتين اليمنى واليسرى ، ويبدو ظهر الجبل مقوسا وكأنه غابة من الأسنة والحراب حيث تتخذ الصخور فوقه اشكالا مدببة حادة ، دارت معارك شديدة فى هذا الممر ، حتى تمت السيطرة عليه من قبل الجيش ، وتأمين ممر جبلى هنا لا يعنى التوقف ، كل ممر يفضى الى ممر آخر . ربما أصغر منه ، أو أكبر ، لكن المضايق المعروفة التى ذكرناها هى الصعبة والوعرة ، وتوجد بالقرب منها عـدة مضايق أخرى ، على سبيل المثال يوجد فى اربيل الى جانب مضيق (كلى على بك) عدة مضايق أخرى صعبة ، منها مضيق سبيلك ، ومضيق بمه سي رن ولكن اذا ذكرت كلمة المضيق هنا فهى تعنى (كلى على بك) وحده وكأنه لقب الأسرة ، ويمثل هذا عبئا اضافيا على الجهد العسكرى المبذول ، استماتت المتمردون فى الاحتفاظ بقمم الجبال المحيطة بالسليمانية ، أزمر ، وقرة داغ ، وفى البداية ركز الجيش على تطهير ازمر بسبب احاطته بالمدينة وتأثيره المباشر عليها ، ثم تأميم قمم ازمر كلها فى يونيه حزيران ١٩٧٤ . أصبحت المدينة آمنة الى حد ما ، لقد انتهى القصف المدفعى المتواصل ، لكنهم بين الحين والآخر يتسللون عبر دروب أزمر ، وقرة داغ ، يشتبكون مع الربايا ، أو يحاولون قصف المدينة ، ثم تركزت عملياتهم الصيف الماضى فى شن هجمات فردية داخل المدينة لتصـفية بعض الاكراد الذين يحاربون الى جانب الثورة ، وادى وقوعها من وقت الى آخر بلا شك الى جو من الارهاب خيم على المدينة الجميلة ، وفى

اماكن عديدة سمعنا عن أحد المناضلين البعثيين ، يعمل استاذا فى جامعة السليمانية . وبمجرد لقائنا الأول بالمدينة رحنا نبحث عنه ، عندما نسمع عن انسان من أماكن نائية ، ثم نقصد محل تواجده ، تضيق دائرة البحث شيئا فشيئا نعرف انهفى مدينة السليمانية . نقطعمئات الكيلومترات ، نصل المدينة ، نخرج الى شوارعها الى ادارة الجامعة ، نشرب الشاى فى مكتب سكرتير المدير ، يجرى عدة اتصالات تليفونية ، ثم يقول لنا ان الشخص الذى نقصده ينتظرنا فى مبانى الكليات ، نعود من جديد الى الطريق ، ونقطع الرحلة الأخيرة الى اطراف السليمانية حيث الجامعة ، نسأل حارس الباب ، يشير الى مبنى يضمحجرات المدرسين ، الكتب ، بعضهم يرتدى معاطف بيضاء ، انه الجو الجامعى ، ويشير لنا ساع كردى الى ممر نسلكه ، نتوقف امام حجرة ، ندخل ، يقول لنا انه سيعود بعد لحظات بالاستاذ ، نتأمل الحجرة ، وتمضى دقائق ، يفتح الباب ، لانرى الأستاذ انما طالبة كردية جميلة تشير برأسها ثم تغلق الباب ، ولا تمضى الا لحظات حتى نجد شابا قصير القامة ، يرتدى جاكتا بنى اللون ، محدد الملامح ، ولا احتاج الى من يقدمه الى ، ذلك الحس الخفى الذى ينبىء بحقيقة من هم أمامنا ، .. أصبح باسمه .

فى سنة ١٩٦٨ أسست جامعة السليمانية . فى مارس .

ويبتسم مرحبا ، يستدير ليجلس خلف مكتبه .

● ● ●

فى سنة ١٩٦٨ أسست جامعة السليمانية . فى مارس ١٩٧٠ ، اعلن بيان الحكم الذاتى ، وعمت الفرحة الناس ، كان معظم أبناء الشعب الكردى يطمح إلى انهاء جو القتال الرهيب الذى ساد خلال السنوات الماضية ، فى نفس الوقت لم يحاول آخرون فهم محتوى البيان ، كانت طبيعة العلاقات داخلالقيادة العشائرية التى يمثلها الملامصطفى البرزانى واضحة للمناضلين داخل منطقة الحكم الذاتى ، حيث المركزية لشديدة فى لاجتماعات ، وقيام الملا بطرد المعارض له فورا . أو تصفيته جسديا ، أو سجنه ، ويستتبع هذا تشريد عائلته وسلب أملاكه ، بالطبع أشاع هذا مناخا ارهابيا بالنسبة للكثيرين . وفى السليمانية جرت مناقشات كثيرة بين المؤيدين للحكم الذاتى والمعارضين له ، كان المؤيدون للحكم الذاتى يسألون المثقفين الاكراد المتأثرين بقيادة الملا :

ــ كيف تقبلون القيادة العشائرية المتخلفة ، لماذا يسود التزمت بالرأى بين المثقفين ، العناصر المحيطة بالملا ضد الشعب ، لماذا لا تكشفونهم ؟

ويرد المثقفون المتأثرون بالملا :

ــ سنناقش الملا ، لو ابتعدنا فسوف تنفرد هذه العناصر العملية به ، نحن نعرف الخطوة المتمثلة فى سيادة هذه العناصر لكن لا بد ان نحاول اقناع الملا .

وعندما ارسل الملا وفدا الى بغداد للتفاوض مع الثورة قبل اعلان قانون الحكم الذاتى اعتبر هذا نصرا للمثقفين ، وفى هذه الفترة جرى

العديد من المناقشات مع اعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني في السليمانية ، يذكر مناضلنا انه تناقش كثيرا مع كمال خوشنا عضو الفرع الرابع بالحزب الديمقراطي الكردستاني وقبل أعلان قانون الحكم الذاتي بايام كانا يتناقشان حول القضية الكردية ، وقال لكمال خوشنا وان القانون سيضمن كل ما تريدون وكان أحد اعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني موجودا واسمه شفيق أغا قال انا قضيت ليلة عند الملا ، وانه من الممكن أن يوافق ، ولكنني أخشى أن يتراجع وذلك لوجود بعض المحيطين به الذين أثروا من الحروب . كثيرون منهم اشتغلوا بالتهريب ، تاجروا في السلاح ، اذا قتل بعضهم يأخذون سلاحه يبيعونه مرة أخرى ، هناك شخص اسمه (مفتاح اغا) كان معلم ابتدائية وراتبه خمسون دينارا ، انضم اليهم ، أصبح آمر هيز ، نقود الهيز كلها تصب في يده ، أصبح له رصيد في البنك العراق ، الشخص العشائري يصبح قائدا عسكريا والعسكري الموقوف يظل جنديا عاديا . كان الحكم الذاتي يشكل ضربا لمصالح هؤلاء كلهم .. وذكر على سبيل المثال شخصا اسمه حليم كريم ، بعض المثقفين كانوا يذهبون الى القيادة العشائرية متصورين أنهم سيقنعونها . ولكن هؤلاء هزموا ، تغلبوا عليهم ، واحتجزوهم ، وبعضهم سجن لفترات نتيجة المناقشة ، أو قتل ، وبرغم تلك المحاولات التي بذلها المثقفو الاكراد الذين لم يقطعوا الأمل تماما وقتئذ من اتجاه الملا الى خدمة مصالح الشعب الكردي فقد فشلت مساعيهم مع القيادة العشائرية لأن مخططاتها وسياستها كانت مرسومة وتدخل ضمن مخططات أشمل واكبر من الواقع الكردي المحدود ، ضمن مخطط الامبريالية للسيطرة على المنطقة ، وتدمير ثورة العراق من الداخل ، بعد اعلان الحكم الذاتي ساد المدينة جو أرهابي ، وقام مدير الشركة وهو عضو من الحزب الديمقراطي الكردستاني بفتح السجن المركزي في المدينة ، كان يضم ١٥٠ شخصا معظمهم متهم بالسرقة والنهب ، وأشرف على صعودهم الى الجبل ، صحبوا كثيرا من البسطاء الذين غرروا بهم ، وفي الجبل يفرضون عليهم عزلة شبه تامة ، حيث لا يوجد راديو ولا يسمح لهم بالمناقشة ، ومن يخالف أمرا صدر له يعدم فورا ، وهؤلاء أصبحوا يعودون فيما بعد الى الصف الوطني كلما سنحت لهم الفرصة .. حتى انهيار التمرد وعودتهم بالمئات صورت لهم القيادة العشائرية ان الجيش سيقتل ويذبح ، ويهتك الأعراض، نفس ما اشاعوه في المناطق الأخرى ، واكتفى الجيش باتخاذ اجراءات عسكرية تهدف الى تأمين المواطنين وفك الحصار الذي فرض على بعض مواقع الجنود ، وشيئا فشيئا بدأ الأسلوب الانساني الذي اتبعته القوات المسلحة العراقية يكشف للناس مدى زيف القيادة العشائرية العميلة وكذب ادعاءاتها ، وحاول المتمردون ايقاع القوات المسلحة في اخطاء تشوه سياستها الانسانية تجاه الشعب الكردي ، وذلك بقيام بعض المتمردين باطلاق النار من فوق منزل اسرة معينة ، أو من داخل مسجد بالمدينة ، بهدف قيام الجيش بالرد على مصدر النار ، عندئذ يشيعون

الجيش يقصف بيوتا آمنة ، وأماكن العبادة ، والمستشفيات ، قاموا بتنفيذ هذه الأعمال الاستفزازية عشرات المرات لكن القوات المسلحة لم تستجب ، ولم ترد على مصـادر النيران ، وفى المقابل بدات حملـة توعية لكشف اساليبهم ، شارك فيها المناضلون العرب والاكراد ، وقام رجال الدين بدورهم خاصة فى الخطب التى تعقب صلاة الجمعة فى نفس الوقت كانت عناصر المثقفين الثوريين فى صفوف الاكراد ، والذين ظلوا مكبوتين طوال هيمنة الجناح الرجعى العميل على الحركة الكردية ينشطون سواء فى العمـل الثقافى أو السياسى وفى آخر عملية للجيش فى القطاع برز الجانب الانسانى بشكل كبير ، لقد تحركت وحدات القوات المسلحة باتجاه (سيد صادق) ، وعلى الطريق تمركز العصاة فوق احدى القمم ، ودخل كل منهم الى حفرة برميلة مغطاة بمهارة ، وبقيت بعض القوات لتتعامل معها . واسـتؤنف الزحف الى (سيد صادق) . اشترك فى العملية حرس الحدود والانصار وكلهم مقاتلون أكراد ، ولم تستغرق العملية أكثر من اثنتى عشرة سـاعة (تمت فى نفس اليـوم الذى حلقنا فيه فوق جبـل زمناكو ونزلنا الى دربندى خان) . وفى سيد صادق كان العصاة قد اشاعوا بين الأهالى ان الجيش يحتاج الى أربعين يوما ليصل الى القرية اذا تحركت وحداته من السليمانية واذا وصل فان الجنود سـيفتكون بالأهالى ، وبثوا سـائر الاشاعات المختلفة ، لكن الأمر فى هذه المرة اختلف ، لقد جاء عدد كبير من الاكراد المسلحين ، استسلموا للجيش ، ويجرى حوار سريع بين جندى عراقى واحد العائدين .

ـ ما هى الاشاعات التى يقولونها ؟

ـ قالوا لنا أنكم سوف تعدمون .. يقصون ايديكم .

ـ ولمـاذا جئت .

ـ لكى اخلص من الذل الذى أعيش فيه .. ثم أننا علمنا أن الجيش لا يفعل شيئا مما قالوه لنا .

ويمضى الاكراد العائدون الى بيوتهم ، وفى سيد صادق خطب ضابط القوات المسلحة فى الأهالى الذين تجمعوا بالمسجد ، طمانهم ، وعرف منهم ان العصاة الذين بقوا ولم يستسلموا قد نهبوا كل شئ ، الطعام والنقود والثياب ، وبسرعة كانت السيارات المحملة بالأغذية تصل الى (سيد صادق) وتوزع الطعام على الأهالى ، وبعثة طبية تقوم بتقديم العلاج لبعض الجرحى وامام المسجد وقفت سيد عجوز تحتضن ابنهـا العائد ، وتبكى فى صمت .

● ● ●

عند انشاء جامعة السليمانية عارضها الملا مصطفى البرزانى ، كان يضع حسابا للجيل المثقف الواعى الذى سيخرج من الجامعة ، واتخذت هذه المعارضة طابع العنف أثناء انشاء الجامعة ، وبعد بدء الدراسة فيها ، كان المقاول يأتى بأدوات البناء ، فى نفس اليوم تسرق ، أو تخرب ، وعندما انشئت رغم انفه ، بدأوا يعارضون قبول طلبة عرب فى الجامعة سواء كانوا عربا عراقيين أو مصريين أو جزائريين أو من أى قطر آخر ، وقيـل لهم

وقتئذ ان الجامعة لو اغلقت نفسها على الطلبة الاكراد فقط فسيضعف مستواها العلمي ، ان النسبة العظمى من الطلبة الاكراد والى جانبهم نسبة قليلة من الطلبة لعرب ، والباب مفتوح لقبول طلبة من كافة انحاء العالم ، وخاصة أن الجامعة تضم كلية للآداب (متخصصة فى الادب الكردى) وكلية هندسة وكلية زراعة ، وكلية علوم واخرى للطب ، بالاضافة الى معهد للادارة ومعهد للطب الفنى ، وعندما فشلت القيادة الرجعية فى تعويق الدراسة بدات تخطف الطلبة من الجامعة ولازال عدد من الطلبة مخطوفين حتى الآن (١٥ مارس ١٩٧٥) لم يرجعوا ، وكثيرا ما قطعوا الطريق على بعض السيارات التى تقل الطلبة ، ويحتجزون الطلبة العرب ويتركون الاكراد واجروا لهم استجوابات تركزت حول ميول الطلبة ومحاولة استقصاء بعض المعلومات . وكان هدفهم الاشمل اشاعة جو ارهابى يعوق الدراسة لتتعثر اول جامعة كردية علمية ، وعندما فشلت جميع هذه المحاولات ، قصفوا الجامعة بالمدافع ثلاث مرات ، وفى احدى مرات القصف استهدفوا بيت الطالبات ، وفى البداية اضطر الاساتذة الهنود والباكستانيين الى الرحيل وبقى فى الجامعة الاساتذة العراقيون ، وزملاؤهم المصريون ، ان السنوات الثمانى التى قضاها فى لمنطقة تبدو ممتدة مشحونة بالرعب الارهاب خاصة بالنسبة لمن لعب دورا ، كبيرا فى كشف القيادة الكردية اليمنية ، مما جعلهم يعتبرونهم هدفا لهم ، وحاولوا اغتيالهم اكثر من مرة ، هاجموا بيوتهم ، واطلقوا عليهم النيران فى الطريق ، وبقى المناضلون يتجلون فى شوارع المدينة ، التى قد يظهر الموت بها فى اية لحظة ، يمارسون حياتهم العادية والتدريس فى الجامعة التى لم تخل طبعا من بعض عيونهم واسأل محدثى .. أحد هؤلاء المناضلين :

ــ الم تتخذ احتياطات معينة ؟

لم يحمل مسدسا ، أو مدفعا رشاشا ، ولم تخصص له حماية . لقد عاش الواقع كما هو ، بكل ابعاده واحتمالاته حتى تلك الأيام التى قطع فيها العصاة الطريق بين كركوك والسليمانية ، ظل على عاداته اليومية ، لم يغيرها ، ذهابه الى اصدقائه الاكراد فى المدينة ، مصاحبته لهم ، مناقشاته معهم ، وتوجهه الى الجامعة وقيامه بواجباته الاكاديمية .

لا نريد أن نظهر لاخواننا الأكراد أننا بعيدون عنهم . عشنا كبقيه الشعب بدون سلاح ، بدون حماية .

ونخرج من المكتب ، اتأمله ، نوعية خاصة من المقاتلين ، بين العسكريين تلتقى بشخصيات معينة تشعر امام اصحابها انهم جاءوا الى العالم للقتال ، مقاتلون بالعزيزة ، بالكيان . حتى فى تصرفاتهم الصغيرة . ويقول المصريون عن امثال هؤلاء انهم (وش موت) . وهؤلاء يختلف تكوينهم عن تكوين الفدائى اذ ان الفدائى تشكله الظروف والفكرة والاقتناع ، هناك نوعية أخرى اكتسبو القتال كما يتعلم الانسان حرفة أو مهنة فيتقنها ويجيدها . ان المنتمين الى القسم الأول مبتكرون فى قتالهم ، موهوبون ، يتعاملون مع الواقع أثناء اشتباكهم معه ، كما يتعامل الفنان مع المادة التى

يشكل منها عالمه ، وهؤلاء اذا لم تتح لهم فرصة ارتداء الزى العسكرى فانهم يتضرفون فى حياتهم بروح قتاليه أيضا ، ومحدوثا ، ينتمي الى هؤلاء برغم استهدافه لعدد من محاولات الاغتيال ، فانه لم يفكر فى مغادرة المدينة او الابتعاد لحظة واحدة عنها ، وكان الأمر الطبيعى بالنسبة له أن يناضل ، واذا جاء الموت فهو كأى حدث آخر مجرد علامة • نمشى فى طرقات الجامعة ، بين مبانى كلياتها حولنا الشباب والفتيات ، المخ مناخ الحب الصحى ، ضــوء النهار الربيعى يمــلأ الحياة والمـكان . من يلمــح الابتسامات وهمهمات الاصوات التى تتخللها ضحكات ناعمة رقيقة ملونه كحواف زهر شقائق النعمان لا يتصور الارهاب الذى عاشته السليمانية ، لقد انتصرت الحياة هنــا .

فى الصباح الباكر وقفنا فوق سطح الفندق ، منذ أيام تعرض البناء لهجوم بالمدافع الرشاشة من جانب بعض العصاة ، استهدف أحد الأشخاص الذين ظنوا أنه ينام فى احدى الغرف وعلى الرغم من قرار وقف اطلاق النار فان أصوات الطلقات لم تنقطع طول الليل ، ويبدو أن الأهــالى اعتــادوا سماع هذه الطقطقة كما يسمونها ، بل وأصبحوا يعرفون مواعيدها اذ أن صاحب الفندق كان يقول :

ــ لن تبدأ الا بعد منتصف الليل •

وعلى الرغم من الوضوح الكامن فى اطلاق الرصاص ، فان هذه النيران يشوبها غموض ، اذ ربما كانت متبادلة فعلا بين بعض العصــاة الذين يحاولون التسلل الى المدينة من اتجاه المقبرة الواقعة على التل القائم على الجانب الايمن بالنسبة لمدخل المدينة الغربى • وربما أحد الجنود قد اشتبه فى حركة ما تخللت الليل البارد الموحش ، أو ظلال تحركت بسبب أجسام مجهولة المصدر ، احتمالات كثيرة غير ان المؤكد هو صوت اطلاق الرصاص ، والذى يعكس بالطبع جوا غير طبيعى ، فوق المدينة تتمدد ظلال الجبال ، الهواء بارد جدا ، والشوارع تلمع تحت مياه الأمطار التى سقطت قرب الفجر ، الفراغ بلورى شديد الشفافية ، وكأنه انعكاس لبلورات كرستالية لاتراها العين ، ومن الصخور الرمادية راحت تتصاعد ابخرة الضباب ، وقال أحد الأساتذة المصريين المقيمين هنا •

« لقد دخن الجبل » •

والأهالى يعرفون ان الضباب عندما يتصاعد من الجبل فأن هذا يعتبر نذيرا بسقوط الثلج ، تمتد المدينة فى شوارع مستقيمة ، فسيحة ،متقاطعة وتبدو البيوت المحفوفة بحدائق صغيرة ، جزرا من المادة فى المحيط من الصمت والفراغ ، ومن الأرض تنبثق أشجار الصنوبر رشيقة ، ممتدة ، تتحدى بخضرتها الشاحبة البرودة ، بدت المدينة بأكملها وكأنها منعكسة فى مرآة ضخمة شفافة أختفت حوافها فى السماء وأعماق الأرض ، فى الطريق الممتد خلف الفندق خرجت امرأة من منزل ، يبدو أنها موظفة ، أغلقت باب البيت ، ثم فردت مظلة ســوداء لتتقى رذاذ المطــر الخفيف ، واتجهت الى موقف للاتوبيس بعد لحظات جاءت السيارة ، أو لمحتها من نافذة بيتها ، وقبل دخولها العربة تغلق المظلة ، فى ميدان يتوسط الشارع عبر ثلاثة طلبة

متساندين ، ومن الجهة اليمنى ظهر عجوز محنى الظهر ، راح يعبر الشارع ؛ متمهلا ، أقترب من واجهة دكان ملحق بمبنى من طابق واحد ، ادار المفتاح في القفل المستقر قرب الأرض ، دفع الباب المصنوع من الصاج الى اعلى أرضية الدكان المرتفعة عن الأرض ،أشبه بالمصطبة ، ارتكز العجوز الكردى على يديه دخل ، لم استطع ان اتبين محتويات الدكان بالضبط ، عادالعجوز من جديد ، كان يحمل فى يده طبقا فارغا ، شد الباب الى أسفل ، اعاد اغلاق القفل ، لماذا مضى متمهلا يوشك أن ينكفىء على وجهه ، لااجابات على تلك الاسئلة التى رددها فضولى الداخلى ، مضى العجوز •

وعلى مهل ظهرت أربع‌نساء يرتدين عباءات سوداء متقاربات فبدت حركتهن وكانها صادرة عن لتلة واحدة الفراغ ، كانت المبانى تزداداقترابا من بعضها كلما اتجهت الى مركز المدينة حيث السوق القديم ، فى‌ساعة‌مبكرة أمس‌ذهبنا اليه ، يبدو متشابكا ، معقدا ،لايمنع نفسه بوضوح‌كسوق‌أربيل، تمضى أزقته الى مالا نهاية ، وداخله قد يكمن الخطر فى تلك الدكاكين‌الصغيرة والابواب التى تفضى الى أين ؟ شهد السوق منذ فترة حادث اطلاق نار ونصف جزء منه لازال متكوما ، رأيناه ، يقطع استرسال الحوارى الضيقة والدوب التى تصطف على جانبيها البضائع ، الجدران القديمة سويت بالأرض ، يقول الأساتذة المصريون بالجامعة أن الاهالى طيبون جدا وان هذه الجهامة التى يراها العابر على الوجوه مبعثها ظروفهم القاسية التى عاشوها منذ سنوات كثيرة ، فهم يبدون السخط على العصاة الذين اربكوا الحياة واخلوا بايقاعها ، كل منهم يود لو عاش فى سلام ، ان تمضى‌الأمور، بشكل عادى ، آمن ، اذا ذكرت السوق استدعى الى ذهنى وجوه كردية يتحدث أصحابها ، أو يقفون أمام أحد الدكاكين يتناولون أفطارهم‌قطعة من القشدة الطازجة وفوقها ملعقة عسل نحل طبيعى ، وأمام الدكان عرض منحل طبيعى من الطين ، الطريقة البدائية التى يجنون بها عسل النحـــل هنا ، واعلانات عن (من السما) وهو نوع من الحلوى الطبيعية التى يجدونها فوق غصون الأشجار •

فى الصباح الباكر تبدو السليمانية قطعة حية من الجمـال الطبيعى الاخاذ ، قابعة فى ذلك الوادى بين الجبال ، فى تأملى للقرى الكردية‌لاحظت ان معظمها مبنى بعيدا عن الطرق المطروقة ، يتوارى فى حضن الجبل ،ولكن بناة السليمانية اختاروا موضعا يمكن فيه اخفاء مدينة باكملها عن الناظر أليهامن قريب ، السليمانية مدينة شابة اذا قيس عمرها بالعجوز أربيل ، أو كركوك ، ولكن شبابها يشوبه كدر ، أرهاق ، ورغبة فى دخول طور النقاهة لتجتازه الى الصحة ، حول السليمانية تنتشر غابات وأماكن تعدمن أجمل بقاع العالم • أقول هذا وليس لى خبرة بما هو أجمل ، ولكن بعض الأجانب الرحالة الذين‌طافوا العالم قالوا ان هذه المنطقة تحوى أجمل المناظر الطبيعية فى العالم • تبدو السليمانية راغبة فى الحياة ، أن‌يصبح‌هذا الجمال فى الظروف الطبيعة ، تظهر مكانته ومفاتنه وتاتى العيون من مختلف أنحاء العالم لترى وتطلع عليه •

وأمام الفندق نلتقى ببعض الطلبة الاكراد المتجهين الى مدارسهم الاعدادية ونقلب دفاترهم · كل ما يدرسونه باللغة الكردية ، وألمح فى عيونهم أملا بالمستقبل ، وتتسابق بعض الطالبات الجامعيات الى سيارة أجرة سوف تقلهن الى كلياتهن ، والمح أحد الجنود يكمم مدفع المدرعة الرابضة أمام الفندق بغطاء مستطيل من المشمع ، قال لنا أحد الأصدقاء الاكراد :

ـ ستسقط الثلوج بغزارة ، أرى أن تنتظروا ··

تأملت السماء والغيوم ، وتبادلنا النظر ، فى صمت اتخذنا قرارا ، لن توقفنا ثلوج أو أمطار ، لنقطع الشمال العراقى من الجنوب الى الغرب اذن ·· الى الموصل ·

● ● ●

المحور السادس

الموصل - الجولان

فى بداية عام ١٩٦٤ ، اتم الفلاح العراقى عارف على حسين ثمانية عشر عـاما ، أنه أحد أفراد أسرة كبيرة تتكون من والده ووالدته وأحد عشر اخا . كلهم اصغر منه ، وهو مسئول مع والده عن العائلة ، عندهم أرض قليلـة بزمام بلدة الفلوجة التى تقع على الضفة اليسرى من نهـر الفرات ، وتبتعد عن بغداد ٦١ كيلو مترا الى الغرب ، كان عارف يسرح بقطيـع أغنـام يمتلكونه يأخذون منه بعض الزبد والصوف ، ومـايتبقى يرسلونه الى المدينة ليباع ، وأحيانا يقوم عارف بمساعدة والده فى فلاحة الأرض ، فى سنة ١٩٦٤ جاءت سيـارات حـكومية الى الفلوجة تحمل مكبرات صوت وتعلن عن فتح باب التطوع أمـام الشبـان لـلالتحـاق بالجيش ، ومما قالته (أن الوطن فى حاجة الى جيش قوى) ، ولم يفكر عارف على حسين طويلا ، ان مفهوم الوطن عنده يدخل ضمن القيم التى يؤمن بها : الشرف ، الرجولة ، الأمانة ، ثم ان نخوته العربية شعرت وكأن النداء موجه اليه هو شخصيا ٠

٠ ٠ (الوطن فى حاجة الى الجيش ؟) اذن ليتطوع ، وبعد انقضاء فترة التدريب انتقلت الوحدة التى الحق بهـا الى شمـــال شرق العراق ، واستمر هناك حتى سنة ١٩٦٧ ، قالوا ان الجيش سيتحرك الى فلسطين ، وتحركت الوحدات الى قاعدة الحبانية فى نهار وليلة ، ثم تم تجهيز القوة ، بسرعة أرسلت الى الأردن ، قطعوا المرحلة الاولى حتى قاعدة (هـ ـ ٣) ٠ وكل مالدى الجنود وقتئذ عتادهم الشخصى ، وفى قاعدة هـ ـ ٣ قالوا لهم تل الشعار للاشتباك بالعدو ، ودفعه الى الخلف ، قريب الغروب هوجم لدى الرتل المتحرك ثلاثة مدافع مضادة للطائرات عيار (٣٧) مللى وتمكن بذلك من اسقاط طائرة من الطائرات المغيرة ، واستمر تحركهم الى « أربد » قاصدين بلدة « الكرامة » وقبل وصولهم أربد هاجمتهم الطائرات الاسرائيلية مرة أخرى ، تركوا أجهزتهم ومعداتهـم ، انسحبوا ٠ لم تتح لهـم فرصة حقيقية للاشتباك بالعدو ، وبعد تمركز الوحدات العراقية بالقرب من ضفة نهر الأردن ، نقل عارف على حسين الى استخبارات الجيش ، كان ذكيا ، يستوعب بسرعة ، بالاضافة الى أنه بذل جهدا فى تعليم نفسه حتى أصبح يتقن القراءة والكتابة ، وأصبح واجبه ان يصحب الفدائيين من درعا الى السلط ، فى أحد الأيام صحب معه أربعة فدائيين ، وكانت لدى قـوات الجيش العراقى أوامر بالايقفوا الا لجنود السيطرة العراقية ٠ اعترضتهم قوة من السيطرة الاردنية (الشرطة العسكرية) ، تمكنت القوة الاردنية من اعتراض السيارة ، واعتدى الجنود الاردنيون بالضرب ، وظل عارف واقفا متوقعا الاعتداء عليه ٠ وعندما وصل قائد الشرطة سأله :

ـ انت مسئول القافلة ؟

ـ نعم

ـ لماذا تساعدون الفدائيين ؟

واجابه عارف ببساطة :

ـ كنت أظن أننا كلنا عرب ٠

قادوا الفدائيين ومعهم عارف الى السجن ، لكنه لم يقم به طويلا ، تدخل الجيش ، وعاد عارف الى عمله ، واستمر بالاستخبارات حتى قامت ثورة ١٧ تموز فى العراق ، نقل بعدها الى اللواء الثامن مشاة آلى ٠ بعد شهور قليلةجاءت مدرعات وأسلحة حديثة ، وبكميات كبيرة ٠ بدأت تبذل عناية بالجندى لم تكن موجودة من قبل والاهتمام بجانب التوعية الذى كان مهملا ، نوعية الغذاء ، تحسنت المعدات ، والأهم هو التسليح ٠ كما ان اساليب جديدة بدأت تدخل على برنامج التدريب ٠ كان التغيير ملموسا وله آثار أيجابية كبيرة فى رفع الكفاءة القتالية للجيش ، وتزايد عدد الجنود بشكل ملموس ، وانشئت تشكيلات جديدة لم تكن موجودة من قبل ٠ فى سنة ١٩٧٣ سرح عارف من الجيش ،وعاد الى قريته ليعمل مع والده فى الأرض ، لكن حياته المدنية لم تستمر الا شهورا قليلة ٠

ظهر السبت ٦ أكتوبر ، اذاع راديو بغداد نداء الى جنود الاحتياط والجنود المسرحين بسرعة انضمامهم الى الجيش ، ولبى عارف على حسين النداء غادر قريته على الفور ، واستخدم أكثر من وسيلة مواصلات ،مدينة، عسكرية ، نقل ، ملاكى ، حتى لحق بوحدته فى قاعدة (هـ ـ ٣) أصبح أحد جنود اللواء الثامن مشاة آلى ، ثمة دوافع كثيرة اعتملت داخل عارف ، تنتمى الى هذه العوامل التى تحرك المقاتل العراقى لخوض قتال ضد العدو الصهيونى ، الشجاعة العربية ، النخوة ، الوعى الذاتى ٠ والموضوعى ، بأهمية القضية ، ثم احساس قوى لما لفلسطين وقضيتها من قدسية شبة دينية ، الى جانب الوعى الكامل بما يمثله العدو من خطورة على العراق نفسه وثورته ٠

تحرك عارف مع اللواء الى الصنمين تحت الليل ، ثم الى منطقة انخل وكفر شمس ٠ اقتربوا من مناطق المعارك ،وفى تل الحارة تمركزوا فى مواضع دفاعية ، صدرت لهم الأوامر بالأشتراك فى معركة تل الحارة ، كان لواء خالد بن الوليد قد قصف الدبابات المعادية طوال الليل ، وفى الصباح كان على هذه الوحدة من اللواء الثامن آلى أن تتقدم وتحتل المنطقة ، وعندما بدأت التحركات شن العدو هجوما مضادا عليها فى منطقة كفر شمس ، كان عارف بالخط الأمامى القريب جدا مع العدو ، يعمل على مدفع هاون ، صدر أمر بأنسحابه الى الخلف لينضم الى بقية زملائه ٠

ولم ينسحب عارف على حسين ٠

على التل القريب استقرت جثث اصدقاء له من الوحدة عاش معهم فى الأردن ، والعراق ، وسورية ، وحاربوا الى جانبه ، ثم استشهدوا ، دار بعينيه حوله ، لمح مدافع (ب ١٠) مضادا للدبابات صاح على الجنديين العاملين معه ، طلب منهم ان يبقوا ، زعق ٠

ـ اصحابى استشهدوا على هذا التل ٠

لكن الجنديين استمرا يسحبان المدفع ، لقد صدرت لهم الأوامر وهم يقومون بتنفيذها ، شهر عارف على حسين رشاشة ق

ـ اتركوا المدفع ٠ ٠ اتركوه

امسك المدفع الثقيل ، كان وجهه مليئا بدخان المعركة ، جز على أسنانه ،

سحب المدفع الى أقصى نقطة متقدمة ، لمح عريفا جريحا ، رجله مكسورة ويرقد فى حفرة ، اقترب منه . قال ان تحديد اتجاه العدو أمر صعب ، سأرمى لك طلقة اضاءة تستطيع معها تحديد الاتجاه .

وعندما انفجرت شعلة الضوء ، احالت الليل الى نهار ساطع لمدة ثوان . انطلقت دفعات متتالية من الرشاشات المعادية ، استشهد العريف ، وازداد اصرار عارف على الا يترك موقعه . كان قد اتم تدريبه فى اللواء على ثلاثة اسلحة ، من بينها المدافع المضادة للدبابات ، ربض منتظرا هجوم العدو ، مع ضوء الفجر بدأ يسمع أصوات الجنازير المعادية ومحركات الدبابات ، كانت أصوات الجنازير أقل خفوتا لان العدو يكسوها بطبقة من الكاوتشوك ، لكنه يميزها جيدا ، بعد قليل رأى ترابا يتصاعد من خلف التل .

بمجرد ظهور الدبابة الاولى أطلق عليها دانة من مدفعه ، اشتعلت النيران فيها ، وتراجعت الدبابة الثانية ، من خلف التل بدأوا يقصفون المكان ، لم يستدلوا على موضعه ، وعندما بدأت الدبابة الثانية تستدير لاستئناف الهجوم أطلق عليها مدفعه ، رماها على بعد ١٥٠ مترا واشتعلت الدبابة ، استمرت تزحف نحوه وهى تحترق ، أطلق عليها دانة أخرى ، توقفت ، وبدت الحيرة والخوف على الجسم الحديدى الضخم ، ودار مدفع الدبابة ثم توقف نهائيا ، فى الضوء الشاحب رأى بعض جنود العدو يحاولون الافلات . وبسرعة تناول الرشاش ، أطلق عليهم ، رآهم يسقطون ، ثم انبطح فوق الأرض ، انفجرت حوله قذائف المدفعية المعادية ، لكنها لم تصبه ، وخلا ذهنه فى هذه اللحظة الا من شىء واحد هو منع العدو من المرور فوق هذه الارض والانتقام لزملائه ، واستمر فى موقعه طوال النهار . فى العصر ساد هدوء مشوب بحذر ، احتضن عارف المدفع ، بدأ يتراجع به ، وحتى التحق بوحدته . كان جائعا ، قدموا له بعض الطعام الميدانى السريع ، وفى اعماقه كان يشعر بسكينة الى حد ما ، ألم يثأر لاصحابه الذين استشهدوا ؟ .

فى نفس الليلة تقدم عارف مع بعض زملائه ، ربطوا الدبابات العربية المصابة ببعضها البعض وتم سحبها الى الخلف كما عادوا بجثث الشهداء أيضا

عاد عارف على حسين الى العراق ، هو نفسه لم ير أنه أتى عملا خارقا ، لقد واجه موقفا معينا اثناء القتال ، وقرر الا ينسحب ، وأن يتصدى للعدو ، وان يثأر ، والثأر من القيم الهامة التى تحرك الانسان العربى ، ولكن تبدو قيمة ايجابية عندما تخرج من مفهومها الضيق الى اطار اشمل وأوسع ، وراح زملاء عارف وضباطه يتحدثون عنه باعجاب ، ان الانسان لا يولد بطلا ، والبطل لايخلق بقرار ، لكنه يواجه موقفا معينا وعندئذ تتداخل عوامل كثيرة ، بعضها يدخل فى نطاق الوعى ، وبعضها يخرج عنه ، عوامل نفسية وحضارية واجتماعية ، تتجمع كلها لتشكيل موقف الانسان فى مواجهة الظروف . وتحديه لها ، عندئذ يصبح بطلا . ان عناصر البطولة كامنة داخل الانسان العادى ، وهذا ماظهر بوضوح خلال معارك أكتوبر بالنسبة للمقاتل العربى .

عاد عارف الى حياته العادية ، وفى احدى الليالى رقد تحت السقف الخشبى للبيت ، سمع طرقات على الباب ، قام والده البالغ من العمر خمسة وستين عاما ، فتح الباب ، فوجئ برجال أغراب .

ــ عارف موجود ؟

اومأ الأب برأسه ، وعندما التفت ليستدعى ابنه ، وجده يقف خلفه . قال الرجال :

ــ مبروك .. أنت رقيت الى ضابط .

رئيس الجمهورية يريدك .

ولنا ان نتخيل ما جرى فى البيت من إضطراب ، رئيس الجمهورية يريد عارف ، كيف ولماذا ؟ وبعد أن ارتدى جلبابا وسترة وعقالا ذهب مع الرجال .

فى الصباح جاء عارف الى البيت قبل ان يذهب الى الكلية العسكرية ليلتقى بالرئيس أحمد حسن البكر ، كان يرتدى ثيابا جديدة ويرغب فى أن يطمئن والديه ، لكنه لم يجد أمه أو والده ، قيل له :

ــ راحوا وراك الى الرمادى .. قلقوا عليك .

مضى عارف الى الكلية العسكرية ، وهناك كان الرئيس البكر مجتمعا ببعض كبار القادة يشرحون له المعركة على تختة الرمل ، كان الرئيس قد استمع الى ما قام به عارف قبل وقت قصير ، احضروا له عليها رتبتان ، رتبة العريف ، ورتبة الملازم ، ارتداها ، صافح الرئيس وعاد الى اسرته ضابطا برتبة ملازم ، والآن يعمل عارف على حسين باحدى الوحدات العسكرية القريبة من مدينة الموصل .

● ● ●

الموصل ، فى الليل يبدو وجه المدينة الحديثة ، الشوارع المضاءة بالنيون ، والاعلانات الملونة ، ونظام المرور الدقيق ، والسهر الممتد حتى منتصف الليل ، ودكاكين السندويتشات السريعة ، ودور السينما العديدة ، مدينة حية عصرية ، شابة ، ومن الضفة الأخرى لنهر دجلة تبدو غارقة فى الأضواء ، تتصاعد منها باقات أصوات وضجيج خافت ، ويسرى دجلة على مهل .

مع ضوء النهار تبدو المدينة متشحة بعباءة التاريخ ، طابعها القديم يغلب على منظرها العام الذى يبدو من الضفة الأخرى ، وينتابنى أحساس غامض بأننى جئت الى المدينة من قبل ، رأيت هذه البيوت المتجاورة ، والمئذنة المائلة التى يتوارى أمامها برج بيزا خجلا ، نحيلة ، سامقة كنخلة مالت بها السنين ، تعلو فوق كل البيوت ، أنها مئذنة الجامع الكبير المعروف بالنورى نسبة الى نور الدين زنكى الذى اقامه حوالى عام ٥٦٩ هـ ــ ١١٦٩ م تحتفظ الموصل بالعديد من مساجدها . الى الخلف منا وفوق هضبة مرتفعة تقوم مئذنة نحيلة تشبه مآذن العصر العثمانى فى القاهرة (مآذن القلم الرصاص) وتحتها يستقر مسجد النبى يونس ، ويقال أنه مدفون فيه ، والمسجد مقام فوق معبد آشورى قديم ، حوله وعلى مسافات متفاوتة تنتشر مدينة نينوى عاصمة الاشوريين ، فى الموصل مدافن انبياء الله شعيب

ودانيا وجرجس ، وفيها قبر الشاعر المشهور أبو تمام الطائى المتوفى سنة ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م ، وأبن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٢ م ، وعـز الدين ابن الاثير المؤرخ المشهور ، صاحب كتاب الكامل فى التاريخ ، عاش بها أيضا ابن خلكان صاحب كتاب (وفيات الأعيان) ، ثم ابراهيم الموصلى وابنه اسحق نديما هارون الرشيد الشهيران بفن الموسيقى والغناء ٠

وعندما نقطع الجسر الحديدى الذى يصل ضفتى دجلة ندخل شوارع الموصل ، لايتبدد الاحساس بالجو التاريخى ، ان عمارات شاهقة تقوم هنا وهناك ، تكسبها طابع الحداثة ، غير أن عتاقة التاريخ أمر لا تخطئـه العين ، الحركة فى الشوارع كثيفة ، لا عجب فهى ثانى مدن العراق من حيث الحجم ، قرب الطريق المؤدى الى بغداد يقوم مصنع كبير للنسيج ٠ ان شهرة الموصل فى صناعة النسيج تعود الى قرون عديدة ، وهذا النوع المشهور من القماش (الموسلين) تخصصت فيه الموصل ، واسمه مشتق منها ، قبل انشاء قناة السويس كانت المدينة مركزا هاما تعبره القوافل التجارية الى أوربا والى الهند ، ولكن الكساد طرأ عليها بعد حفر القناة ، وقد وصف ويكرام القسيس الانجليزى الموصل فى كتابه مهد البشرية وصفا دقيقا ، نتبين من خلاله مدينة ضيقة (زارها فى بدايات هذا القرن) متسخة الإزقة ، والحوارى ، لاينفـذ اليها النور ، أو التهوية الصحية ، والمدينة التى رآها (ويكرام) لاعلاقة لهـا بالمدينة التى نراها الآن ، المزدحمة الطلقة والتى تذكرنا الى حد ما بمدينة دمياط فى مصر ، أحيانا تتشابه المدن فى بعض السمات ، لكن يبقى لكل مدينة شخصيتها ، حتى لو قامت فى كل منها العمارات الحديثة ، تلك العمـــارات المتشابهة ٠ ان المدن كالانسان تختلف مـــلامحه من شخص الى آخر ، وعاداتها ، وسلوكها الخفى ، والعلنى ، واضح ان الموصل مدينة عملية ، لاتضييع وقتا ، كل شىء فيها محسوب ودقيق ، حتى السوق القديم يختلف عن سوق أربيل ذى الطابع الروحى والذى يخفق بالتاريخ ، أو سوق السليمانية المتداخل الملتوى والذى يشبه سراديب سرية فى معبد فرعونى حرص كهنته على الايصل الغريب فيه الى قدس الاقداس ٠ سوق الموصل تغمره الشمس فهو بلا سقوف ، ومن هنا يفقد الظلال ، ويقترب بهذا من العصرية ، كل شىء فيه محدد ، رأيت فيه المزادات الصغيرة ، حيث يعلو صوت أحد الدلالـين مناديا على سلعة معينة ويقوم الواقفون من راغبى الشراء بزيادة السـعر ، ان مصنع النسيج يحتل مساحة كبيرة ، وداخـل العنابر الفسيحة حيث غابات الانوال الميكانيكية راح المدير يحدثنا عن خطة الصناعة الانفجارية التى تنفذها الثورة العراقية والمحدد لها خمس سنوات ،٠ومع ان الموصل مدينة عربية تماما الا ان المشكلة الكردية والحرب تركت آثارها هنا أيضا ، وذلك لأن محافظة نينوى التى عاصمها الموصل ملاصقة تماما والمحافظةدهوك وذات غالبية سكانها من الاكراد ، حدث بعد بداية التمـرد الرجعى ان طلع أربعة عمال من المصـنع ـ اكراد ـ الى الجبـل ، انقطعوا عن العمــل ، وانضموا الى العصاة وبعد صدور قانون العفو العام الذى أعلنته الثورة فى العام الماضى ، رجعوا ، ثم اعادتهم فورا الى المصنع ، وصرفت لهم مرتباتهم

عن الشهور التي قضوها في الجبل ، رأيتهم في المصنع ، وانتابني الفضول فسألت أحدهم عن العمل الذي قام به خلال طلوعه الجبل ، فقال انه عمـــل خبازا ، وبدا غير راغب في الكلام ، وسألت آخر منهم ، فقال انه كان يعمل حمالا ينقل الصناديق ، وفهمت انهم لا يرغبون الخوض في سيرة الآيام التي قضوها في الجبل ، في منطقة دهوك المجاورة للموصل ، لم يقم المتمردون بعمليات عسكرية ذات قيمة ، في العام الماضي وفي بداية الحركات حـــاولوا القيام بعمليات محدودة على الطريق الدولي الذي يربط العراق بتركيا ، ثم أوربا ، لكن الجيش دفعهم الى أعالي الجبال ، في مناطق محدودة ، وضيقة ، والعصاة الذين قدر لهم ان يحاربوا في ذلك القسم من الجبال أحيطوا بظروف لم تمكنهم من العمل بحرية ، اذ ان منطقة الحدود هنا ملاصقة لتركيا ،وتركيا لم تكن تسمح بأي نوع من المساعدة الأجنبيـــة التي يمكن تقديمها لهـم ، والجبل الممتد بمحاذاة الطريق الدولي وحتى الحدود التركية جبل اجرد خال تماما من الخضرة يسمونه (بي خير) أي الجبل عديم الخير ، وتشبه المنطقة المناخ الذي يسود الريف القريب من البحر الأبيض ، حيث السماء الصافية فيما عدا غمامات بسيطة تتناثر هنا وهناك ، وخضرة فاتحة تغطي الأرض الممتدة حتى أقدام جبل (بي خير) وحتى الافق في الجانب المقابل ، وعلى مسافات متفاوتة تبدو قرى ترقد وسط الخضرة ، البيـوت هنا متباعدة ، فسيحة ، كأنها منظر مرسوم ، عند الحدود العراقية التركية الواقعة على الطريق الدولي ، تقع مدينة زاخو على بعد ١١٤ كيلو متر من الموصل ويسميها المؤلفون الاراجون (بيث نوهدرا) أصل آرامي (زاخو) أي الظفر ، ويؤدي اليها مضيق يمر خلال جبل (بي خير) ، انه متصل مستمر وممتد في اصرار صخري عنيد ، في مضيق زاخو دارت معركة بين الجيش العراقي ، والمتمردين الاكراد ، وحول هذه المعركة تدور حكاية طريفة بين أهالي المنطقة الاكراد ، كان في زاخوتشكيل قتالي للعصاة (هيز) بقيادة عيسى سوار أحد الاشخاص الذين صـــعدهم الملا الى مراكز القيادة ، كان مجرما تعرقه المنطقة كلها ، وخلال قيادته لهيز زاخو ارتكب عدة مذابح دموية ضد المواطنين ، عندما بدأ الجيش هجومة ،قال انه من المستحيل عبور مضيق زاخو المنيع الذي يشبه كلي على بك ،وأقسم انه لو نجح جندي واحد في عبور المضـــيق فسيطلق امرأته ، وبعد ان اجتاح الجيش المضيق في معركة استغرقت ثلاث ساعات ، تتندر الأهالي قائلين أنه كان يضمر فعلا نية طلاق زوجته قبل ان يقسم ، بعد اعلان قانون العفو العام عن الاكراد اثر توقيع اتفاقية الجزائر بين العراق وايران ، كانت وحدات العصاة المسلحة في جبال زاخو أولى الوحدات التي استسلمت ، بدأوا يتوافدون بالعشرات ثم المئات ، ثم جاءوا في تشكيلات كاملة ، كانت عودتهم سريعة ، وبكثافة عددية كبيرة ، وقبل بداية استسلامهم أطلاق الحارس الخاص لعيسى سوار النار عليه ، قتله ، يوم وصولي الىزاخو رأيت القائد العسكري للمنطقة يصيح في التليفون طالبا من بغداد أرسال مبلغ ضخم من الدنانير ، لان مبالغ الاعانات الموجودة لديه نفدت كلها بسبب كثرة العائدين ، كانت المجموع تتوافد ، تعكس وجوههم رغبة حقيقية في وضع حد لهذه المأساة التي عاشها الشعب الكردي ، وكان تعامل المقاتلين العراقيين

معهم كريما ، خصص الجيش وحدات طبية كاملة لتقديم العلاج الى بعض الجرحى العائدين ، وسيارات خاصة لنقلهم فورا الى قراهم ، ومن ناحية الحدود التركيــة التى اجبرت على الهجــرة الى ايــران ، وتــولى الجيش والمنظمـــات الحزبية استقبــال هذه العائلات ، وقام الجيش بدفع أجور الأتوبيسات التى استأجروها من ايران الى الحدود العراقية عبر تركيا ، أى لمسافة ثلاثة آلاف كيلو متر ، وقامت عربات الجيش أيضا بنقل النساء والاطفال والرجال الى قراهم ، عاد أيضا المثقفون الأكراد ، وفيما بعد رأيتهم فى بغداد وقد أعيدوا الى أعمالهم التى كانوا يشغلونها فى الصحف العراقية سواء الناطقة بالعربية أو الكردية ، وبقية الدوائر المختلفة ، ورأيت عددا منهم كانوا يذيعون تعليقات سياسية بتوقيعهم من اذاعة المتمردين ، هاجموا فى تلك التعليقات الثورة العراقية ، والجبهة الوطنية ، وحزب البعث العربى الاشتراكى ، وقابلت هؤلاء فى أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل طلوعهم الجبل ، ونعود الى مركز القيادة العسكرية بزاخو ، تدق أجهزة التليفونات الميدانية على فترات زمنية متفــاوتة ، وتجيء الأصــوات من أماكن مختلفة بمضمون واحد ٠

« سيدى ٠ ٠ هناك فوج آخر من العائدين »

ويرحل العائدون الى قراهم ، لا يستجوبهم أحد ، ولا يتعرض لهم أحد ، وفى العديد من مناطق كردستان كانوا يقابلون بالزهور والأحضان ، ويقف جنود الجيش وضباطه فى مقدمة المستقبلين ، يشهدون الفصل الأخير فى المأساة الدامية ، وتجسد ملامح وجوههم الهادئة قمة السياسة التى اتبعها الجيش خلال تلك الحرب ، والتى يمكن ان نطلق عليها ، الحرب التى جرت ضد الحرب ٠

تتابع فى ذهنى وجوه أكراد عديدين التقيت بهم ، أذكر الملامح ، ملامح الملا سعدى الأسيوية بعينيه الضيقتين وعلى جمعه النحيل الحاد الأنف ، ومحــاربين أكراد من حرس الحدود عيونهم زرقاء ، بشرتهم بيضــاء اللون مشوبة بحمرة ، وملامحهم المتقاربة ، العيون الضيقة ، الأنوف الحادة ، ان تحديد ملامــح معينة لشعب واحد ، أو أفراد قومية واحــدة أمر صعب بلا شك ، ولكن هناك عوامل تاريخية ، وحضارية وجغرافية تصوغ اطارا عاما للملامح ، واصل الشعب الكردى لم يتفق عليه المؤرخون وعلماء الأجناس حتى الآن ، كل كتاب يتناول كردستان من الناحية التاريخية ، أو الجغرافية أو الوصف ، لابد أن يبدأ بمقدمة تقلدية عن أصل الأكراد ، والمناطق التى يعشون فيها ، والتى تتوزع بين ايران وتركيا ، والاتحاد السوفيتى حيث يعيش عدد قليل من الأكراد فى جمهورية أرمينيا السوفيتية ، ولكن الذين تصدوا البحث أصل الأكراد على اساس علمى قليل من العلماء أن كلا منهم يبدأ معترفا بالغموض الذى يسود أصل الشعب الكردى ، ثم ينطلق وفقا لاجتهاداته الخاصة والوثائق والادلة المتاحة ، وخاصة أن المنطقة الكردية فى العراق لم تجد بآثار كثيرة تفصح عن الأصول التاريخية للأكراد ، ويصف هملتون ــ الذى أشرف على انشاء الطريق الكبير الممتد من أربيل حتى رايات والذى يخترق مضيق على بك ــ بعض اللوحات الأثرية المحفورة فى اعالى

الجبال ، ويتحدث عن كهوف تضم بعض الآثار مثل كهف برادوست ، أشهر كهوف تلك المنطقة ، الذى يعتبر سرا لايبوح به رجال القبائل ، ويقولون أنه يضم كثيرا من الأقنية والتماثيل والمنحوتات البارزة لملوك الأقدمين والأمراء السابقين ، لكن هاملتون لم ير شيئا من هذه الآثار ٠

فى دائرة المعارف الاسلامية كتب المستشرق فلاديمير مينورسكى بحثا عن أصل الاكراد قال فيه انه يعتقد بانحدارهم من أصل آرى غير انهم امتزجوا بعناصر أخرى ، وتقوم نظريته على المعلومات اللغوية والتاريخية ، حيث ان اللغة الكردية ترجع الى المجموعة الارية ، وحيث ان اللغة دليل هام على أصل المتكلمين بها فلا شك ان أصل الاكراد آرى أذن ، ويرى المستشرق السوفيتى ن ٠ مار ، ان الاكراد هم السكان الاصيلون لجبال آسيا الصغرى ويستند فى هذا الى تقاليد الشعب الكردى ومميزاته وعاداته ، ويرى سيدنى سميث أن الشعب الكردى ينتمى الى مجموعة الهندو ـ ايرانية ، قدموا الى كردستان فى الوقت الذى قدم فيه الميديون والفرس الى فارس ٠ ويرى الدكتور شاكر خصباك فى كتابه (الكرد والمسألة الكردية) ان الاكراد هم احفاد الكوتيين وهم القوم الذين نتجوا من التزاوج سكان جبال زاكروس الاصليين ، والموجات الأولى من الاريين التى أكتسحت منطقتهم ٠

أما رأى الاكراد أنفسهم فيوجد فى وثيقة تاريخية هى كتاب (شرف نامه) الذى كتبه باللغة الفارسية أمير شرف خـان بدليش عام ١٥٩٦ ، ويتناول القبائل الكردية وأصولها وفروعها ، وتاريخها ، وفى بداية (شرف نامة) يذكر المؤلف تلك الأسطورة التي تتحدث عن أصل الاكراد اذ انه منذ حقب بعيدة عاش ملك فارسى اسمه (زهاك) ، وسماه العرب (ضـحاك)، كان طاغيـة جبارا أصيب بداء غريب اذ نبتت له فى كل كتف أفعى ، لم يستطع الاطباء شفاءه فنصحه أبليس ان يطعم كل أفعي دماغ أحد الشباب يوميا حتى تخف الأمة ، قام بتضحية شابين يوميا ، ولكن الجلاد كان حنونا فكان يضحى شابا ويرحم الثانى مستعيضا عن دماغه بدماغ خروف ، وهرب الشباب الناجون سرا واحتموا فى جبال نائية لم تدسها قدم ، وهناك نموا وتكاثروا الى أن أصبحوا شعبا هم الشعب الكردى ، والطاغية (زهاك) هو الذى ثار عليه كاوة الحداد ، وحتى اليوم يحتفل الاكراد فى ٢١ مارس بذكرى انتصار كاوة الحداد ابن الشعب على الطاغية ويعرف العيد باسم (عيد النوروز) ، وقد قرر مجلس قيادة الثورة العراقى اعتباره عيدا قوميا للعـراق ٠

أما الكتاب الأكراد المعاصرون ومنهم محمد على عونى ، والسيد حسين حسنى فيرون انهم من أصل هندو ـ أوربى ٠

ويرى محمد أمين زكى : مؤلف أول كتاب كردى علمى يتناول تاريخهم:

« ان كردستان وهي الموطن الأول للسلالة البشرية الثانية ، وموضع انتشارها الى الجهات الأخرى حسب الحوادث التاريخية ، وكان يسكنه فى فجر التاريخ شعوب جبال زاكوس وتتآلف من أقوام (لولو) و (كوتى) و(خالدي ـ كالدى) ـ و (سوبارو ـ صورى) وكان الشعب العيلامي

يقيم في منتهى الشرق الجنوبي منه ، وظرا لبعض الملابسات ، والتشابهات اللغوية ذهب بعض المستشرقين الى ان هذه الأقوام من السلالة القوقاسية . فهذه الشعوب ماعدا الشعب العيلامي هي الأصل القديم للشعب الكردي » .

« ويبدو ان هجرات العناصر الأرية (هندو - أوروبي) الى جبال زاكروس أولا والى شرقيها وغربيها أخيرا - يظن ان هذه الهجرات قد بدأت من القرن العاشر والتاسع ق . م قد أوقعت بقايا السكان الاصليين لمنطقة جبال زاكروس وبلاد كردستان تحت سلطان هؤلاء الوافدين الجدد فجعلتهم جميعا آريين وكان الشعب الميدى أقوى وأكبر شعب بين هؤلاء الوافدين الجدد فجعلتهم جماعات وشعوبا ، حيث سكن بدىء الأمر في شرقي بحيرة أورمية ، ثم أعقبتهم هجزة الأقوام الآرية الأخرى ، بارس ماناى ، بارسيوى ، بارث ، كاردشوس » .

ويقول باسيل نيكيتين في كتابه « الاكراد » .

« وكثيرا ما نلاحظ في تكوين الأسر الكردية ان أعرقها يعود الى أصول عربية (١) » .

ويوجد بين الاكراد ، الاشراف ، الذين يقولون أنهم ينحدرون من نسل النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

ان المستعرض للبحوث العلمية التي وضعت في تاريخ الاكراد يتبين أنه من الصعب ارجاع أصولهم الى قبيلة أو جنس معين ، وهذه حقيقة تتفق مع كثير من الأمم التي تتكون عادة من أنصهار قبائل وأجناس عديدة بالاضافة الى التفاعلات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية ، ولا يتناقض هذا مع خصائص الشعب الواحد التي تميزة عن شعب آخر .

● ● ●

من طائرة الهيلوكوبتر التي انخفضت الى ارتفاع قليل ، رأيت في السهل المحاذي لجبال (بى خير) انتشار بعض الوحدات العسكرية العراقية ، ملاجيء عربات النقل ، خيام جنود ، مباني عسكرية من طابق واحد ، تذكرت انتشار التشكيل العسكري المواجة لجبل زمناكو ، والمعسكر الذي احيط بمرابض للمدفعية الجبلية ، ومتوسطة المدى ، في اتجاه الجهات الأربع ، كانت العمليات ضد التمرد في قمتها وقتئذ ، قبل بداية الانهيار وعودة الآلاف ، الذين تدفقوا عائدين الى الصف الوطني خلال هذه الأيام الأخيرة من مارس ١٩٧٥ ، دارت الطائرة حول دائرة سويت فوق الأرض بسرعة كمطار للهيلو كوبتر ولمحت من أعلى دبابات حديثة ، وجنودا يمشون بالقرب منها ، وطابورا يبدو أنه للتدريب ، وجنديين يحفران الأرض بمعاول يدوية ، تأملت الدبابات بأهتمام خاص ، أصبحنا داخل احدى كتائب لواء خالد بن الوليد ، أو اللواء المدرع ١٢ ، أول لواء عراقي يصل الى الجبهة السورية في حرب أكتوبر ، لوحنا لطيار الهيلوكوبتر عندما بدأ يرتفع عائدا الى قاعدته ، وأستدرت لاواجه مجموعة من رجال الكتيبة المدرعة ، ابتسموا مرحبين .

● ● ●

المقاتل حسين ، شاب في العشرينات ، يحمل فوق صدره ثلاثة أوسمة، وسام الكوكب الأردني ، منح له قيامه بعمليات عسكريا ضد العدو على الجبهة الأردنية بعد عام ١٩٦٧ ، ونوط الشجاعة لاشتراكه في فك الحصار عن احدى ربايا الجنود بالقرب من دربندى خان ، كانت الظروف صعبة ، والاسناد المدفعي للعصاة كثيفا ودقيقا ، لكنه اندفع بدبابته الى أقصى نقطة متقدمة ، واشترك في فك الحصار ودفع المتمردين بعيدا ، ثم نوط الشجاعة مرة أخرى لدوره في الجبهة السورية ، ومن حزام جلدى حول خصره يتدلى مسدس حصل عليه كهدية من صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية ، لقد خاض (حسين) معارك عديدة في دربندى خان « ومضيق بازيان ، ومضيق زاخو ، غير أن أبرز خبراته القتالية تلك التى أكتسبها في حرب أكتوبر ، قاد دباباته عبر المسافة الشاقة الطويلة من الحضر حتى الجولان ، أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر من التنقل المتصل المستمر ، ان ركوب دبابة أمر يختلف عن ركوب أى وسيلة انتقال أخرى ، كالعربة أو الطائرة ، فحيز الحركة داخلها ضيق للغاية ، حيث يجلس أفراد الطاقم في مساحة محدودة لا تسمح لكل منهم الا بالحركة التى تستلزمها ادارة المعدات بالاضافة الى الهدير الذى لايخفف منه « الهيلمان » (غطاء الرأس الخاص) كثيرا، ثم ان الانتقال على الجنزير هذه المئات من الكيلو مترات أو يستنزف جهدا بدينا شاقا ، لم تتح له فرصة الراحة ، صدرت له الأومر بالتقدم باتجاه تل الشعار للاشتباك بالعدو ، ودفعه الى الخلف ، قرب الغروب هوجم التشكيل بطائرات اسرائيلية معادية الغرض منها تشتيت الهجوم ، ولكن وسائل الدفاع الجوى القومية تولت الرد ، بالاضافة الى الوسائل الذاتية المزودة بها الدبابات العراقية ، كان الرد جيدا ، ثم اسقاط بعض الطائرات المهاجمة ، وعدم تمكينها من تحقيق أغراضها ، واستمر التقدم ، برزت مشكلات واجهت جميع التشكيلات المسلحة العراقية التى وصلت الى الجولان، وهى عدم تعرفهم الكافى على طبيعة الأرض ، وعدم استطلاعهم للمنطقة، ولكن بسالة المقاتلين وشجاعتهم ، وحماسهم لخوض القتال ذلل هذه المشكلة، والمشكلات الأخرى • مع هجوم دبابات خالد بن الوليد سكتت بعض دبابات العدو التى كانت تحاول التصدى للهجوم من مرابض ثابتة واكتشف (حسين) أن هناك دبابات معادية تقف صامتة ، هامدة ، تركها جنود العدو وفروا أمام قوة الهجوم المضاد •

وبسرعة صدرت الأوامر للجنود العراقيين الذين أصيبت دباباتهم بركوب الدبابات ، كانت من طراز (سنتريون) الانجليزى ، وهو طراز يعرفه الجنود العراقيون ، اذ أنه يدخل ضمن تسليح الجيش العراقى • وسرعان ما استدارت المدافع الى الجهة الأخرى واهتزت الأجسام الحديدية الضخمة عندما دارت الموتورات ، وتقدمت لتشترك في الهجوم ثم احتلال تل الشعار ، وفي الليل أمر المقاتل (حسين) بعض الجنودبالنوم الاجبارى لمدة ساعتين واستطلع المنطقة ، لم يذق نوما ، مع الفجر وخيوط الضوء الأول إكتشف أن مقر قيادة العدو على مقربة منهم ، بدأت الدبابات العراقية في

قصفه والاستعداد للهجوم عليه ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه طائرات العدو تحاول الانقضاض على القوات العراقية ، ومرة أخرى تشتبك مع وسائل الدفاع الجوى العراقية ، وفى أقصى نقطة متقدمة وقف قائد لواء خالد بن الوليد يشرف على هجوم اللواء من مركز قيادته المتقدم ، ويتابع تطورات القتال من أقصى نقطة أمامية فى أرض العمليات ، وبناء على الموقف الحى الذى يراه بنفسه يتخذ قراراته ، كان يتصل بقادة الكتائب وقادة السرايا ، يشجعهم فى جهاز اللاسلكى ، يشكرهم على دقة الرمى ، ورفع هذا من معنويات رجاله الذين رأوا قائدهم فى الأمام ، راح يحرك مجموعات الدبابات من مكان الى آخر ، بحيث تمكن فعلا من تضليل العدو الاسرائيلى، وانعكس هذا على ترددهم فى القيام بالهجوم ، وعدم تركيزه فى اتجاه واحد، وبدا واضحا أن الاضطراب يسودهم • ربما استوحى هذا التكتيك من خطة خالد بن الوليد الذى واجه جيوش الروم التى تفوقه عددا ، فعمد الى تحريك كتائبه بشكل أوحى لقادتهم أنه يقود جيشا يبلغ أضعاف أضعافهم من حيث العدد •

مع بدايات نهار ١٣ أكتوبر ، استمرت الدبابات التى يقودها (حسين) فى الهجوم ، وأثناء تقدمها أصيبت دبابة المقاتل (عبدالحميد) بطلقة قسمت مدفعها الرئيسى الى نصفين ، لم تتمكن الدبابة من الرمى ، وبرغم ذلك رفض رجالها مغادرتها واقتحموا بها خندقا للمشاة مستعملين المدافع الرشاشة فى تطهير الخندق •

● ● ●

عندما قدم السيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة مسدسا هدية الى المقاتل ذاكر ، قال له :

ــ السلاح لمن أحسن استخدامه •• فلك هديتنا •

فى اليوم الأول لوصول خالد بن الوليد الى الجولان تقدم المقاتل ذاكر ضمن الجناح الأيمن للواء فى الساعة الثانية ظهرا تعرض لضربة جوية، غير انها لم تحدث أية خسائر واستمر تقدم الدبابات الى قرية الطيحة ، كانت مخلاة ، ثم تمركز رجال المشاة بها ، واستمر تقدم الدبابات ماشتبكت بالعدو الذى تراجع الى الخلف ، تمكن (ذاكر) ومجموعته من تدمير دبابتين، غير أن صاروخا أصاب دبابته فى الجانب الأيمن ، تلاه صاروخ آخر فى باب السائق ، ثم ثالث فى الجانب الايسر ، بدأ حريق فى الدبابة ، أشتعل قماش المشمع الموضوع أعلى الدبابة ، واستمر السائق عبد الخضر عبد الله فى التقدم وفى جهاز اللاسلكى صاح قائد الدبابة القريبة المقاتل اسماعيل :

ــ النار تشتعل فى دبابتكم •• سأحميكم ••

ونزل المقاتل ذاكر ! ومعه جنديان من طاقم الدبابة ، بدأوا أطفاء الحريق ، فى هذه اللحظة انقضت طائرة فانتوم غير أن وسائل الدفاع الجوى أجبرتها على الابتعاد ، كانت الشظايا تتطاير حول ذاكر ، والرجال • لكنهم لم يتوقفوا عن اطفاء الحريق ، وعندما خمدت النيران ، لم يكن هناك وقت أمامهم للتأمل ، أو للتفكير فى محاولة الرجوع بالدبابة الى الخلف لاصلاحها،

نقدموا بها مستأنفين الهجوم ، فى نفس اليوم تعرضت تلك الدبابة لهجوم معاد ، تقدمت الدبابات الاسرائيلية وطوقتها ، وجد الرجال أنفســهم محاصرين ، وبدا هذا الموقف أصعب من لحظات اشتعال الحريق ، والتهديد بانفجار الدبابة ، ومرة أخرى يتقدم المقاتل اسماعيل يقود عديدا من دبابات التشكيل لفلك الحصار عن دبابة (ذاكر) التى بدا منظرها غريبا وهى مصابة فى أكثر من موضع وتقاتل باصرار عنيد · اشتبكت الدبابات التى يقودها اسماعيل بالدبابات الاسرائيلية ، وعندما نجح فى فك الحصار عن دبابة ذاكر تقدمت القوة كلها تطارد العدو ، بينما رقدت على أرض المعركة أربع جثث حديدية لدبابات اسرائيلية تشتعل فيها النيران ، وتتطاير منها انفجارات الذخائر ، وأطلقت الدبابات العراقية مدافعها الرشاشة على بعض أفراد العدو الذين غادروا دباباتهم محاولين الهرب ·

● ● ●

عندما وصل رئيس العرفاء مجيد الملا الى الجولان ضمن لواء خالد ابن الوليد ، كانت هذه هى المرة الاولى التى يخرج فيها من العراق ، مجيد جندى فى الجيش العراقى ، يعمل راميا على احدى الدبابات ، كردى ، من قضاء مخمور بمحافظة أربيل ، وصل ليلة ١٢ أكتوبر الى منطقة جاسم القريبة من قرية الشيخ مسكين ، كان الوقت فجرا ، وبقى حتى الساعة العاشرة والنصف عندما صدر لهم الامر بالتقدم عبر طريق الصنمين باتجاه تل الحمارة ، عندما وصلوا الى سفح التل ، بدت فى الجو طائرات الميج ١٧ ، انقضت على اهداف اسرائيلية فى المواجهة ، وبرق فى النهار وهج انفجارات القنابل البرتقالى ·

حوالى الساعة الرابعة صدر الأمر بالتحرك والهجوم ، صعدت الدبابة على المرتفع ، كان للعدو فى المنطقة عدد من مرابض المدافع المضادة للدبابات ، أطلق أحدها قذيفة على الدبابة ، رصد القائد المقاتل حميد مكان المدفع ، يسار تل المال ، لم تصب الدبابة ، صوب المقاتل مجيد الملا مدفعه وبطلقة واحدة اقتلع المربض الأسرائيلى من جذوره ، ان مجيد مشهور عنه أنه أدق رامى فى الكتيبة ، له خبره طويلة فى القتال على الدبابات ·

ثم رصد مدفعا آخر ، وخرجت طلقة لتسكته الى الأبد ، وتقدمت الدبابة ، انفجرت بالقرب منها دانه مدفع أطاحت شظاياها بجهاز الاشعة تحت الحمراء المركب فوق الدبابة ، لم يستطع المقاتل حميد ولا المقاتل مجيد رصد هذا المدفع ، لكنهما لمحا دبابة اسرائيلية تتوارى خلف بقايا مبنى قريب ، أطلق عليها مجيد مدفعه فى المرة الثانية أصابها اصابة مباشرة ، مع الهجوم أصيب الدبابة أصابة مباشرة وكان لابد للرجال أن يغادروها ، حملوا رشاشاتهم وقفزوا من البرج الرئيسى ، ابتعدوا عدة أمتار ، ثم انبطحوا أرضا عندما دوى انفجار هائل ، واستمرت دباباتهم مشتعلة طوال الليل ، آلتقوا بوحدة من القوات الخاصة السورية صحبتهم حتى مقر القيــادة الميدانى للواء خالد بن الوليد ، ومع وقف اطلاق النار ، عاد مجيد الملا الى العراق ، لم يقض أياما طويلة فى قريته بقضاء مخمور ، انما التحق بوحدته التى استأنفت تدريباتها ، وبعد أبريل ١٩٧٤ ، اشترك فى عدة معارك جرت

ضد المتمردين ، وهو يحارب المتمردين باقتناع سياسي كامل ، ووعي بكل الاضرار التي يسببها العصاة للشعب الكردي ، وبعد عام من القتال ترابط وحدته هنا على مقربة من الحدود التركيه ، وخلال الأيام الأخيرة من مارس ١٩٧٥ بدأ يشهد تدفق العائدين الى الصف الوطني ، ويشترك في استقبالهم.

● ● ●

أثناء تحرك الكتيبة الى خطوط القتال ، مرت بقرية سورية خالية ، هجرها كل سكانها ، وحولها توالت الانفجارات ، ودوى القنابل ، وتوقعت الدبابات لحظات لاعادة التنظيم ، نزل الملازم أول ضابط التوجيه السياسي بالكتيبة ، تأمل البيوت الخالية حوله ، البيوت ، طرقات القرية الضيقة التي لعب فيها الأطفال ، وتحدث الرجال ، ومشت فيها الفتيات ، فجأة صر أحد الأبواب الخشبية ، خرج رجل عجوز ، منحنى الظهر ، يرتدى معطفا أزرق اللون وعقالا عربيا ، اتجه اليه الملازم ، صافحه ، سأله عن السبب الذي يجعله باقيا بمفرده في القرية كلها ، لا يوجد الا هو ، قال العجوز انه رفض مغادرة القرية • عاش عمره كله بها ، وعندما ذهب أولاده وأحفاده الى الأمان ، بقي هو ، ان سنين عمره موزعة بين تلك الجدران ، وهذه البيوت ، ابنه يحارب في صفوف الجيش السوري ، صحيح لا يعرف موقعه، وليست لديه أخبار عنه ، لكنه يشعر هنا أنه على مقربة منه •

● ● ●

عانقه الملازم ، وعاد ليلحق بدباباته التي بدأت تستعد لاستئناف الحركة ضمن الرتل ، عندما اتخذت الكتيبة طريقها الى القتال أصر على أن يشترك كعنصر مقاتل في المعركة ، وألا يقتصر عمله على التحرك بين الجنود ،وهكذا قاد بنفسه احدى دبابات الكتيبة من طراز (ت ـ ٦٢) •

● ● ●

تقدموا حتى المغرب ، وقبل الضياء الأخير بدأ العدو يطلق نيرانه على الدبابات العراقية وبدأ تبادل الرمي ، أصيبت دبابته بصاروخ اسرايلي من طراز (تاو) وهنا يجب تسجيل ملاحظة هامة وهي تفوق المقاتلين العراقيين ودقتهم في تصويب مدفعية الدبابات ، ان معظم الخسائر التي وقعت للدبابات العراقية حدثت نتيجة اطلاق الصواريخ المضادة للدبابات ، وليس نتيجة قذائف الدبابات ، بعكس الدبابات الاسرائيلية التي أصيب عدد كبير منها بواسطة مدفعية الدبابات العراقية ، في (الصنمين) تم استلام الأوامر ، وحددت الأهداف المعادية التي تبعد أكثر من خمسة عشر كيلو مترا ، كانت معنويات الجنود عالية جدا ، والشجاعة العربية متجسدة في أرض القتال، تحرك

● ● ●

الملازم (•••) بدبابته مع مجموعة أخرى الى تل الشعار ، عند الفجر فتحت النيران ، وتبين أن هناك محاولة معادية للتطويق ، وأن اطلاق النيران الذي بدأ ـ الغرض منه صرف الانتباه عن القوة الرئيسية التي ستقوم بالتطويق• بسرعة أتخذت الدبابات العراقية أوضاعا قتالية تمكنها من أفساد محاولة التطويق ، والهجوم في نفس الوقت على العدو ، نشب قتال عنيف ، أصيب خلاله قائد مجموعة من الدبابات بشظية أصابت ساعده ، لم تؤلمه ، لم يدر بها

الا بعد انتهاء القتال ، عندئذ بدأ الالم ، قدرة الانسان الخارقة على تأجيل أله ، والسمو به فوق اللحظة ، وعندما بدأ النهار كان الملازم سيف قددمر دبابة اسرائيلية من طراز سنتوريون ، بدا أنه لا يشعر بأى ارهاق ، واعتبر هذا أفضل أسلوب لعمل ضابط التوجيه السياسى .

● ● ●

فى يوم ٦ أكتوبر ، اشترك الملازم أول (٠٠٠) لأول مرة فى حياته بالقتال ، كلف بواجب قتالى ضمن خطة عامة لاحتلال تل عنتر ، تحدد وقت الهجوم الساعة الثالثة صباحا ، تقدم مع وحدات المشاة الميكانيكية التى تتبع لواء خالد بن الوليد ، ثم ترجل مع بقية المقاتلين على بعد ٢ كيلو متر من الهدف ، قطعوا المسافة مشيا ، ولم يواجهوا بأية مقاومة ، تكاملت التشكيلات فى المنطقة حوالى الساعة الخامسة والنصف .

كان (٠٠٠) والرجال قد تقدموا الى أقصى نقطة مواجهة .

بدأ هجوم اسرائيلى مضاد .

عدد كبير من الدبابات ، قدر بحوالى عشرين دبابة ، تقدم فى اتجاه القوات العربية ، وتصدى لها المشاة العراقيون ، وهنا يحدث موقف تكرر كثيرا فى حرب أكتوبر ، عندما يتصدى جندى المشاة العربى لدبابات العدو ، ويقاتلها حاملا أسلحته المضادة للدروع ، أو يجرى خلفها ويتسلقها ويلقى قنابله داخلها فى قتال ملتحم ، طرفاه الدرع والانسان ، بسرعة تم توزيع الرجال فى مواقع تمكنهم من أصابة الدبابات الاسرائيلية ، مع انطلاق القذائف المضادة ، انفجرت ثلاث دبابات وقفز بعض الجنود الاسرائيليين وأطلق الرجال مدافع الكلاشنكوف بينما استمرت المعركة بين المشاة والدروع ، استشهد الملازم محمود زميل (٠٠٠٠) والذى كان يحارب على مقربة منه ، ربما هذا هو ما جعل (٠٠٠٠) يقاتل بشكل انتحارى ومعه الملازم محمد جابر نبهان الملقب أبو أديب الفلسطينى الجنسية ، والضابط بالجيش العراقى ، كما أنه عضو المجلس الوطنى الفلسطينى والذى دمر بمفرده ثلاث دبابات (استشهد بعد أكتوبر بشهور فى دربندى خان بشمال العراق ، وشيع فى جنازة مهيبة نظمتها القيادتان القومية والقطـــرية لحزب البعث العربى الاشتراكى) .

مع ساعات النهار الأولى وعند سفوح تل عنتر ، رقدت سبع دبابات دمرها المشاة العراقيون ، فى نفس الوقت كانت معركة كفر ناسج تبدأ وتستمر حتى يوم ١٧ أكتوبر .. عاد (٠٠٠) وزملاؤه الى وحداتهم ، وبدأوا يستعدون لشن هجوم كبير حدد له يوم ٢٣ أكتوبر ثم صدر قرار بوقف اطلاق النار على الجبهتين يوم ٢٢ أكتوبر ، وتقرر عودة وحدات الجيش العراقى الى بغداد بعد أن أدى واجبه القومى ، كان جنود الالوية العراقية التى وصلت من يوم ١١ أكتوبر الى الجبهة السورية والتى شاركت فى القتال بشكل فعال وحاسم يشعرون أنهم لم يقدموا كل أمكانياتهم فى القتال ، كان وصولهم فى اللحظة المناسبة يوم ١١ أكتوبر ثم اشتراكهم فى القتال اعتبارا من يوم ١٢ أكتوبر السبب الرئيسى فى افشال الهجوم المضاد

الأسرائيلى الذى استهدف تطويق دمشق ، وعزلها ، وتدمير الجيش السورى لكنهم رغبوا فى مواصلة القتال ، وطرد العدو من الجولان نهائيا ، أثناء استعداد الوحدات العراقية للعودة ، مر أحد كبار الضباط ، سأل بعض المقاتلين :

ـ كيف الحـــال .

وردوا بالعبارات التقليدية المعتادة ، لكن أحدهم رد بتلقائية :

ـ سيدى .. والله ما شبعنا حرب .

غير ان هؤلاء الذين اشتركوا فى القتال أفضل حظا من زملائهم فى الوحدات التى استمر تدفقها وكانت تشكل احتياطيا للهجوم العام ، عندما بدأت الحرب تحركت الفرقة السادســـــة من محافظة ديالى حتى الجبهة السورية ، جهد مكثف بذله فى تجميع الوحدات ثم الانتقال وبعد الوصول بأيام قليلة صدر قرار وقف اطلاق النار ، ثم عودة الجيش العراقى .. ماهى

● ● ●

مشاعر المقاتل الذى يقطع أكثر من ألف كيلو متر ليحارب ، ثم تتوقف الحرب عند وصوله الى الجبهة ؟ ان مشاعر عديدة تجول داخله ، ضياع اللحظات التى ينتظرها المقاتل بالشهور ، والسنوات ، افلات الفرصة ، غير ان هذه الأفكار تتوارى مفسحة الطريق أمام المشاعر التى تصحب اســــتعدات الحركة وتجهيز القوات للعودة .

فى غوطة دمشق رابطت وحدة دبابات عراقية داخل بستان يملكه شيخ سورى عجوز ، التقى به الجنود ، عند وصولهم قال له الضابط العراقى أول يـوم :

« تعرف اننا سنتلف بستانك ، ونعرف ان الأرض عزيزة عليك مثل الولد ، كلنا فلاحون ، لكننا نعدك بألا يدخل جندى صهيونى الى بستانك وان نعيد الحفر التى ستستخدمها الدبابات الى ما كانت عليه عند ذهابنا .

قام الرجل يبكى ، عانق الضابط والجنود .

« اننى عندى ولدان فى الجبهة ، وانتم جئتم من بلاد بعيدة انا أماشا يفهها تتكلمون كلاما حلوا ، جعلتمونى أشعر ان كلا منكم ابنى ، الأرض وصاحب الأرض لكم » .

وخلال الأيام التى أقامها الجنود والضباط ، كانت المشاعر المتبادلة بينهم وبين العجوز رقيقة ، دافئة ، انسانية ، عند استعدادهم للعودة ، تقدم الجنود الى قائدهم ، طلبوا السماح لهم بساعتين اضافيتين حتى يعيدوا الحفر الى ما كانت عليه ، تقدمهم الضابط ، بدأوا يسوون الأرض ، يعيدونها الى وضعها الذى كانت تعطى معه الخضرة ، والنماء ، بينما دمعت عينا العجوز السورى تأثرا ، بعد عبور القوات العراقية الحدود السورية ، رابطت جميع الوحدات العسكرية لفترة استعدادا لانتقالها مرة أخرى الى الجولان، لو تجدد القتال .

ليلة ٢٢ مارس ١٩٧٥ ، وصل الى مركز قيادة التشكيل العراقى المسلح المرابط شرق الموصل ، مندوب عن العصاة الاكراد ، قال للقائد العراقى ان أربع بتاليونات « كتائب » ترغب فى الاستسلام بكامل أسلحتها ، وأنهم

بدأوا فعلا فى التحرك من أعالى الجبال ، ونظرا لو عورة الطريق فانهم سوف يستغرقون وقتا ، سيصلون غدا فى الصباح الباكر ، رحب القائد العراقى بعودة المسلحين الاكراد ، بدأ يتخذ الاستعدادات للقائهم فى أتروش ، الواقعة فى أعلى جبال « هكاوى » ، استمر تدفق العائدين فى حسنان ، فى قاطع السليمانية ، فى العمادية ، فى سائر أنحاء المنطقة ، وحتى أول أبريل عاد الآلاف وتم وتسليم أكثر من مائة ألف قطعة سلاح ، بدءا من المدفعية الثقيلة حتى البنادق والمسدسات ، مرورا بمدافع الهاون ، والرشاشات المتوسطة والخفيفة ، وآلاف الأطنان من الذخيرة ، وكميات الوقود ، والطعام ، والملابس والمؤن المختلفة ، لاحظت التنوع الشديد فى مصادر الأسلحة ، لكن الطراز السائد كان أمريكيا وانجليزيا واسرائيليا ما توقفت أمامه كثيرا تلك البنادق والمدافع ، والقنابل التى كتب على كل منها بالحروف العبرية ، نفس الحروف التى رأيتها على الأسلحة والذخائر التى غنمتها القوات المصرية خلال حرب أكتوبر على جبهة السويس ، قال الاكراد ان هذه أنواع جديدة تماما على الواقع الكردى ، ان علاقة الكردى بالسلاح قديمه ، يدعم هذه العلاقة حياته فى الجبل ، والصراعات المستمرة التى لم تكن تنتهى بين العشائر الكردية المختلفة ، ولكن الاكراد لم يعرفوا البنادق ، وحتى سنوات قليلة كانت أشهر أنواع البنادق المنتشرة من نوع (برنو) ، ومن قبل الموزر • ثم ظهر الكلاشنكوف بعد ١٩٦٧ ، ولكن تلك الأنواع من الأسلحة الثقيلة ، وهذا العتاد الضخم ينطق بوضوح ويجسد القوى الرجعية الخارجية التى أردات استغلال الاكراد •

مع الأيام الأولى من أبريل تحركت وحدات الجيش العراقى من (حسنان) ودخلت كلاله معقل الملا الحصين ، والحاج عمران بدون ، طلقة واحدة ، بل قوبلت بالاهازيج والرقصات الكردية التقليدية ، وفى كل مكان كان المقاتلون يقدمون العون للمصابين الاكراد ، والعائدين ، فى الحرب عندما يصاب جندى ، يصبح جريحا تجده شديد الحساسية لكل تصرف يصدر تجاهه ، سواء كان من رفاقه أو أقاربه ، ويحرص المحاربون على معاملة جريحهم بحساسية شديدة ، هكذا كان الجيش يتعامل مع العائدين ، وكأنهم جرحى سقطوا بين صفوفه ، مع أنهم كانوا يحاربون ضده ، وهذا هو الوعى الثورى الانسانى ، الذى زرعته الثورة فى نفوس المقاتلين ، وتعتبر تجربة فريدة بين الجيوش الوطنية الحديثة التى تتصدى لقضايا دقيقة يتعين خلالها حل الكثير من المشاكل والمعادلات الصعبة ، وأبرزها كما ذكرنا التوفيق بين روح القتال والمعاملة الرحيمة •

اتخذت القوات المسلحة العراقية مراكز على الحدود ، توقف نزيف الدم ، ثمة مشاكل من نوع آخر تبدأ ، مشاكل تتعلق بتضميد الجراح ، بالبناء ، بتعميق روح المواطنة لدى الاكراد ، اشباع حاجاتهم الروحية والقومية توطيد الحكم الذاتى ، ان انتهاء القتال المسلح ، لايعنى أن أعداء الحكم الذاتى قد انتهوا ، انهم ممثلون فى القوى الاجتماعية المتخلفة بين الاكراد ،

بالعرب ، إنها تحديات جديدة أمام ثورة العراق ، وفي منطقة العمادية ، أثناء وقوفها فوق جبال صخرية وعرة ، نشهد عودة آلاف الافراد المسلحين الى وطنهم ، قال صديق مصرى :

ـ ان الثورة التى عالجت تلك المشكلة المعقدة بهذه البراعة ، سوف تعالج المشكلة التى ستنشأ منذ الآن بنفس القدرة ، وخاصة انها تدور حول البناء والاستقرار بعد أن انتفى منها عنصر الحرب

● ● ●

الجهد الجوي
جبهة القنـــاة
الجـــولان

فى يوم السبت ٦ أكتوبر ، وفى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا ، وصلت طائرة اليوشن الى أحد المطارات الأمامية بجبهة قناة السويس • ونزل منها عقيد طيار مصرى اتجه الى قائد القوة الجوية المرابطة فى المطار ، وسلمه مظروفا مغلقا يحوى أمر العمليات العسكرية •

فى المطار كان الطيارون فى حالة تاهب ، ومنذ أيام وهم مستغرقون فى هذا المشروع التدريبى ، وانفرد هذا المطار بتواجد سرب من الطائرات العراقية ، طراز (هوكر هنتر) ، وطياريه ، وملاحيه ، والفنيين المتخصصين فى هذه الطائرات ، وصلوا الى مصر منذ أبريل ١٩٧٣ •كانت القيادة المصرية قد طلبت أرسال هذا النوع من الطائرات وذلك لاسباب فنية تتعلق بطبيعة الأهداف التى سيتم الهجوم عليها ، وقوبل الطلب بحماس شديد بين صفوف الطيارين آلعراقيين ، صار سباق ، من سيذهب الى مصر ، ان الذى سيشترك فى القتال على آلجبهة المصرية سيكون جزءا من رأس السهم الذى سيوجه الضربات للعدو الصهيونى • وعندما وصل الطيارون الى مصر ، اندمجوا بسرعة مع رفاق السلاح المصريين ، عاشوا حياة واحدة فى القاعدة الجوية ، ربطت بينهم صداقات ، علاقات شخصية عميقة • هذا على المستوى الانسانى ، أما الجانب العسكرى فقد أتاح لهم وصولهم قبل بدء القتال بشهور فرصة التعرف الى طبيعة الأرض ، والعلامات الأرضية ، والوجبات التى سيقومون بها ، مصطلحات الطيران ، التى تختلف اختلافا كبيرا من بلد عربى الى آخر ، خاصة فيما يتعلق **بالتوجيه الأرضى** ، وهذه المشكلة برزت بشكل حاد على الجبهة السورية ، التى وصلتها الطائرات العراقية مع اليوم **الثانى للقتال ، ولم يتح لها فرصة كافية للتعرف على المصطلحات العسكرية الخاصة بالطيران السورى ، مما سبب بعض المتاعب التى سنتعرض لها عند استعراض دور المقاتلات العراقية على الجبهة السورية** ، يمكن القول أن الطائرات الهيلوكبتر ــ كما تعرف فى مصر ــ يطلقون عليها فى العراق ، الطائرة السمتية ، وفى سورية ، الحوامة ، وقد حدث أثناء القتال ان صاح بعض الجنود العراقيين فى الجولان •

ــ هناك طائرات سمتية معادية تقترب •

فظن الجنود السوريون أن العدو قد استعمل سلاحا جديدا لايعرفون عنه شيئا ، وصار اضطراب • **ولعل توحيد المصطلحات العسكرية المستعملة بين مختلف الجيوش العربية يكون أحد الدروس المستفادة من حرب أكتوبر •**

فى المطار المصرى المتقدم ، وفى تمام الساعة الواحدة استلم الطيارون العراقيون أوامر القتال ، الخرائط معروفة لهم من قبل • الطريق الذى سيسلكه كل منهم ، فى الذهاب ، وفى العودة • قبل اتجاههم الى طائراتهم تعانقوا مع بعضهم البعض ومع زملائهم المصريين ، الساعة الواحدة والنصف ، شددوا الأحزمة داخل الطائرات التى ربضت عند المدرجات ، فى الثانية وخمس دقائق بدأ هدير المحركات يذيب الصمت ، وفى الساعة الثانية وأربعة عشر دقيقة ، وبين موجات الهجوم الأولى التى اتجهت لتسديد الضربة الجوية الشاملة ضد العدو ، أقلعت خمس وعشرون طائرة (هوكرهنتر) يقدوها طيارون عراقيون ، وزعت القوة الى ثلاث مجموعات ، الأولى بقيادة

قائد السرب ، وبعد لحظات كانوا يعبرون قناة السويس من فوق احدى المناطق التى حددت لهم ٠

(١)

عاد المقاتل الطيار (٠٠٠٠)بطائرته الهوكر هنتر ، بعد أن اشترك فى الضربة الأولى ، أغار بطائرته ضمن مجموعات المقاتلات المصرية والعراقية على العدو فى (أم خشيب) ٠ وعندما بدأ وصول بقية طائرات التشكيل تزايد الحماس بين زملائه ، عادوا جميعا سالمين ، اتجهوا الى مقرات الراحة حيث كلفوا بواجب آخر حدد لتنفيذه الساعة الخامسة من مساءنفس اليوم ٠ غير أن التعليمات وصلت بالغاء الرحلة ، لان الأهداف التى كان مقررا اعادة ضربها تدميرها تماما فى الضربة الأولى ، فى الليل التف (٠٠٠٠)مع زملائه حول الراديو يصغون الى أخبار العبور والمعارك ، من حولهم التهب الجو الحماسى ٠ رجال عاشوا من أجل هذه اللحظات سنوات طويلة ٠ صباح اليوم التالى ، جاءت الأوامر بضرب أهداف العدو فى (الطاسة) ٠ تمت تهيئة الخرائط ، وتحديد الطريق ، وتأمين الأجواء التى ستعبرها الطائرات ٠٠ أقلع (٠٠٠) مع الطائرات ، فى نفس الوقت عادت مجموعة أخرى من (الهوكر هنتر) ظهرا على ارتفاع منخفض ، واستطاع (٠٠٠٠) أن يرى الدبابات المصرية أثناء تقدمها السريع ، ولاحظت الدبابات المعادية ، وبدأ منظرها من هذا الارتفاع المنخفض مرتبكا ،يسودها اضطراب ، ظهر الارتباك من الأوضاع التى اتخذتها ٠ كان الاستطلاع الجوى المصرى قد التقط صورا لأهداف العدو داخل سيناء المحتلة على فترات متفاوتة ، وكان الطيارون العراقيون يعرفون طبيعة الأهـداف التى سيهاجمونها ٠ عرفوا مواقـع الدفاعات الأرضة المحيطة بموقع العدو فى الطاسة لهذا قام قائد التشكيل بالاقتراب خلال زوايا مكنته من تدمير واسكات المدافع المضادة الاسرائيلية، بينما قامت طائرات أخرى بتدمير مواقع العدو ، وارتفعت السنة اللهب،

● ● ●

وبدا من الخفقات المفاجئة فى النيران البرتقالية أن مخزنا للذخيرة قدأصيب، عاد (٠٠٠) مع الطائرات ، فى نفس الوقت عـادت مجموعة أخـرى من (الهوكر هنتر) اشتركت فى الهجوم على هدف آخر ولم تعد احدى الطائرات، فقد استشهد فى هذا اليوم أحد زملاء (٠٠٠٠) وليد السامرائى ، أول طيار عراقى يفقد فى الجبهة المصرية ٠

الاثنين ٨ أكتوبر ، جاء أمر بضرب حشود للعدو حول موقع الطاسـة٠ توجه (٠٠٠٠) الى طائرته الساعة الرابعة وأربعين دقيقة ٠ قبل صعوده الى الطائرة عانق ضابط التوجيه السياسى المصاحب للتشكيل ، وكان يودع زملاءه عند كل طلعة ، ويستقبلهم فى العودة ٠ وفى الساعة الخامسة أتخذ (٠٠٠٠) طريقــه فى الســماء ، الشمس تقترب من حافــة الأرض وثمة غيــوم تبدو الى أعلى ، اذ أن (٠٠٠٠) يطـير على نفس الارتفـاع المنخفض وعند عبوره القناة رأى ســيناء قطعة من النيران ، وكأن كل عنــاصر الطبيعة انصهــرت فى اللهب ، وعلى الرمال تقدمت المدرعات

المصرية ، وعندما حلق (٠٠٠٠) فوق العدو ، أطلقت عليه النيران المدفعية الخفيفة ، وفى لمحة استطاع أن يرى جنديا اسرائيليا فوق دبابة يطلق نيران مدفع رشاش في اتجاه الطائرات ، وانطلقت رصاصات معادية لتستقر بجسم الطائرة ، صيبت من مقدمتها حتى مؤخرتها ، ظلت أجهزة القيادة والاجهزة الالكترونية صالحة ، اتصل (٠٠٠٠) بقائد التشكيل ٠

ـ أنا ضربت ٠٠ لكن طائرتي زينة (جيدة) ٠

استمر في اتجاه الهدف ، قبله بعشر ثوان ، رأى طائرتي ميراج فيوضع تشكيل قتال فوق الهدف ، على ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم ، ومن اليمينظهرت طائرتان من طراز فانتوم على ارتفاع شاهق حوالى ١٥ر٠٠٠ قدم ، ومرة أخرى اتصل بقائد السرب ، وأعطاه تلك المعلومات ، منذ بداية القتال أصغى (٠٠٠٠) الى كثير من التفاصيل التى رواها زملاؤه المصريون الطيارون على الميج ٢١ ، والسوخوى ، والذين اشتبكوا بالفانتوم ، والميراج ، من خلال التفاصيل تبرز خبرة قتالهم ، يعنى (٠٠٠٠) ان كل طائرة لها مميزاتها وعيوبها ٠ لايوجد شيء كامل ، المهم هو الشخص الذى يقاتل عليها ، درجة وعيه لخصائص طائرته ، هل عرفها أم لا ؟ الطيار الجيد هو الذى يجيد استخدام نقاط القوة والضعف ، ليس فى طائرته فقط ، وانمافى طائرة العدو ، ان يركز على العين الضعيفة بملكاته ، ان الفانتوم غير مجهزة بشكل فنى للقتال الجوى ، وتتجنب القتال مع طائرة متخصصة فى القتال، انها طائرة قاذفة مقاتلة ، وهى بذلك تتفوق على الطائرة المقاتلة فى القصف٠ ثم أن الطيار العربى أصبحت له خبرة بها ، بنقاط ضعفها ، واستطاع اسقاطها بالميج (٢١) منذ ديسمبر ١٩٦٩ عندما اسقط طيار مصرى على الميج (٢١) طائرة فانتوم اسرائيلية فوق خليج السويس ، فى أول اشتباك يجرى بين الطائرات العربية والفانتوم ٠ فى سنة ١٩٦٧ اغارت طائرات اسرائيلية على القوات العراقية ، ضم التشكيل المعادى أنواعا من طراز (فوتور) القاصفة الأرضية ، و (الميراج) المقاتلة لحمايتها ، وتصدت الطائرات العراقية من طراز (هوكر هنتر) للعدو ، عمليا الميراج أخطر من الهوكر هنتر ، ولكن الطيار العراقى أسقط الميراج وقتئذ ، مهما تقدمت المعدات ، أو تطور السلاح ، يظل الانسان هو العنصر الفعال فى الاستخدام والحسم ٠

تقدمت الطائرتان رقم (١) و (٢) لضرب أهداف العدو ، بينما قامت الطائرة (٣) والطائرة (٤) التى يقودها (٠٠٠٠) بواجب الحماية ، اتجه تشكيل الميراج المعادى اليها ، وبسرعة قام (٠٠٠٠) وزميله بمناورة حادة بحيث أصبحا فى وضع لايمكن الميراج من أصابتهما ، ويستطيعان من خلال هذا الوضع اصابة الأهداف، تمكنا من أشعالالنيران فى العديد منها ٠ كانت دفاعات العدو كثيفة جدا فى المنطقة ، أتم (٠٠٠٠) واجبه ، بدأ يستدير للابتعاد بطائرته المصابة ، غير أن اصابة لحقت جناحها الايسر ، وجد نفسه فى وضع لا يمكنه من السيطرة عليها ، وراح مؤشر الارتفاع يخفض بصورة رهيبة ، حاول جاهداً الارتفاع بالطائرة وتحته رأى معركة كبير بين الدبابات،

ويبلغ من انخفاض الطائرة حدا رأى معه قذائف مدفعية الميدان تتطاير حوله ، قبل أن يوجه مقدمة الطائرة باتجاه قناة السويس ، سمع قائد الطائر رقم (٢) يتصل بقائد التشكيل ويقول « أصيبت طائرتى ، حريق بداخلها » كان هذا صوت زميله الطيار عامر ، وقد ظلت أخباره مقطوعة حتى عودة السرب العراقى الى بغداد ، وبعد فترة عثرت القوات المصرية على جثمانه بالقرب من ضفة قناة السويس ، وتولت دفنه فى مقابر الشهداء المصريين ، والآن ، بعد مايقرب من عامين على انتهاء القتال لازال عامر العراقى ، يرقد الى جوار زملائه الشهداء المصريين ٠ وسيظل بينهم الى الابد ٠

● ● ●

فى اللاسلكى صاح المقاتل طيار (عبد القادر) قائد الطائرة رقم(٣) مناديا (٠٠٠) ٠

(خلى بالك ٠٠ الميراج وراءك ٠٠) ٠

واستمر (٠٠٠٠) فى اتجاه القناة ٠

بعد عشر ثوان شاهد (٠٠٠٠) طائرة رقم (٣)تهوى ، لم يعرف هل استطاع زميله الطيار (عبد القادر) القفز منها أم لا ؟ و (٠٠٠٠) خلفه طائرتا ميراج ، على بعد حوالى خمسة كيلو مترات ، وجه طائرته باتجاه قرص الشمس الغارب حتى لا يستطيع طيار الميراج التصويب نحوه بدقة لقوة الضوء ٠ وللمرة الثالثة يصاب ٠٠ (٠٠٠٠) ، اشتعلت النيران فى جناح طائرته الايمن ، أصبح الدخان لزجا وكثيفا يوشك أن يخفقه ، لكنه أصر الا يغادر طائرته ، اتخذ قرارا وأصر أن ينفذه حتى ولو أحترق مع جسم طائرته المعدنى المشتعل ، قرر الا يقع فى الاسر أبدا ٠٠ انه بطبيعته لايقبل الاهانة ، حتى فى أدق الأمور ، والتفاصيل الصغيرة فى حياته ، والاسر يعنى بالنسبة له تعرضة للاهانة من جانب عدو يحتقره ، عندما رأى مياه قناة السويس الزرقاء ، كانت الطائرة قد وصلت الى أدنى ارتفاع لها ، وكمحاولة أخيرة بذل أقصى ما فى وسعه لكى يدفعها الى أعلى ، واستقام لها ، وكماولة ثم قفز منها ، شعر بلهب نار من اليمين ، رفع يديه ليغطى وجهه ، فتحت المظلة ، وعندما لامس بقدميه الأرض لاقى صعوبة فى فصلها عن جسده ، غير انه نجح فعلا فى ذلك ، لمح حفرا قريبة ، أسرع على احداها ، لزمها ومعه حقيبة مؤن ، كان منهكا ، فلحظة قفز الطيار بالمظلة تعرضه لتحمل ضغط وجهد غير عاديين ، من حفرته رأى طائرة ميراج معادية ، انطلقت عليها الصواريخ المصرية ، وأشعلت الطائرة بالنيران ، انفجرت فى الجو ، سمع أصوات طلقات نارية قريبة ، زحف (٠٠٠٠) خارجا من الحفرة لمح سيارة نقل عسكرية مصرية ، انتابه فرح بعد تأكده منها ، أخرج علما أبيض لوح به اليهم ، اقترب منه الجنود المصريون بحذر ، قال انه طيار عراقى ، وان طائرته أصيبت ، تقدم منه ضابط مصرى برتبة ملازم ، تأكد من شخصيته وعندئذ ضمه الى صدره ، وقبله ، وأحاطه المقاتلون المصريون ، احتضنوه وقالوا بتأثر:

« حمد الله على السلامة يابطل ٠٠ » ٠

كان (٠٠٠٠) مرهقا ، ان الجهد الذى بذله خلال الطيران ، محاولة

السيطرة على الطائرة بعد اصابتها ، ثم قفزه بالمظلة ، وانتقاله من الحركة المطلقة الى الثبات ، والأرض ، والاخطار المتعددة ، عناصر عديدة تكالبت عليه ، أصابته بأعياء شديد ، لدرجة أن الوقوف كان يؤلمه ، ركب السيارة الى مركز قيادة خلفى ، شرب شايا ساخنا ، تناول طعاما خفيفا ، ثم نقل فى عربة أسعاف الى أحد المستشفيات بالقاهرة ٠

(٢)

عندما أصبح المقاتل طيار (عبد القادر) قائد الطائرة (٣) قريبا من القناة بدأ مطر خفيف ثم انقطع ، قبل اقترابه من أهداف العدو حول الطاسة سمع (٠٠٠٠) فى اللاسلكى يبلغ عن وجود طائرات معادية ، حاولت الطائرات المعادية مهاجمتهم ، لكن اصابة طائرات تطير على ارتفاع منخفض جدا أمر صعب للغاية وصاح قائد التشكيل :

ـ الطيران نحو الهدف مهما كلف الثمن ٠٠ غايتنا الطاسة وليست الطائرات ٠

لجأ العدو الى مناورة أخرى ، اذ انطلقت طائرة ميراج على ارتفاع منخفض أمام المقاتلات العراقية لاغرائها على الارتفاع ، بينما تقوم طائرتا ميراج بمهاجمتها من الخلف فى اللحظة التى يرتفعون فيها ، وتنبه الرجال الى الفخ ، استمروا فى اتجاه الهدف ، بدأت الدفاعات الأرضية ، تطلق النيران خصص لعبد القادر مهاجمة الرادارات المنتشرة حول الطاسة ، لاحظ تجمع دبابات كبير الى اليسار ، قرر الانقضاض عليهم ، وجه الطائرة ناحية الدبابات ، أطلق مدافعه ، ثم أطلق صواريخه على أجهزة رادار صواريخ الهوك ، اتخذ اتجاه العودة ، فى هذه اللحظة فقد الاتصال بقائد التشكيل ، تعطل جهاز اللاسلكى ، لمح (عامر) الى يمينه على بعد ثلاثمائة متر بينما أمر (٠٠٠) فى مهاجمة الهدف ، رأى طائرتى ميراج تقتفيان أثر (٠٠٠) ٠ صاح فى الجهاز :

ـ ابقى واطىء بعد الضرب ٠

فى هذه اللحظة أصابت طلقة مدفعية مقدمة الطائرة ، أصيب حـــذاء الطيران بشظية ، فى اللاسلكى صاح عبد القادر :

ـ أصبت ٠٠ الضرب شديد ٠

أجاب قائد التشكيل :

ـ أدرى ٠٠

وجاء صوت عامر :

ـ أصبت فى المحرك ٠٠

أجاب القائد :

ـ حاول الوصول الى القناة ، لو اشتبكنا سنسقط فى أرض معادية ٠

كان قائد التشكيل حريصا على أن يصل (عامر) بأى ثمن الى الأرض التى يسيطر عليها المقاتلون المصريون ، مما يخجله أن يعود سالما بينما يتخلف رقم(٢) أو رقم (٣) من اللحاق به ، ان هذا فى نظره ، قادة التشكيلات

عيب كبير ، لهذا يبذل القائد أقصى جهده ليبقى باستمرار مشرفا علىحركة رجاله وطيرانهم ، وفى مثل هذه المواقف تبدو قيمة الانضباط العسكرى ، ويبدو أن (عامر) قد نفذ أوامر القائد ، دفع طائرته المصابة حتى وصل الى الأرض المحررة ، ثم اختفى ، وبعد فترة عثر على جثمانه ٠

لاحظ عبد القادر أن الميراج لازالت تتبع (٠٠٠٠) ٠ وفى اللاسلكى استطاع أن يسمع الاتصالات الدائرة بين الطائرات المعادية ، أصيب خزان الوقود الرئيسى بطلقة مدفعية مضادة ، انتشر دخان كثيف ، فى هذهاللحظة اختفى عامرتماما ، ادرك عبد القادر أن النار لو لحقت خزان الأوكسجين فسينتهى كل شىء ، قرر ان يغادر الطائرة ، وفى الثانية الأخيرة أعطىبلاغا للقائد :

ـ أصيبت طائرتى ٠٠ سأغادرها ٠

تلا الشهادة ، ثم أصبح فى الفراغ ، رأى الأرض تقترب منه والمظلة لم تفتح بعد ، لم يشعر ففتحها ، وبداله ما يمر به حلما غامضا ثقيلا ،وتساءل أهذا هو الموت ؟ أمسك الرمال ،اذنلايزال جسدا حيا ، فك المظلة وعلى بعد عشرات امتار رأى دبابة اسرائيلية ، الى اليسار ، قاعدة صواريخهوك، ان تفكيره يتوالى بسرعة ، فقد مسدسه ٠ بدأ يجرى وفى اتجاهه انطلقت رصاصة سريعة ، انبطح أرضا ، تحركت عربة مجنزرة نحوه ، توقفت على بعد قليل منه ، لم يظهر منها أحد ، تحركت الدبابات حركة دائريةغريبةثم اكتشف أن دوارا أصابه ، تحركت المجنزرة ، صاح صوت بغيض :

ـ امتد ٠٠

لم يستجب ، قرر ألا يموت كالخروف ، لو قتلوه ، فليمت واقفا ،اقترب منه جندى صهيونى ، دفعه بشدة ، امتلات عيناه بالرمال ، سالت الدماءعلى جانبى فمه ، عصبوا عينيه ، رفعوه الى داخل المجنزرة ، بدأت تتحرك ، ولم يكن فى وضع يسمح له بتقدير الوقت الذى استغرقه المسير ، اقترب منه أحدهم ، فتح سترته ، سرق علبه السجائر ، وكانت محويات جيوبه ،بطاقة الهوية المصرية ، وريال سعودى ، ودرهم كويتى ، وجنيه مصرى ، توقفت المجنزرة ، ثم بدأت تنحدر ، تمشى فوق طريق مسفلت ، أصبحت أصوات المدفعية نائية بعيدة ، أنزلوه ، دخل حفرة مسقوفة ، نزعوا العصابة عن عينيه ، وكان جنود يوجهون اليه اللكمات ، والضربات ، وبرغم آلامه حرص على أن يمشى منتصب القامة ، حتى لا يعطيهم انطباعا أنه يعانى ولا يستطيع تحمل معاناته ٠

● ● ●

جاء أحدهم يتحدث الانجليزية بلهجة أمريكية ، تأمل الجرح النازف فى رأسه ، أما الشظايا التى استقرت فى ساقه فلم يبد عليه انه لمحها حتى كتب كلمات فى ورقة ، جاء عريف اسرائيلى ، طويل ، خشن ، يتكلمالعربية، أعطاه حبة ، رفض أن يبتلعها ، أمسكه من ذراعيه ، حاول جندى آخر أن يدفع بالحبة فى فم عبد القادر ، لكن عندما رأى الدماء تزداد على جانبىفمه، ابتعد عنه ، لم يستطيعا ارغامه على تناول القرص ، أخذوه الى غرفة أكثر اتساعا ، جاءت مجندة تحمل كوب ماء ، لاحظ ان خلفها مصورا ، قرر ألايعطى

انطباعا بأنهم يعاملونه بشكل جيد ، فى نفس الوقت جمع كل ما تبقى فى طاقته حتى يبدو متماسكا فى الصورة ، جاء العريف مرة أخرى ، دفعه بخشونة ، عصب عينيه ، دفعه الى الخارج ، أجلسه على صخرة ، شده اليها، تركه، قضى عبد القادر ليلة كاملة فى العراء ، معصوب العينين ، بدون طعام ، يصغى الى أصوات الجبل ، والصحراء والليل ، والانفجارات المكتومة البعيدة وكلما مضت ساعات الليل يشتد البرد • وفى الصباح وصل الى درجة انهم لو قطعوا ساقه فلم يكن سيشعر بها ، جاءوا ، فكوا وثاقه ، سأله أحدهم •

ـ هل ستستعمل مصر الغازات ضدنا •

هز عبد القادر رأسه :

ـ لا أعرف •• لكننى أعرف أن الطائرات المصرية ستهاجم بعنف •

كان يريد تضخيم القوات المصرية فى نظرهم ، فى احاديثه ، وسوف ينعكس هذا عليهم بدرجة ما ، دفعوا به الى سيارة نقل ، استمرت تسيرفترة، يظن انه وصل الى العريش ، نزلوا به الى مبنى ، الطريق اليه منحدرتحت الأرض ، اجلسوه على كرسي خشب، وحوله بدأت أصوات سكاكين ، وطلقات رصاص ، وعلى باب الغرفة ظهر جندى اسرائيلى أطلق شعره كالهيبز ، ملتح ، حمل حقيبة فتحها بها آلات جراحية ، برغم اعيائه الشديد ، حاول الابقاء على ذكائه حيويا ، نابها ، أدرك انه لو التزم العنف فسيقابل هذا بعنف أكثر ، ولو أبدى لينا فسوف يتجرأ الصهيونى عليه ، اذن لبراوغه • بدأ الصهيونى يوجه اليه الأسئلة التى تستهدف بالطبع معرفة أى قدر من المعلومات ، من كان معك ؟ من أين اقلعت ؟ ، وأجاب عبد القادر بالنفى، لابد ان يبدأ متشددا ، ثم يجاوبه وفقا لأسلوب خاص ، دخلت مجندة تحمل صينية عليها طعام مكون من بيض مقلى ، وجبنة بيضاء ،وطماطم، وعلى مهل بدأ الصهيونى يأكل متلذذا ، وعلى الرغم من جوع عبد القادر الشديد ، فقد أبدى لا مبالاة غير محدودة ، نقلوه الى بناية أخرى ، جاء ضابط أمريكى برتبة عميد (بريجادير) •

ـ أين نزلت الميراج الليبية ؟

قال عبد القادر :

ـ لا أعرف •

مرة أخرى سأل الضابط الأمريكى الملامح واللهجة :

ـ كم عددهـــا •

ـ لا أعرف •

هز رأسه ، أشار بذقنه :

ـ خـذوه •

ثم التفت الى عبد القادر قبل أن يعصبوه :

ـ تشرب مـاء ؟

وبرغم الظمأ الشديد ، هز عبد القادر رأسه :

ـ لا •

دفعوا به الى طائرة بعيدة ، بعد فترة نزل أحد المطارات ، وسمع

صوت ناس تتحدث ، عربات ، وصياح أحدهم ، وغناء منبعث من راديو،سمغ مدينة ، وعلى الرغم من آلام قدمه المبرحةالتى استقرت فيها الشظايا،وجوعه، وآلامه ، يديه المثقتين خلف ظهره ، وعينيه المعصوبتين ، راح يمشى متماسكا، بحزم ، رفع رأسه قليلا الى الوراء ، ان عبد القادر يرى فى نفسه الآن ممثلا لكافة المقاتلين الذين عاش معهم ، مصريين ، عراقيين ، جزائريين ٠٠فى تلك اللحظات يصبح كل تصرف مهما صغر يحوى دلالات وابعادا أكبر منه بكثير، أخذوه الى سجن حربى قريب من تل أبيب ، فتحوا عينيه فى زنزانة مصمتة، بعد قليل جاء ثلاثة صهاينه سحبوه بفظاظة ، اتجهوا به الى مبنى أدرك فيه انه مخصص للمخابرات الاسرائيلية :

ـ ارفع يديك ٠

تركوه ، بعد فترة اخذوه الى الداخل ، نزعوا العصابة عن عينيه ،رأى رجلا شواربه صفراء ، قال :

ـ ماذا قال معروف الرصافى عندما نفاه عبد الاله الى الفلوجة ؟

ونظر اليه عبد القادر صامتا . كان يعرف بيت الشـــعر الذى قاله الرصافى ، لكنه رفض البوح به حتى لا يوجد علاقة بينه وبين الاسرائيلى ، عبد القادر ينظم الشعر ، ويحفظ آلاف الابيات ، ثم انه يعرف أسلوبهم انهم يبدأون الحديث مع المقاتل الاسير بجملة أو عبارة شعبية دارجة ، أومثل معروف ، أو بيت شعر ، حتى يبدون وكأنهم عالمين بكل شيء ٠ بعد لحظة قال الصهيونى :

ـ أبلاط أم ملاط ، أم مليك بالمخانبث محاط ؟

نزعوا ملابسه ، ان اعرى جزء من عملية اذلان بمقصوده ، بينما تردد على القرب أصوات تعذيب وضرب ، وأحاديث بلغة عبرية ، أخذوه الى زنزانة، دخل ، صلى ، انه شديد التدين ، حج الى بيت الله فى مقتبل عمره ،ويناديه زملاؤه دائما « ياحاج عبد القادر ٠٠ » وعندما تسلل الى عينيه النوم ،جاءوا بضجة ، أيقظوه ، لايريدون ان يذوق النوم ، مرة أخرى وجد نفسه أمام الصهيونى ٠ أعادوه الى زنزانة أخرى كل جدارتها مطلية باللون الأحمر ، لون فاقع مثير للأعصاب ، دخل أحدهم ، راح ينظر اليه بصمت لمدة ساعة، ثم جاء جندى آخر عصب عينيه ، شدة من يديه بقوة ، قادوه الى الخارج ، انه رباط النايلون انه أشد وعورة من الكلابش أو أو الحبل حيث يغوص بطراوته وليونته فى اللحم ، أجروا معه تحقيقا ثانيا ، ثم أعادوه الى الزنزانة ، وهكذا استمر به الحال لمدة خمسة عشر يوما ، حتى نقلوه الى عنبر به الاسرى المصريين ، وكان عبد القادر ولد من جديد ، استقبله زملاؤه المصريون بترحيب ، عانقوه ، وأفردوا له مكانا خاصا فى العنبر ، ورأى معنوياتهم عالية للغاية ، كانوا يضحكون ، ويسخرون من العدو باستمرار ، وفى الليل ترتفع أصواتهم بغناء قوى ، يرج السجن رجا ، لدرجة ان العدو يسرع فورا محاولا أسكاتهم ، وفى العنبر رأى عبد القادر أكثر من مقاتل مصرى كل منهم يتنافس على أضحاك العنبر كله ، كانت الروح العربية المقاتلة تتألق هنا وتضوى فى ظلام الاسر كأشد ماتكون ، ثم نقلوا عبد القادر مرة أخرى الى عنبر آخر ، والتقى بزميله المقاتل الطيار(عماد)

فجر أحد الأيام ، جاء أفراد من العدو ، قالوا ، هيا ستذهبون الى القاهرة، مروا فى الطريق بشوارع ، لاحظوا ارتفاع نسبة الأطفال والعجائز ،وقلة الشباب والشابات همس عماد :

ـ هيا نضحك ونتكلم .. كأننا لانبالى .

فى المطار التفت سائق السيارة اليهم ، وقال :

ـ انتم طيار ان ؟

أومآ برأسيهما ، قال :

ـ والله خليتهم مرابض المدفعية فحم فى سيناء .

فى المطار رأيا زميلهما (دريد) ، صعدوا معا الى طائرة الصليب الأحمر ، من طراز : D.C E أصبحت أعصابهم مشدودة ، متى يعمل المحرك؟ أغلقت أبواب الطائرة ، بعد الاقلاع تعانقوا ، اقتربوا من كابينة الطيار ، عند دخول المجال الجوى لمطار القاهرة .. قال عبد القادر للطيار :

ـ أريد ان اسمع نداء من مطار القاهرة .

أعطاه الطيار الميكرفون الاحتياطى :

وجاء صوت القاهرة ..

التفت عبد القادر وعلى وجهة ابتسامة عميقة ، عريضة ورفع أصبعيه لزميليه دريد وعماد ، بعلامة النصر .

(٣)

..أول أكتوبر ١٩٧٣ استعد عدد من الطيارين العراقيين فى مصر للعودة الى بغداد فى أجازة دورية معتادة ، وجهز (عماد) حاجياته ،وسأل زملاءه ، هل يرغبون فى ارسال خطابات الى عائلاتهم فى العراق ، واستعد بعضهم لكتابة الرسائل ، لكن الأوامر جاءت يوم ٥ أكتوبر بتأجيل الاجازة حتى الانتهاء من التمرين الذى بدأ منذ أيام .

ظهر السبت قام قائد السرب بعقد اجتماع مع الطيارين وقال ان الأمر ليس تدريبا ، ولكنها الحرب ، ثم دعا أقدم ثلاثة موجودين ، وكلفهم بالاشراف على تكملة جميع الاحتياجات وبدت فرحة الرجال كبيرة باللحظات التى انتظروها طويلا ، طويلا ، قبل الاجتماع كان عمـــاد قد جلس يلعب الشطرنج مع أحد الزملاء المصريين ، التقى به عند اتجاهه الى الطائرة لوح له ..

ـ سنكمل اللعب بعد ان أرجع .

بدأت الطائرات تقلع ، بين كل عدد منها فاصل زمنى حتى يتم عبورها القناة معا الساعة الثانية وخمس دقائق ، طار عماد كقائد تشكيل ، هدفه ضرب مواقع العدو فى منطقة عيون موسى . ومن الطائرة رأى (عماد) المباغتة الرهيبة ، جرى الاسرائيليون ، ثم ضرب قواعد الصواريخ ، التقطت كاميرا مثبتة فى الطائرة فيلما كاملا لآثار التدمير الذى حدث فى المواقع الاسرائيلية، بعد عودة التشكيل تم طبع الصور ، علقت فى غرف الطيارين ،وغرف الطعام، أثناء العودة لمح (عماد) جنودا مصريين يعتلون الساتر الرملى لخط بارليف، يرفعون أيديهم يلوحون بعلامة النصر ، وبدا المنظر رائعا ، الى يمين (عماد

حلقت طائرة ميج ٢١ يقودها أحد زملائه المصريين ، وإلى اليسار حلقت طائرة (سوخوى) مصرية ، ثلاثتهم عائدون من الاغارة على مواقع العدو فى عيون موسى ، وبدا المشهد رائعا يلخص العديد من المعانى ، أبرزها وحدة المقاتلين العرب ، بينما تردد فى أجهزة اللاسلكى داخل كبائن الطائرات صيحات الطيارين ..

ـ الله أكبر .. الله أكبر ..

يوم (٧) طار عماد مرة ثانية ليشترك فى الهجوم على المواقع العدو فى الجدى والطاسة ، وفى يوم (٩) عاد الى أجواء سيناء مرة أخرى ليهاجم طابور دبابات اسرائيلية ، ومن أعلى رأى أوضاع الوحدات المعادية التى تعكس اضطرابا وجزعا من الضربات العربية القاصمة ، يوم الأربعاء العاشر من أكتوبر استعد عماد للطيران ،أكثر اللحظات فرحا بالنسبة للطيار هى التى يتلقى فيها أمر القتال ، ثم الطيران . وأشد مايزعجه ، بقاؤه فوق الأرض بدون واجب قتالى ، اتجه (عماد) مع زملائه المصريين والعراقيين لمهاجمة تجمع للدبابات المعادية جنوب الطاسة بثلاثة كيلو مترات ، يبدو أن الصواريخ أصابت مستودعاللذخيرة ، اذ ارتفعت السنةعالية جدا من اللهب. توالت انفجارات ، لم يسبق لعماد ان رأى نارا كهذه الا فى الأفــلام السينمائية من حيث كثافتها وعنفوانها ، صاح أحد الطيارين فىاللاسلكى.

ــ الضرب رائع .

بدات المدفعية الأرضية المعادية تركز نيرانها على الطائرات . أصيب الجناح الايمن لطائرة عماد ، صاح قائد الطائرة رقم (٢) ..

ــ أصبت ياعماد .

رد فى اللاسلكى :

ــ ادرى .. ولكننى اسيطر على الاجهزة .. سأكمل ..

مرة ثانية أصيبت الطائرة فى الديل ، فقد القدرة على التحكم فيها ، اضطر الى القفز منها على ارتفاع منخفض جدا ، وعندما أحاط به جنود العدو ، عصبوا عينيه ، سمع أصوات قنابل قريبة جدا ، ظن انهم سيعدون به كمينا ، وبدأت رحلة الأسر ، الانتقال باللوريات ، الوصول الى مطارحيث (دريد) أصيبت طائرته فى اليوم التالى لاصابة عماد ، عندما رأىزميله صوت اقلاع وهبوط الطائرات ، التعذيب ثم لقاء بطيار عراقى زميله قال :

ــ الواجبات مستمرة .. جماعتنا مستمرين بالطيران .

كل تصرفات العدو مخالفة لقواعد معاملة الأسرى ، حيث التعذيب المستمر ، الحبس الانفرادى ، الحرب النفسية المتصلة ، الصياح بأسماء غير موجودة ، أدرك عماد كذبهم ، اذاعة تسجيلات لأصوات تعذيب ، ثم أصوات وآلات حفر ، وفى ليلة ٢٢ جاء أحد الضباط الاسرائيليين ، أخرج عماد من الزنزانة ، ولأول مرة يرى بعض زملائه : عبد القادر ، ودريد ، وسعد الذى أصيب على الجبهة السورية ، وفى أحدى الليــالى ، جــاء ضابط آخرجهم واوقفهم فى بداية ممر طويل ، صاح :

ـ أجروا ٠٠٠

وتشابكت ايديهم ، هذه حيلة معروفة ، عند بدء الجرى يطلقون عليهم النيران ، ثم يزعمون انهم حاولوا الهرب ، ولأن كلا منهم أعد لنفسه لأسوا الأشياء لم يبد لهم الموت غريبا ، لكن فى النهاية الممر فتح الباب ، خرجوا صعدوا الى أوتوبيس ، لم تعصب عيونهم ٠ بينما بدت لافتات تشير الى تل أبيب ـ المطـار ، فى منطقة معينة ، صعد بعض الأسرى المصريين ، تعانق العراقيون والمصريون ٠

ـ الى أين ؟

قال المصريون :

ـ الى القاهرة ٠ ٠

وعرف العراقيون أن زملاءهم المصريين أضربوا عن الطعام ، لمدة عشرة أيام متصلة عندما عرفوا بوجود اسرى عراقيين لايعلمـون عنهم شيئا ، ظنوا انهم قتلوا ، ولم ينته الاضراب الا بعد فلك الحبس الانفرادى عن عماد ودريد وعبد القادر وبقية زملائهم ، وتأكد المصريون من سلامتهم ، فى الطائرة قال مندوب الصليب الأحمر :

ـ رفض المسئولون المصريون اجراء أى تبادل فى الأسرى حتى تتم الموافقة على أعادتكم ٠٠ كان المفروض ان تبدأ عمليات التبادل يوم ٢١ ولكن تأخرت حتى ٢٣ بسببكم ٠

فى القاهرة نقلوا الى مستشفى خاص للعلاج ، لتزويدهم بالفتيتامينات والادوية المقوية ، ثم جاء الفريق حسنى مبارك قائد القوات الجوية المصرية وقتئذ ، عانقهم واحدا ، واحدا ٠

قبل ان تبدأ حرب أكتوبر وضعت قيادة القوات الجوية العراقية خططا مفصلة مسبقة لما يتم عملة فيمالو قامت الحرب بين القوات العربية والاسرائيلية ضمت هذه الخطط أدق التفاصيل المتعلقة بالتحركات التى سوف تتم لو نشبت الحرب على الجبهة السورية ، والأردنية ، أو المصرية ، تضمنت أيضا أنواع الطائرات واعدادها التى سيتم دفعها هنا وهناك ٠ لهذا فان القيادة الجوية العراقية لم تبدأ يوم ٦ أكتوبر ، بالتخطيط انما بدأت بتنفيذ ماهو مخطط عندما قررت الثورة العراقية دخول الحرب ، وصدر قرار بوضع الجيش العراقى كله تحت امرة القيادتين المصرية والسورية ، وهكذا اندفعت ألوية كاملة من (الميج ١١) والميج(١٧) و(لسوخوى) الى الجبهة السورية ، وكان استعياب القواعد السورية للسوخوى أكثر من الميج ٢١ ، وهكذا دفعت جميع طائرات السوخوى الى سوريا ٠ لم تبق طائرة واحدة من هذا الطراز فى العراق ، فى اليوم التالى مباشرة لبدء القتال ، واشتركت خلال نفس اليوم فى الحرب ، حيث تضمنت واجباتها حماية الارتال العراقية المتحركة الى الجولان ، والهجوم على الأهداف الاسرائيلية التى تحددها القيادة السورية ، وتبقى فى العراق بعض الطائرات المقاتلة للقيام بواجبات الحراسة ، اد أن القيادة الجوية العراقية قدرت من قبل أمكانية قيام اسرائيل بهجوم جوى عبر الأراضى السعودية على القواعد العراقية ، وخاصه ان العدولديه

طائرات الفانتوم ذات المدى البعيد ٠

(٥)

تم تحرك الاسراب العراقية الى القواعد السورية ٠ من المفروض أن يتم استطلاع مسبق ، لكن لم يكن هناك الوقت الكافى ، تم بسرعة استلام الشفرات الخاصة بالطائرات ٠ وكحل لمشكلة تعرف الطيارين العراقيين على الأهداف الأرضية والعلامات التى تساعدهم فى الاتجاه الى الهدف الى الهدف ، تمت الطلعات الأولى للطائرات العراقية بقيادة طيارين سوريين ٠ ثمة صعوبة خاصة باختلاف بعض المصطحات العسكرية المستعملة فى القوات الجوية السورية عن تلك المستخدمة فى القوات الجوية العراقية ، غير ان حماس الجميع للقتال قهر كل الصعوبات ، اندفع الطيارون العراقيون والسوريون للاشتباك بطائرات العدو ومهاجمة أهدافه الأرضية ، ولعبت الطائرات العربية دورا أساسيا فى كسر حدة الهجمات الجوية المعادية والتى بلغت شدتها خلال الأيام الأولى من الحرب حيث اتعمد العدو على سلاحه الجوى بشكل رئيسى فى محاولة تدمير القوات السورية ٠ وفى سماء الجولان ، حدث كثيرا أن فر طيارو العدو ، أمام المقاتلين العرب رغم طائراتهم الحديثة، والمجهزة بأحدث المعدات ، دمر المقاتل طيار العراقى (ابراهيم) أربع طائرات اسرائيلية بطائرته الميج ٢١ ، وعندما أصر المقاتل طيار (جودت) على الطيران نصحه الطبيب بالبقاء لانه مريض منذ ستة شهور ، لكنه أصر على الطيران ، وطار فعلا على الميج ١٧ ، وهاجم العديد من أهداف العدو ، وبدا المقاتل (حسن عيد) مندفعا جدا ، حلق فى الجولان ضاربا رقما قياسيا فى عدد الطلعات التى يمكن لطيار ان يقوم بها فى يوم واحد ٠ وفى أحد أيام الحرب ، شاهد طائرة فانتوم معادية الى جهة اليمين ، لم يتردد ، قام بمناورة حادة حيث أصبح بطائرته الميج (٢١) فى وضع يسمح له بمطاردة الفانتوم وعلى الفور انطلق الطيار الاسرائيلى بسرعة الصوت هاربا ، استشهد حسن عبيد خلال الأيام الأخيرة من الحرب ٠ وفى الساعة ١٠ر٤٥ يوم ١٢ أكتوبر اشتبكب أربع طائرات عراقية من طراز ميج ٢١ مع عدد من الطائرات الاسرائيلية ، وتث اسقاط ثلاث طائرات فانتوم ، وفى نفس اليوم تمكن طيار عراقى من اسقاط فانتوم أخرى ، لكنه لم يهبط فى القواعد السورية ، ويعتقد بأنه أصيب من الطائرات المعادية ، انفجرت طائرته فى الجو ، وروى أحد الطيارين السوريين (ان هذا الطيار اتصل بمحطة الرادار ، طلب توجيهه نحو طائرة معادية أخرى بالرغم من عدم كفاية الوقود الا للهبوط) فقد الاتصال به ولم يعثر عليه حتى الآن ٠

عندما وصل المقاتل طيار (محمد) قائد سرب السوخوى العراقى الى مطار (بلى) السورى الأمامى ، الواقع على طريق السويداء ، فكر ، **لو أن عملا مسبقا تم بين الطيارين العراقيين والسوريين لأصبح الوضع افضل والتجانس أشمل** ، ولكنه بدأ على الفور فى تذليل تلك الصعوبات بالعمل المشترك ، تعرف الطيارون على المنطقة ، اشتراكوا فى أول طلعة يوم ٨ أكتوبر ، وتولوا الهجوم على طوابير العدو المدرعة ، واسناد القوات السورية

فى القطاع ، تعرض مطار (بلى) لغارات معادية ، فى احـدى هذه الغارات ، أصيب مقر الطيارين ، لكنهم تواجدوا كلهم بعيدين عن الفرقة فى هـــذه اللحظات • أصيبت أيضا ممرات الطائرات ، لكن بعد فترة قصيرة جـدا اعيدت الى العمل ، بواسطة جهود أفراد الجيش الشعبى السورى المكثفة والشاقة ، والتى بلغت درجة عالية من الحماسة •

فى اليوم التالى قام الطيارون العراقيون بتنفيذ واجب صعب ، اذ أقلعوا فى وقت متأخر قرب الغروب ، فى اتجاه الشمس ، وبدت الأرض متموجة • غير سهلة ، بها عوارض أرضية ، يتطلب الطيران دقة عالية فى مثل هذه الظروف ، لكن كل هذه الظروف ذلك بفضل حماس الطيـــارين الفائق ، هاجموا قسما من القوات الاسرائيلية التى كانت تحاول التقدم الى الجولان ، انقضت الطائرات على مقدمة الرتل المعادى • تم تعطيله ، ثم انقضت الطائرات على الرتل •

عند العودة كانت هناك غارة على مطار (بلى) • وبسرعة هاجمت الطائرات العراقية التشكيل الجوى المعادى الذى يحاول ضرب المطار ، وقام بعض الطيارين بمطاردتها ، وعندما استعدت الطائرات للنزول ، تبين أن الممرات مضروبة ويجرى اصلاحها ، مما اضطرها الى الهبوط فى مطار آخر، جهد شاق بذله الطيارون ، ورغم هذا القتال المتصل المتلاحق ، فقـد قاموا بعد ساعتين بتنفيذ واجب ليلى فى نفس المنطقة ، بعد بدء الهجوم الاسرائيلى المضاد ازدادت طلعات الطائرات وطرأ تغيير على الواجبات القتالية ، فبدلا من تنفيذها طبقالخطط مسبقة ، أصبحت الواجبات فورية ، وفى جميع اللحظات كان الطيارون العراقيون مسـتعدين للاقـلاع ، لتقديم الاســناد الفورى للتشكيلات الأرضية ، أو للاشتباك بالطائرات المعادية •

● ● ●

بعد وصول المقاتل طيار (حسين) الى مطار المزة القريب من دمشق بنصف ساعة قادما من العراق • طلب تنفيذ واجب قتالى يتعلق باسناد بعض التشكيلات السورية • وتقدم المقاتل طيار (حسين) فورا لتنفيذ المهمة ، هذه هى المرة الأولى التى يطير فيها فوق الجولان ، فى اليوم التالى مباشرة ، فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، توجه لضرب مناطق تجمع العدو •• تولى قيادة التشكيل ، **ولم يكن قد تعرف جيدا الى المنطقة ، ان الطيار اذا تعرف جيدا الى المعالم الأرضية ، يستطيع أن يذهب ويرجع بدون خريطة** ، غير أن المقاتل حسين ، اندفع على رأس التشكيل بحماس نادر لتنفيذ المهمة •• هاجم الدبابات المعادية ، طار أفراد العدو الذين حاولوا الافلات بالرشاشات • فى العودة انطلقت عليه المدفعية الاسرائيلية • شعر برجة فى الطائرة ، حاول توجيه الطائرة للخروج بها من النطاق المعادى غير أن الطائرة أشتعلت فيها النيران ، ارتفع بها الى مسافة ٣٥٠ مترا المسافة التى تمكنه من فتح المظلة ، قفز من الطائرة ، بعد لحظات لامس الأرض بقدمية • تطلع حوله رأى اثنين من مشاة العدو ، ان تسليحه عبارة عن مسدس فقط ، من هنا تبدو المقاومة صعبة ، وعورة المنطقة ساعدته على الاختفاء ، اختبأ خلف صخرة ، فى هذه

اللحظة بدأ تبادل اطلاق نيران مدفعي بين العدو والقوات العربية ، استغل هذه الفرصة ليتخلص من المكان الذى رصدوه فيه ، لم يعرف اتجاهه ، لكن انطلاق المدافع العربية حدد له الاتجاه ، قدر تصرفهم • بعد توقف اطلاق النيران سيبحثون عنه فى اتجاه الجبهة التى تنطلق منها المدافع العربية، قرر أن يمشى فى الإتجاه المضاد ، جبل الشيخ كان الى يمينه أثناء الذهاب، أصبح الآن الى يساره ! بعد خمس دقائق قطع خلالها حوالى مائتى مترمشيا توقف لحظات • ثم استمر • وعندما أصبح فى منطقة عارية زحف على بطنه . ظهره يؤلمه • أصبح الآن فى منطقة بها مزروعات ، بعد قليل رأى راعيا ملامحه عربية ، اختفى عنه فى البداية ثم ظهر أمامه فجأة ، قال :

ـ أنا طيار عراقى ••

ابتسم الرجل مرحبا •• سأل (حسين) بحذر :

« أين أنا الآن ؟ أين دمشق •• » •

قال الراعى :

ـ على بعد ٤٥ كيلو متراً •

لمح « حسين » ملاقاة فيها حب ، فتح الرجل ذراعية . احتضنه ، قال له :

ـ عملت خير أنك ماذهبت الى هذه المزرعة •• انها بيت جن •• فيها يهود الآن •

قال حسين بعد أن زال جو الحذر والتوتر •

ـ أريد أن أتصل بقطعاتنا •

قال الرجل ان حركته صعبة ، ولكن عنده أبن يمكن أنيكلفه بهذه المهمة ، دعا « حسين » الى قضاء الليلة عنده ، على مقربة من بيت الرجل تمركزت سرية استطلاع سورية ، فى الليل أرسل الراعى ابنه اليهم ، وفى الصباح جاء ضابط وأربعة جنود ، قال الضابط :

كان حسين متألما للغاية من ظهره ، عانق الراعى العجوز مودعا ، وقبل ابنه الذى يبلغ من العمر أربعة عشر عاما ، ثم صحب زملاءه السوريين ، ساروا فى خط متعرج ، وبعد حوالى كيلو متر توقف حسين دقيقتين ، اشتد عليه ألم ظهره ، يحدث هذا نتيجة للقذف من الطائرة ، ان جسم الطيار يتحمل ضغطا جويا يعادل وزن الجسم خمسا وعشرين مرة ، استأنفوا السيرحتى وصلوا الى الموقع •

بعد انتهاء الحرب ، وعودة حسين الى العراق ، سافر مرة أخرى الى دمشق • ذهب يبحث عن الراعى العجوز ، كان يحمل هدية بسيطة ، وعواطف بلا حدود ، فى البداية قطب الرجل جبينه عندما رأى حسين • ولكن فى هذه اللحظة ، اقترب الأبن ، عانق (حسين) • صاح الرجل مرحبا ، وتعانق الجميع •

وفى الجولان كانت القوات الجوية العراقية قد خلفت وراءها حطام ١١ طائرة سوخوى الآن ، بينما أسر طيار واحد •

فى بغداد • ذهب كبير ضباط التوجيه السياسى للقوات الجوية ،والذى

صاحب السرب العراقي طوال مدة اقامته بمصر ، الى أحد أحياء بغداد ، طرق باب بيت من طابق واحد شأن كل بيوت بغداد الخاصة ، ودخل ، التقى برجل عجوز تجاوز السبعين .

ـ باسم القوات الجوية العراقية أقدم لكم خالص العزاء .. البقية فى حياتك .

كان الأب قد أبلغ باستشهاد ابنه (عامر) من قبل ، بدا صلبا متماسكا ، طلب أن يسمع ماقام به ابنه ، حدثه كبير ضباط التوجيه السياسى عن البطولة عامر ، عن لقائه الأخير به عند سلم الطائرة قبل اقلاعه ، عن طيرانه الأخير يوم ٨ أكتوبر ، توجهه الى الطاسة ، تدميره لأهداف العدو ، أصابته الأب بعد تث[illegible] أثناء العودة ثم العثور على جثمانه ودفنه فى مصر ، عند انتهاء اللقاء . قال الأب بعد صمت .

ـ لى رغبة واحدة ..

وعكست ملامح كبير ضباط التوجيه السياسى ، اصغاء عميقا ..

ـ أن يستمر ابنى عامر مدفونا فى التراب العربى بمصر .. الى جانب اخوانه المصريين .

ويبقى عامر فى مقابر الاسماعيلية ، الشهيد العراقى الوحيد المدفون فى مقابر شهداء حرب أكتوبر ، يبقى رمزا .. ومعنى .

فى الجولان ، تصدر الأوامر بعودة القوات المسلحة العراقية بعد أن أدت واجبها ، ويجمع قادة التشكيلات جميع الجنود والضباط ، وفى صمت الغروب الجولانى الذى يقترب برهبة مصحوبا بضوء يميل لونه الى أحمرار .

أدى المقاتلون العراقيون التحيه لشهدائهم ، حيث يرقد حتى الآن فى قبور الشهداء بمنطقة السيدة زينب بدمشق أربعة وسبعون شهيدا عراقيا بخلاف المقابر السورية الأخرى التى دفن فيها عشرات الشهداء العراقيين ، بينما غابت أخبار ستة وسبعين مقاتلا أعتبروا مفقودين حتى الآن .

ثم أدى المقاتلون العراقيين التحية للأرض التى حاربوا عليها ، التحية لهذا الجزء من الوطن العربى .

ثم قرأوا الفاتحة على أرواح الشهداء .

وتردد صوت القادة :

ـ نعكس سلاح ..

ودوى النفير النحاسى ، بنوبتى رجوع وصحيان ، التحية الأخيرة لزملاء السلاح الذين سيظلون باقين هنا الى الابد ، وقفوا انتباه .. وفى الغروب صاح القادة صيحات طويلة ، ممدودة ، عميقة :

ـ .. الى الأمام .. تقـدم ..

● ● ●

صدر للمؤلف

١ ـ أوراق شاب عاص منذ ألف عام

مجموعة قصصية القاهرة ١٩٦٩

٢ ـ أرض ـ أرض مجموعة قصصية القاهرة ١٩٧٢

٣ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو الى يقظة اكتوبر
دراسة ومشاهدات القاهرة ١٩٧٤

طبعة أولى رواية دمشق ١٩٧٤

٤ ـ الزينى بركات

طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٥

٥ ـ الزويل قصص بغداد ١٩٧٥

تحت الطبع

١ ـ وقائع حارة الزعفرانى رواية طويلة

٢ ـ الحصار من ثلاث جهات مجموعة قصصية

٣ ـ حكايات الغريب مجموعة قصصية

الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب
القاهرة ـ تليفون ٩٧٥٤٢١

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٥/٥٦١٩



« حراس البوابة الشرقية »

ايذانا ببـــداية شـــكل جـديد من الأدب · أدب الحـــرب ، يصحبنا جمال الغيطانى الاديب المعـــروف والمحرر العســكرى لجريدة الاخبـار . فى رحلة على اكثـــر من مســـتوى مع الجيش العراقى · رحلة فى شمال العراق بجماله الاسطورى . وما دار فيه من معارك شهدها المؤلف خلال قيام الجيش العراقى بتصفية الجيب الكردى المتمرد . ورحلة عبر الزمان مع تاريخ المشـــكلة الكردية وتطوراتها ·

رحلة عبر المســـافة الطويلة الممتدة من العراق حتى الجـولان ، والتى قطعتها الوحدات العراقية خلال حرب اكتـــوبر ١٩٧٣ ، ثم استعراض كامل لحقيقة الدور الذى قام به الجيش العراقى عـــلى الجبهـة الســورية . ودوره فى وقف الهجوم الاسرائيـلى المضـاد ، وانقاذ دمشق ·

بحث دؤوب . بعـــين أديب نفـاذة . ترصـــد حركة الانســان العربى فى صراعه ضد الصهيونية . والاستعمار . ورؤية فنية فريدة لعالم الحرب . والسمات الخاصة للحروب الوطنية . والتحررية ·

مطابع مؤسسة روز اليوسف